عبد الحميد

بن هدوقة

بان الصبح

قصة

عبد الحميد

بن هدوقة

بان الصبح

قصة

- 1 -

أتمت ذليلة الحركات الرياضية التي تقوم بها كل صباح ، وتقدمت من مرآة الخزانة وقالت لها وهي تنظر الى وجهها وجسمها فيها :

« أنا جميلة ، أليس كذلك ؟ اياك ان تعكسى أمامي صورة زائفة لحقيقتي ! هذا شعرى أعرفه بلونه الخروبى وطوله . هاتان عيناي العسليتان الحالمتان بتفجير شيء ما ... هذان حاجباي المقوسان الرقيقان . هذا أنفى المستقيم الذي يأنف من انحرافي ... هاتان شفتاي الرقيقتان اللتان تحسنان التدخين والشرب أكثر من القبلات ! »

فكرت لحظات وهي واقفة أمام المرآة ثم قالت :

« صدري لم يستسلم ، ما زال دائما في حالة تأهب ! وهذا خصري ... »

تنهدت وهي تنظر الى خصرها وسخرت منه تقول : ستصير برميلا ذات يوم بفضل كريمو...

اتجهت على اثر ذلك الى منضدة السرير فأخذت سيقارة وأشعلتها وجذبت أنفاسا واذا بالباب يدق ، يصحبه صوت أبيها :

— ألا تقومين ؟

اطفات السيقارة بسرعة ، واشارت الى المرآة هامسة : الجنرال ! وخرجت وغلقت الباب وراءها بسرعة لئيلا يدخل ابوها الغرفة . واجابته :

— لي درس على الحادية عشرة ، والساعة الآن الثامنة والربع .
فسالها :
— وهالة ؟
— خرجت على السابعة والنصف . دروسها تبدأ على الثامنة .
— مع من تذهبين الى الكلية ؟
— كالعادة ، الحافلة أو بعض الاصدقاء .
— أياك أن تركبي مع أي كان !

ابتسمت ساخرة من أبيها ومن نفسها وأسرت : على ماذا تخاف أيها الجنرال ؟ انتهى الامر ... انه هنا في بطني منذ شهرين ! ، ثم أفصحت :

— أنا أركب مع أي كان ! لا ، أبدا !
وفي نفسها كانت تقول : اللهم الا اذا لم أجد...
فقال لها الشيخ علاوة معتـدا بنفسه :
— نحن اليوم لنا اجتماع حول « الميثاق » على الساعة التاسعة .
وأضاف وهو يغادرها :
— اليوم يوم أعداء الله !

نظرت إليه بإشفاق وسخرية وهي تتمتم بين شفتيها : اعداء الله ! كان الله عاجزعن الدفاع عن نفسه ! ...

عادت الى غرفتها فاستلقت في الفراش ، وأخذت علبة السقائر فأشعلت واحدة وجذبت منها نفسا وأرسلته ببطء لتتابع تعرجات الدخان كما تفعل عندما تكون منشغلة البال . أقلعت سيارة أخيها الأكبر الذي يصاحب أباه الى ساحة الشهداء عندما ينزل مبكرا . ومن هناك يتوجه الى عمله ، فقالت في نفسها : «لو كنت سيارة لاتجهت في خط مستقيم ...» لكن الخاطرة لم تكن موفقة ، فاستدركت وما الفائدة ؟ اتحطم لاول عارض ... وقفزت في ذهنها فكرة : تكلّم كريمو الذي واعد أن يجيبها في مدى اسبوع ، وقد انتهى الموعد ، ولم تتصل بجواب .

نزلت الى الصالون في الطبقة الارضية حيث الهاتف ، ركبت الرقم فاذا بصوت يجيبها : « هنا صونا تراك » ... فاستعذرت وأعادت تركيب الرقم ، فأجابها صوت آخر : س . ت . س . في خدمتك ... وضعت السماعة ، وفكرت ماذا تعمل ؟ الهاتف لم يرد أن يذعن لرغبتها ! طفقت تركب الرقم من جديد ، فيجيبها صوت صاحبه لم يستيقظ جيدا :

— ألو ... نعم ....

— أنا دليلة ! (بحدة)

فيجيبها كريمو وقد أيقظته تماما حدة الصوت :

— صباح الخير. ماذا تريدين في هذا الوقت المبكر؟

— (آمرة) أريد أن نتلاقى على الساعة الثانية زوالية !

— على الساعة الثانية ؟ (بتردد) أين ؟

— في شارع محمد الخامس .

— (محتارا) لكني لا أستطيع ... أختي تزف عروسا يوم الاحد ، وابي قرر ان يقيم حفلة لأصدقائه غدا فلا يمكن ان اتغيب ، لا اليوم

ولا غدا ولا بعده ، حتى ننتهي من هذا الزفاف .

— لابد أن نتلاقى اليوم ! (يزداد صوتها حدة وتهديدا) .

— لماذا لا نتلاقى في يوم الاثنين أو أي يوم آخر بعد الزفاف ؟

— (بقوة) لا ! على الساعة الثانية بعد الزوال !

تضع السماعة بقوة وتنهى المحادثة واذا بأمها تدخل ، وتسألها :

— مع من كنت تتكلمين ياطفلة ؟

فردت ساخرة :

— صباح الخير ، «كومندان» !

— مع من كنت تتكلمين ؟ يكفي من المزاح !

— مع خالتي !

— من خالتك هذه ؟ أم تسخرين مني ؟

— خالتى هي خالتي ... ألأنه ليس لك أخت فينبغي أن أبقى بدون خالة ؟

— متى تنتهي من هذه السخرية ؟ أتحسبين أنك ما زلت صغيرة ؟

— ابدا ، «كومندان» ، أعرف جيدا انني لست صغيرة بالمرة !

— معك لا يمكن الكلام ...

رجعت العجوز كلثوم الى المطبخ كالمغضبة . وصعدت دليلة الى الدور الثاني ، الى غرفتها فتحت الخزانة تبحث عن تبان نظيف تلبسه فوجدت كل سراويلها الداخلية وسخة ، في كل مرة تنزع واحدا ترميه في زاوية الخزانة ، وتنسى من بعد تنظيفه ... نزعت التبان الذي عليها ورمته مع الآخرين . ثم رزمت الجميع مع بعض المناديل والصدرات في قميص نوم ، وأخذت حقيبتها اليدوية والرزمة وخرجت . رأت باب الرزق على الله (باب غرفة أخيها الاكبر) وكانت تنوي أن

تطلب من زوجة أخيها ، منى ، أن تغسل لها في هذه المرة أثوابها ؛ لكن لما رأت الباب مغلقا عدلت عن ذلك . ومرت بباب غرفة أخيها رضا ، فدقت على كلمة « الدخول حر » المكتوبة على الباب ، فلم يجبها أحد نزلت الى الدور الأول فدقت على باب « كلبة واعرة » باب غرفة أختها الكبرى زبيدة ، ففتحت لها الباب نعيمة ، ابنة عمها التي تدرس في الجزائر . زبيدة لم تكن هناك . سألتها :

— ليس لك دروس اليوم ؟

— قولي ، صباح الخير ، أولا ...

— خير ماذا ؟ أعندك خير أنت ؟

— طيب ، لا أدرس اليوم ، أنا حرة .

— قولي ، لا أدرس اليوم ، بدون حرية ... أين هي زبيدة ؟ مع الكومندان ؟

— ربما . ماذا تريدين عندها ؟ وما هذه الرزمة التي في يدك؟

— هذه ... ليست بذات أهمية . أعرف انك تقسمين بكل الايمان ان تغسليها أنت ، لكن ... أليس كذلك ؟

— ليس كذلك ! مع السلامة . أنا حرة ، والحرية لا تقبل الاوساخ !

— في كلية الأدب لا يلقنونكم شيئا كبيرا على مايبدو !

— في كلية الحقوق يلقنونكم اغتصاب حرية الناس ! مع السلامة ..

وقفت نعيمة بالباب مازحة تشير لها بالخروج . فاقتربت منها دليلة ووضعت ذراعيها على كتفي ابنة عمها ، وقالت لها ساخرة :

— أقسم بحبك لي أن تغسلي مع ثيابك هذه الأثواب الداخلية . انها نظيفة وانما أحببت أن أزيل عنها رائحة الخزانة !

وقبلتها على كتفها كما يفعل في الريف مع الرجال .

- أنت التي ينادوك شباب الحي : دليلة ـ الرجل ، ليس انا !

— لذلك قبلت كتفك ! لكن لاباس ، أنت ابنة عمى وقبلة على جبينك ليست خسارة كبرى ...

قبلتها على جبينها ساخرة . فقالت لها نعيمة :

— في أي سنة تفكرين الانتهاء من السخرية ؟

— عما قريب ... أؤكد لك .

تركت لها ملابسها الداخلية ونزلت الى المطبخ . فوجدت أمها واختها الكبرى وزوجة اخيها هناك . فحيت :

— صباح الخير ، أيها الرفاق (بصيغة المذكر) !

فقالت لها أمها :

— الى متى وانت تسخرين ؟

— عفوا ، كومندان ، أمزح لا أسخر . علينا بالدقة في التعبير ... الم تسمعي حوار التلفزيون ؟كل واحد يتهم الآخر بعدم الدقة في التعبير !

— مالك ياطفلة ؟

— هوني عليك يا ماما ! أمزح ليس الا . اجلسي ، يا اميمتي الصغيرة ، أنا أفرغ القهوة وحدي بدون أن اتعبك .

قبلتها وجلست فشربت قهوتها في جرعات وخرجت . .

* * *

وقفت دليلة في مفترق الطرق بين «حسين داي » و« القبة » لعل سائقا ممن تتوسم فيهم « غباء خاصا » يدعوها للركوب ...

واخذ السواق يغازلونها من سياراتهم بالاشارات الضوئية ، والبعض بالكلمات والغمزات وهي لا تأبه بهم ، لأنهم كانوا من الشبان . أن

تجربتها علمتها ان الركوب مع من اجتازوا مرحلة الشباب ولا سيما المتزوجين منهم ، أضمن طريقا . بين بن عكنون حيث تدرس وهذا المكان الذي تقف فيه ، قل ما تجد من يضحي بالبنزين والوقت من الشبان . انهم بمجرد أن يسمعوا « بن عكنون » يأخذون في الاعتذار والتأسف الذي لا يغنيها عن طريقها ...

ها هي ذي سيارة ، كانت مسرعة ، واذ رأتها خفضت السرعة ! هاهو رجل بداخلها يتجاوز الاربعين يشير اليها ... تنظر دليلة الى الرجل : يلبس نظارة سوداء لا تتبين من خلالها طريقة نظره . تتردد ! السيارة تبتعد « راجلة » في تباطئ كبير ! اشارتها الضوئية اليمنى تلح على دليلة : « اقبلي ! لا تخافي » ! تلتحق به دليلة . تركب الى جانبه يحييها مرحبا ويعتذر مكانها :

— الحافلات صارت عذابا !

— وأيّ عذاب !

— أتسكنين في هذه الناحية ؟

— لا ، كنت عند خالتي .

— آ ... لك خالة تسكن هنا ... جميل .

— أين تريدين أن أوصلك ؟

— الى بن عكنون فقط ، اذا أمكن .

— تسكنين هناك ؟

— منذ أربع سنوات !

— جميل !

يأخذ علبة سقائر أمريكية من درج السيارة ويناولها سيقارة فتأخذها منه . يجذب القداحة الكهربائية ويقدمها لدليلة وهو يبتسم .

تلاحظ طاقم أسنانه الاصطناعية التي موهها بنابين من ذهب تقول في نفسها : « ان الرجال لا يريدون أن يظهروا كبارا اكثر من النساء ... »

تشعل السيقارة وتعيد اليه القداحة شاكرة . تنتظر ماذا يفعل بعد السيقارة ، لكن الرجل يبقى في حالته الطبيعية . لا يبدي أي حركة أو إشارة خارجة عن نطاق الأصول العامة للسلوك . ثم بغتة يفاجئها سائلا :

— فيماذا تدرسين ؟

فتجيب تلقائيا :

— في الحقوق .

— جميل ! كم سنة بقيت لك ؟

— هذه سنتي الأخيرة .

— أنا رئيس مصلحة ادارية باحدى الشركات . مكتبي بالمدينة .

أعربت له دليلة عن أسفها لا تعابه واضاعة وقته ، وقالت :

— اذا شئت ، اتركني هنا . لست مستعجلة .

فأجابها مبتسما :

— هوني عليك أنا أيضا لست مستعجلا . أعمل بشركة خاصة يملكها شخص واحد . لا يهمه حضوري ، يهمه عملي آتمه نهارا ام ليلا .

— أنا ظننت أن العمل عند القطاع الخاص أصعب...

— وأنا قلت لك أسهل ؟ انما اتفقنا على ان يكون وقتي لي وعمله له هكذا لكل حسابه ...

لو لم أتم العمل المطلوب مني بالنهار أتمه بالليل !

— كيف يستطيع تقدير ذلك ؟

— ممارسة المهنة زمنا طويلا تعلم كل شيء . مثلا في القطاع العام ، المردود يساوي عشر الطاقة المستخدمة !

هزت دليلة كتفيها كمن لا يعنيها الامر . فقال .

— هذه مشكلة من مشاكل الجزائر ... مشكلة كبيرة . ان لم تحل وجدت البلاد نفسها بعد بضعة سنوات كالرجل الذي فقد ذاكرته !

راق التشبيه دليلة ، ولكنها لم تفهم الى ماذا يرمي بكلامه . انه يعمل بالقطاع الخاص ، بأي حق يسمح لنفسه بهذا النقد ؟ أم هي عدوي من « معلمه » ؟ وفكرت أن تهاجمه لترى كيف يصد ضرباتها فقالت :

— ألم تقل انك تعمل بالقطاع الخاص ؟

أدرك الرجل ماتعني بهذا التساؤل فرد الهجوم :

— هل أفقد جزائريتي بذلك ؟

— ليس هذا ما أعني ، لكن ...

— ماذا ؟

— ظننت ان القطاع الخاص يسره أن يرى الجزائر تحيا بعشر طاقتها ... لا ؟

— تحيا ... أظن يا آنسة ان التعبير الذي استعملته لا يتأتى من طالبة في الحقوق . إذا استطاعت الجزائر أن تحيا بعشر طاقتها ، من ذا يكون مثلها ؟ كان عليك أن تقولي إنها تموت تحت ثقل التسعة اعشار الضائعة !

قالت دليلة في نفسها : بدأ يقلقني ... أنا أبحث عن تفجير العشرة أعشار ، حتى يعلو الدخان الى أعلى السماء ؛ وهو يتحدث عن ... لست أدري ماذا ! ... لما رآها سكتت قال :

— من يدري ، ربما بعد المصادقة على الميثاق الوطني تصير الرؤية واضحة ؟

— هذا في الوقت الراهن لا يهمني كثيرا . أنا مشاكلي لم أستطع حلها فضلا عن مشاكل ستة عشر او سبعة عشر مليون جزائري !

— ما يجري في بلادك يهمك ، أحببت ذلك ام لم تحبي ! لكن لا ادري ما هي مشاكل من في الثانية او الثالثة والعشرين من العمر ؟ الحياة كلها أمامك . كل يوم تكتشفين اكتشافا جديدا ! مالك والمشاكل أنت ؟ أنا في سنى هذه وليست لي مشاكل. ...

— من حسن حظك .

— من حسن تنظيمي ! نعم ، من حسن تنظيمي ... انظري الى هذا الجسر الذي نقطعه . ليست الفوضى هي التي بنته ولا الصدفة وضعته هنا ، انما الانسان المنظم . فكر ان السيارات لا يمكنها ان تمر من شعبة غائرة مثل هذه ، فأمد الجسر .

وكانا حينئذ قد وصلا الى الجسر الرابط بين حيدرة والجهة المطلة على البحر من المدينة . فقالت دليلة :

— هناك ظروف لا يستطيع الانسان مجابهتها بسهولة ...

— المجابهة هي الاساس . السهولة تأتي بعد ذلك ... الآن لو لم اقتحم بسيارتي ، وانتظر السيارات الأخرى تفسح الطريق نبيت هنا . كذلك الحياة .

ابتسمت دليلة وردت له ملاحظته الاولى :

— المجابهة غير الاقتحام !

أدرك بسرعة ما تعنى ، وقال :

— واحدة بواحدة ... لكن مع ذلك ، كل من المجابهة والاقتحام

يتطلبان الشجاعة والاستمساك بحرية العمل .

— واذا لم يمكن ؟

— أنا طلقت زوجتى من أجل احتفاظي بحرية العمل التي حاولت تعطيلها .

قالت دليلة في سرها : وصلنا الى بيت القصيد ! كل هذا اللف من أجل ان يقول انه طلق زوجته !

لكن الرجل أضاف :

— وهي رغبت في الطلاق من أجل أن لا اعطل جزءا من حريتها . كلانا أدرك انه يحيا في مغالطة أخذت تسلب منه حريته بلا طائل .

التبس على دليلة أمر الرجل ، ولم تدر ماذا هو؟ ماذا يريد ؟ ماذا يعنى بكلامه ؟ هل هو يلمح الى أشياء سياسية ؟ هل انتقلت اليه عدوى تفكير مستخدمه ؟ أم يتحدث ليتحدث ؟

ورأت ان تجاريه ، اذ ليس هناك ما يترتب عن الاستماع اليه . فقالت :

الطلاق ليس جميلا .

— بالنسبة الي جميل . لأني اكتشفت انه من المغالطات البشرية الكثيرة التي يحاول الانسان تغطية حقيقته بها . الزواج هو بديل زائف للجنة الضائعة ... وللجنة البعيدة كذلك ! .

— لم أفهم ما تقول !

— الامر بسيط . الجنة الضائعة هي اللاوعي الكلي ، والجنة البعيدة هي الوعي الكلي . هذا واضح ؟

قالت دليلة في نفسها : « آخذ يلقي درسه ... » .

— واضح .

— الانسان الآن في منتصف الطريق يحيا بجزئين : جزء يتصرف فيه وعيه ، وجزء يتصرف فيه لا وعيه .

— وماذا يترتب على هذه الحياة النصفية ، أو لست أدري بماذا تسمى ؟

— يترتب عليها أنه يدور في حلقة مفرغة . يحيا بالبدائل المزيفة !

— ماذا يفعل :

— ببساطة عليه ان لا يغالط نفسه ولا يبنى حولها سجنا ضخما بما يخلق من قيود وحدود وانما يفرغ الى العمل الجادّ ليخرج من سيطرة اللاوعى باقل ثمن !

— كل هذا يفوت حدود مداركي .

كانت السيارة وصلت بهما الى المدرسة الادارية . وكانت في كل مرة تعتقد انها توصلت الى فهم مقصود الرجل ، ازدادت تيها . وفكرت أنه اما رجل مريض واما يسعى الى شيْ لم تتوصل الى تصوره . ومهما يكن ، فلم تبق لها معه الا دقائق معدودات وتنزل . واذا بالرجل يتكلم :

— ذات يوم كنت بأحد الشوارع ، وكان أمامي زوجان في مقتبل العمر ، لست ادري ان كانا متزوجين أم لا . كانا يمشيان في انسجام . واذا بالمرأة تنحني وتنزع من رجلها حذاءها وتنزل به على رأس الرجل ! اجتمع الناس حولهما ، البعض للتفرج والبعض لمحاولة التوسط بينهما ... ثم انطلقا سائرين من جديد كما لو لم يحدث بينهما ما يستحق القطيعة ! ... قاطعته دليلة سائلة :

— هنا بالجزائر؟

— هنا بالجزائر . لكن مالفرق ؟ عندما يكون الأمر يتعلق بالمرأة والرجل ، العالم كله يصير بلدا واحدا ...

واستأنف يقول :

— ومن ذلك اليوم أدركت أنه في لا وعي كل رجل امرأة ، وفي لا وعى كل امرأة رجل . القصة واحدة منذ الأزل والى الأبد ، والممثلون يتعاقبون على تأدية الأدوار ! ... لهذا فأقل ثمن ندفعه هو أن نتعلم أن نكون أحرارا دائما . ولهذا قلت لك من قبل : إن الزواج هو البديل المزيف لما في لا وعى كليهما !

— ان ما تقوله يستوجب إنقلابا كليا في الحياة والسلوك والتصور ، يستوجب انفجارا ضخما !

— ولم لا ؟

— لو يتحقق هذا لا نفتحت آفاق أخرى أمام الانسان ، تصير الحياة فعلا مغامرة عظيمة تستحق الحياة ويصير المستقبل ...

— لا داعي للمبالغة ... الآفاق ، المغامرة العظيمة ، المستقبل ... كلمات جعلت لتغطية العجز وعدم تحقيق الرغبات في الحاضر. المغامرة العظيمة بين أيدينا لا تتطلب منا سوى أن نحياها !

وكانت السيارة وصلت أمام مقر الديوان الوطني للصناعة والتجارة السينمائية ، فقال لها :

— أين تريدين النزول ؟

— شكرا ، أنزلني هنا . لست بعيدة .

فقال لها ضاحكا :

— عن سكناك أنت بعيدة !

قالت في نفسها : « لم أسجل معه هدفا ! لكن ، من هو ؟ هل يعرفني ؟ ولماذا كل هذه الأحاديث والتفلسف ؟ » .

فكرت أن تطلب منه عنوانه أو تسأله عن اسمه ولكنها عدلت عن ذلك : لن يقول لي الحقيقة .ما الفائدة؟ الرجل عندما لا يكذب على المرأة يعتبر نفسه أحمق أو غبيا !

أقلعت السيارة وتابعتها دليلة لحظات ، حتى غابت عن عينيها في الطريق المؤدى الى حي الأبيار .

بقيت في مكانها برهة عساها أن ترى بعض زملائها ، ولما لا حظت رجلين في آخر شبابهما يتسكعان حولها بصقت في اتجاههما وانطلقت مع الطريق الى كلية الحقوق .

- 2 -

في الوقت الذي كانت فيه دليلة متوجهة الى الكلية ، تفكر فيما دار بينها وبين الرجل من كلام ، كان أبوها الشيخ علاوة واقفا بساحة الشهداء ينتظر الحافلة ليعود الى بيته .

ان الاجتماع الذي حضره حول مشروع الميثاق الوطني أظلم الدنيا في عينيه ، ودفعه الى مغادرة القاعة قبل نهاية الاجتماع .

انه متضايق من الناس ، متضايق من نفسه ، متضايق من هذا الانتظار الذي لا يكاد ينتهي : « متى تأتي هذه الحافلة اللعينة ؟ » لكن الحافلة لم تأت والحشد البشري المنتظر لها بالمحطة يفوق العد !

كانت الساعة العاشرة ، الطقس حار لكنه جميل . أعطته هذه المدينة الغافية على البحر منتهى ما يحلم به من رواء .

كان الشيخ علاوة ينظر في اتجاه البحر ، ولكن لم يكن يرى عشرات البواخر المنتظرة هي أيضا ولازرقة البحر وصفاءه ... ولو فعل لوجد سلوى في هذا أو ذاك ولأدرك ان الحياة التي يحلم بها خلفها وراءه بعيدا !

قال أمامه أحد المشاركين الشباب في اجتماع الميثاق ، يرد على من زعم ان لا تعارض بين الاسلام ، والاشتراكية . قال : هل نتأخر بالاشتراكية أربعة عشر قرنا الى الوراء . أم نتقدم بالاسلام أربعة عشر قرنا الى الأمام ؟ » .

كاد الشيخ علاوة ينفجر وهو يسمع هذا المنطق الغريب ! كانت هي الكلمة التي أفاضت الكأس فخرج وهو يتمثل في حزن ببيت من الشعر القديم للغزالي :

غـــزلت لهـــــم غزلا رقيـــقـــا فلـــم أجد
لغزلي نساجا فكسرت مغـــزلـــي

ليس من عادته الرجوع في هذا الوقت المبكر للدار ، بالرغم من أن عمله لا يلزمه بالبقاء في الادارة ، ولا يدخل تحت أي حيز من الاوقات المنظمة . فهو مستشار ، محاضر . مدرس : عامل دائما ومتقاعد دائما ، كما يقول هو عن نفسه !

انه يود لو قفز في الهواء فنزل راسا في غرفته ، كما كان يقرأ عن أولئك الاولياء الذين يصلي الواحد منهم الظهر بمكة ! ويطير فيصل الى الجزائر أو الأندلس فيعيد صلاة الظهر التي كان صلاها بمكة ! وقال في نفسه وهو يتذكر ما قرأ ، ويتذكر قرية جزائرية تسمى « أولاد سيدي علي الطيار» كان قضي فيها ليلة أثناء حرب التحرير ، وهو ذاهب في مسيرته الطويلة الى تونس : « من يدري ، لعل جدهم كان حقيقة يطير ! الشرع لا يصدق ذلك ولا يكذبه » .

ان الشيخ علاوة لا يحكم على الاشياء بالعقل ، ولكن بالشرع فالعقل في نظره لا ينتهي بصاحبه الى أي حقيقة : معقول اليوم هو خرافة الغد والأمس معا !

لكن الحافلة لا تصل ، المنتظرون في تذمر . الشيخ علاوة بلغ تذمره حد السخط على هذه الحافلة ، وعلى سائقها المتهاون في عمله وعلى المشرفين على شركة النقل .

« كلهم يعبثون ، لا رقيب ولا حسيب ! »

أبواق السيارات تنطلق محتجة على من عرقل سيرها . الشيخ علاوة يفيق من سخط الى آخر : فتى يمتطي سيارة تمشى الهوينا ، عيناه تتنقلان وراءه بوقاحة وفسق بين الواقفات على الرصيف . لا يأبه بالأبواق الصارخة ، ولا بالاعين الشاتمة الحانقة . يحمل كبته الجنسي بين يديه .

تمتم الشيخ علاوة بينه وبين نفسه : هؤلاء هم أبناء الدهاليز ! لو كنت أنا السائق الذي وراءه لدفعت بسيارتي على سيارته فدهكتها ! قال أحد الواقفين للشيخ علاوة :

— أرأيت يا الشيخ ، أين وصلنا ؟

— أتتعجب من هذا ؟ اننا مقبلون على أكثر وأبشع ...

فقال آخر معلقا :

— لو أقامت الحكومة مكان « الحصان » مشنقة لرجعت الارض الى صورتها الاولى ! .

فرد عليه الشيخ علاوة كاليائس :

— الارض تكورت وانتهى الأمر !

فتساءل الرجل :

— ماالعمل اذن ياحضرة الشيخ ؟ أنتم الذين ترشدون الامة ، من حقكم تنهون عن هذه المناكر ، وتنبهون الحكومة ...

فقال الشيخ علاوة في مرارة وسخرية :

— قالوا لنا ان الاسلام متأخر ، لا يحل مشاكل العصر ! ها هو الميثاق بدل الاسلام ...

— الاسلام ، أو الميثاق أو أي شيء المهم هو وقف هذا الانهيار ... سمعت البارحة رجلا يقول في التليفزيون ، في اجتماع منقول حول الميثاق : الشعب متعود على عصا الاستعمار ، ولا يتعود بسهولة على الطاعة والنظام . وأنا رأيي ليس الشعب هو المسؤول المسؤول هم المسؤولون فأجابه الشيخ علاوة :

— قلنا لهم لا يصلح آخر هذه الامة الا بما صلح به أولها ، قالوا لنا : أنتم فرامل ضد كل تقدم . نحن فرامل ! وصفونا بالمحافظة والرجعية ، وكل الاوصاف الاخرى ...

— من هؤلاء ياحضرة الشيخ ؟

— هم أولئك الذين يسمون أنفسهم « التقدميين » !

خفض الرجل رأسه وأمسك عن الحديث . كما لو خشي أن يتهم أو يجرم . والتفت ينظر الى الحافلة التي أقبلت تجرعربتين مكتضتين بالركاب . فتزاحم من بداخلها على الأبواب للخروج وتدافع من بالخارج نحو الأبواب . وحدثت ضجة عارمة وفوضى مستفظعة : هذا لحاف يمزق، وتلك رجل تداس . وذلك شيخ يكاد يقع على الأرض ... والكل لا يأبه بالكل . صرخت امرأة من بين اللواتي تقدمن للركوب في حوالى الخامسة والاربعين ، حيل بينها وبين ذراعها التي علقت فيها حقيبتها !

التفت رجل نحو المرأة فرأى شابين حاصراها وجعلاها في تلك الوضعية ، فهب لمساعدتها ورأى الشابان النشالان ان حالة الرجل وقوة عضلاته لا ينفع معها الا ترك المرأة ...

لم يستقل الشيخ علاوة هذه الحافلة لأنها لا تتجه الى الناحية التي يسكن فيها ، وكذلك مجموعة كبيرة من الركاب المنتظرين ... فأقلعت ، وعاد الصف الى منظره الاول ، بنفس الكثافة ونفس الكآبة .

كانت أنهج المدينة كالأمعاء المصابة بالحصر . وكانت الحافلة التي يستقلها الشيخ علاوة ومن يتوجه وجهته قد توقفت بأحد الشوارع في وسط الطريق ، وأنزل منها ركابها لخلل طرأ عليها ...

لو وجد الشيخ علاوة سيارة أجرة لا كتراها . ولكن أين هي ؟ عشرات ينتظرون في موقف سيارات الأجرة .

بالقرب من المحطة ، كانت سيارة شرطة تمشي مشيا وئيدا مراقبا للواقفين على الرصيف . وراءها خط متلاصق من السيارات التي تسير بسيرها ، لم يجرؤ أحد على اجتيازها ، بالرغم من اتساع الطريق فلاحظ أحد منتظري الحافلة ذلك وقال :

— مازال شعبنا يعيش بمركب الشرطة منذ الاستعمار !

فأجابه من بجانبه :

— هل منعهم رجال الشرطة من اجتياز سيارتهم ؟ انها بلادة السائق الذي وراءها انتقلت عدواها الى الآخرين . الشرطيون يقومون بأعمالهم لهم الحق أن يمشوا بالسرعة التي يريدون . .

— أين كانوا عندما حصلت المرأة بين النشالين ؟

— كانوا يطاردون نشالين آخرين ، ربما من نوع أخطر من سرقة

الحقائب والمحافظ !

ـــ تدافع عنهم ؟

ـــ لا أدافع عنهم ، ليسوا في حاجة اليّ . لكن أصحح نقدا بدون مقابل ! .

في تلك اللحظة ارتطمت بصدر الشيخ علاوة كرة طائشة من أطفال يلعبون بها في الساحة،قفز الشيخ علاوة من سهوه ولسانه يشتم : « لعنكم الله أيها الشياطين ! » .

وصاح شخص في الأطفال ، وهددهم بتمزيقها ان عادوا الى مثل ذلك . فقال الشيخ علاوة محتدا :

ـــ لوكان « الدوق دوارليان » مازال بحصانه في هذه الساحة لما رأينا هذه الاشياء ! أما الشهداء ماذا يستطيعون أن يعملوا لشباب تائه ؟

فرد عليه شخص يلومه :

ـــ مثلك يقول هذا ؟ تتمنى أن يعود الينا الاستعمار يا الشيخ ؟ لا يليق بك هذا الكلام !

ـــ أنا أتمنى عودة الاستعمار؟ عندما لا تفهم الحديث جيدا لا ينبغي أن تتكلم ! الكلام ليس كرة ترميها حيث شئت ، هو مسؤولية ... نعم مسؤولية .

تدخل الرجل الذي هدد الأطفال بتمزيق الكرة مستعذرا عن الرجل :

ـــ أعذره يا حضرة الشيخ . لم يفهم ما قلت . توهم أنك ...

ـــ كان من حقه أن يسألني ماذا أعني بكلامي ... أنا أقصد أن

شعبنا يخاف الأجنبي ويحترمه ولا يحترم حكومة بلاده . لقد رأيتم منذ الدقائق التي وقفنا فيها هنا كم شاهدنا من مآسي ! وما رأيناه هنا نرى أكثر منه عشرات المرات في أمكنة أخرى ، وكل يوم !

فقال الرجل :

— ليس من المعقول إدانة الشعب في كل شيء . لو وجد الأطفال أين يلعبون لما أتوا إلى هنا . فرد الشيخ علاوة :
— لو وجدنا الاطفال هنا فقط لصدقنا . لكن أذهب الى أي مكان شئت وانظر...
— لأن الملاعب غير متوفرة ، أين يذهب هؤلاء الأطفال ؟
— هل في الماضي كانت الملاعب متوفرة ؟ انه الاهمال ... الناس يلدون والنهج يربي !
— ومن المسؤول عن هذا ؟
فقال الشيخ علاوة بغضب :

— ماذا تريد عندي ياأخي ؟ تريد عقد اجتماع جديد هنا في في المحطة حول ميثاقك أنت أيضا ؟
فرد الرجل بلا مبالاة :
— أنا حرفي التعبير عن رأيي . بأي حق تريد منعي من الكلام ؟
— ألا تعرف من أنا أيها الولد ؟
— لا تمسني ولدا . ثم لا يهمني من أنت . إن لم أكن أعرفك انني الآن عرفتك .... أنت الماضي الذي لانريده ، هذا أنت !

استولى الحنق على الشيخ علاوة ، والتفت يمينا وشمالا كمن يبحث عن شاهد أونصير ، وقال للرجل الشاب :

— ماذا تريد مني الآن ؟ أتريد أن لا أركب في الحافلة ؟

لم يجبه الرجل وابتعد الى الجهة الأخرى من صف المنتظرين يجمجم بكلمات لاتفهم . فأعاد الشيخ علاوة ماقاله الى من بجانبه :

— الآن ، لم يعد لنا الحق حتى في ركوب الحافلة ! إنهم في كل مكان . انتشروا في كل مكان ! هؤلاء هم الذين يسمون انفسهم « التقدميين » ! لا حول ولا قوة الا بالله ! .

قال له صاحبه :

— هون عليك ياحضرة الشيخ . انهم ليسوا وحدهم في هذه البلاد ...

— لحسن الحظ ، لحسن الحظ ، والا لوجب علينا الرحيل !

أقبلت الحافلة فأنست الناس فيما كانوا فيه من حديث ونقاش . وتقدم الشيخ علاوة برزانة وتعاظم للركوب ، وقد أفسح له المجال بعض من في سنه .

* * *

الحافلة تمخض الناس مخضا ، لا تشفق على كبير ولا ترفق بعاجز . الأقدام تدوس الأقدام والأجسام تضغط على الأجسام الركاب يترنحون كالسكارى . الحر أفسح المجال للآباط أن تنفث ماعطن فيها من عرق وأوساخ . الرئات تتنفس البنزين وأدخنة الزيوت المحترقة في مشقة .

لكن الشيخ علاوة كان اختناقه من نوع آخر : إنه يشعر إنه يحيا غريبا في مدينة لا يعرفها !

لقد عرف كثيرا من المدن ، وتجول في كثير من البلدان .سحرته حينا من الزمن القاهرة واستهوته وقتا تونس ، وضمته الى صدرها فترة قسنطينة ، وأعجبته باريس في مقاماته القصيرة بها ...

وأحب ، وتقلب في الحياة تقلب أيامها ، فعرف الخوف ، وذاق الجوع ، وتعرض للحرمان.ولكنه في أعماقه ، في سويداء قلبه ، في أحر متعه وأصفى لذاته ، كان يحس دائما بحنين رقيق رفيق ، مستمسك بنفسه ، الى مدينة الجزائر. المدينة التي صمدت للغزو ، وعاشت مختلف الحضارات والتجارب الانسانية ، فأخذت وأعطت ، وبقيت شامخة عظيمة . المدينة التي جعل منها موقعها الطبيعي قطعة فنية بديعة ، توزعت أضواؤها وظلالها على ربى ووهاد بصورة تحقق للنظر حيثما ولّى أجعل ما يحلم به من مشاهد .

والآن وبعد الذي رأى وسمع ، في الاجتماع وفي غير الاجتماع ، ماذا يفعل بحبه ذاك ؟ وماذا تساوي حياته كلها الضائعة على هذه المدينة ومن أجل هذه المدينة ؟ هل الجزائر هي التي تغيرت ؟ أم الزمان ؟ أم هو؟ كلا . الشيخ علاوة لا يتغير ! كل المتغيرات التي عاشها لم تؤثرعليه . بل لم تصل من نفسه الى مستوى المنبه العابر . ما الذي تغير اذن ؟ المدينة لم تتغير ها هي ذي ، حتى من داخل الحافلة ، تغفو باستمرار على بحر لم يكن بها دائما رحيما . وهاهي سمفونية أضوائها وظلالها متعانقة دائما في هيام وانسجام لتقدم للنظر حيثما ولى ما يذهله من جمال . ان الذي تغير اذن هو الزمان ، كان يجري والشيخ علاوة واقفا ينظر اليه . فوجد نفسه ، لما اجتمع الشمل ، غريبا !

مال الركاب فجأة ميلا عنيفا الى الأمام ثم الى الوراء ، نتيجة الفرملة المباغتة التي اضطر اليها السائق . ولاحظ الشيخ علاوة شابا اغتنم فرصة الاحتكاك الذي أحدثته الفرملة ، فالتصق بظهر فتاة التصاقا ! فأغمض عينيه في سخط العاجز ، وشفتاه تتمتمان : يا إلاهي ، في رابعة النهار ! يا إلاهي ، أين المفر؟ .

وفتح عينيه فوجد الفتى في نفس الموقف ، والفتاة لم تحرك ساكنا ، فغاضه ان لم يستطع تغيير هذا المنكر . فتكلف السعال مرات ، حتى التفت نحوه كثير من الركاب ، ومنهم الفتى ، فحزره بنظرة تتقد سخطا وغضبا ، ليشعره أنه يعنيه بسعالة الغاضب الصارخ . ولكن الفتى لم يأبه له ! وتصور مكان الفتاة ابنته دليلة ، ثم هالة ، ثم ابنة أخيه نعيمة . وكلهن لم يكنّ في مثل قامة الفتاة الواقفة أمام الشاب . وبدا له أن يفعل شيئا ... أشار لشخص قريب من الفتاة أن يلفت نظرها اليه ، فالتفتت ، فأشار لها أن تأتيه .. فأتت وهي متسائلة : ماذا يريد هذا الشيخ مني ؟ فقال لها :

— أجلسي هنا ، الى جانبي .

— ولماذا أجلس الى جانبك ؟ هل أنت أبي أوعمي أوتعرفني ؟

ورجعت الى أين كانت تتمتم : ما أخف عقله !

فقال في نفسه بحزن : الله ، الله ! أذهبي يا بنيتي ، اذهبي ... انه هناك ينتظرك ! سوف تعرفين ...

واذا بامرأة تصرخ :

— ساعتي ! ساعتي ! انتزعها من يدي !

هجم الرجل الذي أنقذ المرأة بالمحطة على الشاب السارق ؛ وصاح في السائق أن يوقف الحافلة ، وأن لايفتح الأبواب . وحدث هرج واضطراب بين الركاب . وتحفز البعض منهم للهجوم على السارق . واذا بشخصين يشهران خنجريهما ، ويأمران السائق بفتح الابواب . ويطعن أحدهما الرجل الذي مسك بالشاب السارق .

ذهل الركاب من شدة المفاجأة لما يشاهدونه يجري بين أيديهم ! أما الشيخ علاوة فقد فقد أعصابه وصرخ بحنق :

— الاشتراكية !

خر الرجل المطعون على أرضية الحافلة ، وأسرع شخصان اليه لاسعافه . أما السراق الثلاثة فقد تمكنوا من مغادرة الحافلة تحت تهديد خناجرهم للركاب وللسائق وصاحبه .

لحظات مرت بين الارتباك والذعر والتأفف كأنها دهر على ركاب الحافلة .

جاءت سيارة الاسعاف والشرطة . أفسح المجال لنقل الجريح الى المستشفى . وكانت حالته على ما ذكره أحد المسعفين لم تكن من الخطورة بالقدر الذي تصوره الركاب .

أراد الشيخ علاوة أن يشارك بما يفرضه عليه الواجب في مساعدة الرجل الشهم الذي عرض حياته للخطر ، فقال لرجلي الاسعاف :

— ابني طبيب بالمستشفى ، اسمه مراد ، هو يتولى معالجة الرجـل .

فقال له أحدهما :

— نحن ننقله الى قسم الاستعجالات ، وهناك يتولون هم أمره . أين يعمل ابنك ؟

— في قسم الجراحة . انه معروف . أسألوا عن مراد بن خليل ...

والتفت الشيخ علاوة حوله ليتفحص أوجه الركاب ويرى مقدار ما أحدثه تصريحه ، لكن الناس كانوا في شغل عنه بما حدث ، يروون للشرطة التي بدأت تستنطقهم تفاصيل القصة .

وبعد أن أتمت هذه جمع المعلومات الأولية وكتبت أسماء الركاب أخطرتهم أنها قد تدعو بعضهم لمواصلة التحقيق ، أو للتعرف على المجرمين ، اذا تم إلقاء القبض عليهم .

الشمس وقفت في كبد السماء ، أو هكذا خيل للشيخ علاوة . أشعتها تصل الى الأرض كالسهام المحرقة . أمواج البشر المنتظرة في المحطة تعرب في عنف على أن اللعنة الديموغرافية أخذت تنزل على الجزائر بشكل فظيع !

الشيخ علاوة لا ينزل من الحافلة في هذه المرة ، ولكن من حلم عاش فيه حوالي خمس وستين سنة ! أما البشر المحدق بالحافلة المتهيىء للركوب ، أو النازل منها فهو من عالم آخر ، لم يعرفه الشيخ علاوة ، أولم يكد يعرفه الا منذ بدء مناقشات مشروع الميثاق .

كان يشق طريقه بين الناس وهو يقول في نفسه : « هؤلاء ليسوا عمالاً ، ليسوا آباء ، ولا أبناء ، ولا حتى بشرا . هم ملاحدة ، اوباش ، نشالون هم اشتراكيون ! يشتركون في كل شيء ، حتى في حلائلهم ! » .

اكتشف الشيخ علاوة فجأة أن الجزائر كلها اشتراكية ! جزائر العمال والكادحين الذين لم يكن يتصور من قبل أنهم شيء آخر سوى مساكين !

سار مع الطريق كمن يسير في ماض مفقود ، أو بلد لا يعرفها ونفسه تغلي بالتساؤلات والأفكار المضطربة : «لماذا كافحنا اذن ؟ لماذا تعذبنا ؟ ألنصير اشتراكيين ؟ الاستعمار على الأقل كان يحترم نفسه ودينه . وهؤلاء ماذا يحترمون ؟ أي شيء هم ؟ من أي جنس ؟ بل من أين خرجوا هكذا فجأة باشتراكيتهم وميثاقهم ؟ ياالاهي ! »

المسافة بين محطة الحافلة والدار ليست بعيدة، ولكن ارتفاع الارض والحر يجعلانها عادة شاقة على الشيخ علاوة . أما اليوم فهو لا يحس بمشقة ولا حر . ولا بارتفاع ولا بانخفاض . يسير في الطريق ولا يراها . لا يسمع ما يملؤها من ضجيج السيارات . ولا ضوضاء المارة . انه يسرع الخطو لكي يصل باقصى ما يستطيع من سرعة الى بيته . ليهرب من هؤلاء البشر . ليخلو الى نفسه والى آلامه الروحية . وكان يقول في نفسه : «اين كنت ؟ لماذا لم اشعر بهذا الانقلاب المريع في حياتنا قبل اليوم ؟ ماذا فتح عيني بهذه الصورة الفجائية ؟ أهم أولئك الشبان الخبثاء الملاحدة في الاجتماع ؟».

قضى المسافة في ربع ساعة من « بروسات » الى أعالي « الواحات » فتح صندوق البريد بصورة آلية فوجد بعض الرسائل فاخذها واتجه الى غرفته بالدور الأول .

اعترضته وهو صاعد كنته :

— على السلامة ياسيدي .

هز لها رأسه يرد التحية دون أن يجيبها . فقالت له :

— ان الغداء جاهز ، أتنزل الى المطعم أم أحمله لك الى الغرفة ؟
وكان من عادته تناول غدائه وعشائه بالمطعم . فقال سائلا :
— والعجوز أين ذهبت ؟
— ذهبت الى الحمام هي وزبيدة ونعيمة .

واصل طريقه الى غرفته دون أن يردّ على سؤالها المتعلق بالأكل .

فتعجبت منى من هذه الحالة الغير العادية ! كان عندما يدخل الدار يدخل مسرورا مرحا ، يسأل عن الكبير وعن الصغير ويسألها بالخصوص عن أولادها . كما يسأل عن نوع الطعام الذي أعد للغداء أو العشاء ، وهل هو لذيذ ... لا شك أنه يشكو من هم بالغ ! ولكن كيف السبيل الى أن تعرف ما به وهو لم يرد عليها حتى التحية ؟

وضع الرسائل على المنضدة الصغيرة ، وعلق برنسه بمعلاق بالحائط ، ثم نزع عمامته وجبته الحريرية وكذلك البدلة العربية المطروزة التي يلبسها ، في المناسبات . انه متى لبسها شعر بالاعتزاز وأحيانا بالغرور. فهي حقا من النوع الممتاز. ثم لبس عباءة منزلية ، وجلس في مقعد وثير منجد ، قبالة خزانة كتبه وراح يستعيد في نفسه ماشاهده وسمعه في صبيحته تلك من وقائع وأحداث . وكانت سحنته تبدو وكأنه تعرض لمحنة كبرى ، أوهم عظيم ! كان مطرقا مصوبا نظره الى المنضدة ولكنه لم يكن يراها . كان يرى بدلها الاجتماع الذي شارك فيه وغادره مغاضبا قبل أن ينتهي . يرى الحشد المنتظر للحافلة في ساحة الشهداء . يرى الحافلة وترنح ركابها، والتصاق الشاب بظهر الفتاة . يرى على الأخص الرجل الذي تعرض للاجرام ...

ولعل ما كان يؤلمه أكثر من كل شيء هو شعوره بعدم التوفيق في الحوار والنقاش ! لقد قال معبرا عن رأيه في الميثاق : الجزائر ليست في حاجة الى ميثاق . الشيخ باديس رحمه الله ترك لنا ميثاقا لا يبلى ...

وكان يعنى القصيدة المشهورة : «شعب الجزائر مسلم . . والى العروبة ينتسب» فرد عليه أحد الشبان بذكاء ومنطق : «لو قلت ياحضرة الشيخ : لسنا في حاجة الى أي ميثاق ، القرآن هو ميثاقنا ، لارتضينا لك ذلك ، ولكنت بذلك عبرت عن موقف يلائم ما تمثله . أما وأنت ترى أن القرآن نفسه لا يشكل ميثاقا بالمعنى الذي نريد ، فكيف تطلب من شعب كامل ينشد التطور والتقدم السريع ، ويريد أن يبني مجتمعا عادلا واعيا لنفسه ولمسؤولياته الانسانية المعاصرة أن يتخذ ميثاقا ، قصيدة من الشعر ؟ انها مهما تكن قيمة فلا ينبغي لنا أن نتجاوز بها مكانها والظروف التي دعت اليها ... » .

حاول بعدئذ الشيخ علاوة أن يتدارك هفوته ويوضح مقصوده ، ولكنه كان يشعر بأن زلته كانت كبيرة ، وأنه لم يكن في المستوى المطلوب لقد اسكته شاب من ذوي الشعور الطويلة ! وتمتم في نفسه : «يا إلاهي شعره كشعر الفتاة وهو يحسن الجدل ! » كما لو أن التفكير الصحيح يقتضي أن يكون الشعر مقصوصا !

في الواقع ، كان الشيخ علاوة يرى أن التفكير المستقيم ينبغي أن تكون لصاحبه بسطة في العمر ، لأن التجربة نصف العلم ... ولم يكن يتصور لحظة أنّ مجرى النقاش ينتهي لغير صالحه . تلك هي الحقيقة التي بقيت لديه بعد كل ما قيل . وذلك هو سبب همه بالرغم من اعتقاده أنه كان على حق وانما لم يوفق في النقاش فقط . ان الشيخ علاوة لم يتعود النقاش بهذه الطريقة التي تعطي لكل واحد ، مهما كان

الحق في التعبير عن رأيه الى النهاية . فهو مع أولاده اذا لم يعجبه رأي صاح في صاحبه : « اسكت علي ! أتريد ان تعلمني ؟ » فيسكت الابن. وهو يعتبر ذلك السكوت انتصارا له ... ومع الناس لم يتعود أن يستمع . تعود بالناس يستمعون اليه وهو يلقي درسه أو يعطى رأي الشرع في قضية مطروحة . ثم إن المنطق الذي كان يناقش به في المناسبات القليلة مع أمثاله يختلف عن المنطق الذي سمعه اليوم . حاول أن يستشهد بالقرآن أثناء النقاش فقال شاب آخر : « دع ذلك للمسجد نحن نتكلم عن الملكية المستغلةوالملكية غير المستغلة . وأنت تتحدث عن الزهد في الدنيا ، الأرض لله يرثها من يشاء من عباده ... هذه الأرض التي نتحدث عنها نحن ، يملكها أشخاص استولوا عليها بأوجه غير مشروعة ، وهم يستغلون الشعب بها ... فهمت ؟».

لم يجد ما يقول . الشاب لا يهمه رأي القرآن ، يهمه رأي الناس في الموضوع ! مع من يتحدث الشيخ علاوة اذن ؟ مادام القرآن والحديث والفقه وكل ما قرأه لا دخل له في النقاش ؟ بماذا يناقش ؟ أسلحته هي القرآن والسنة والعرف ، وهذه كلها قيل له اليوم أنها لا دخل لها في النقاش . انه اذن محكوم عليه بالصمت . والصمت المفروض سلب للحرية !

وجد الشيخ علاوة نفسه فجأة غريبا ، في مدينة لا يعرفها ، وفي مجتمع ينكره . لذلك فهو في محنة . والحقيقة أن محنته كبيرة . لان العصر الفكري الذي يحيا في واقع الأمر ، لم يتعد القرن الثاني عشر الميلادي .

نزع نظارة الرؤيا واستبدلها بنظارة القرءاة ، ورفع الرسائل ، فوجد من بينها رسالة موجهة اليه من الوزارة ، رسالة لابنة أخيه نعيمة ، رسالتين

لابنه الطبيب ، رسالة لابنه الأكبر عمر . وضعها من جديد على المنضدة . وفكر أن يعطيها الى كنته ، أو زوجته عندما تعود من الحمام لتعطيها الى أصحابها .

ثم فتح الرسالة الموجهة اليه . فوجدها تتعلق باجتماع حول الميثاق . فرماها بغضب : لا أشارك في أي اجتماع لتكفير الشعب . كلهم ملاحدة ، حتى موظفو الوزارة ... لو قال لهم الوزير طلقوا نساءكم لفعلوا ! لا أشارك في أي اجتماع . لكم دينكم ولي ديني .

نزع النظارة بمثل الحركة الغاضبة التي رمى بها الرسالة . وقام من مكانه الى السرير فاستلقى على ظهره وشبك يديه على بطنه كالمستسلم للقدر ، ان الحياة تنقلب لمجرد اندفاع جزء ضئيل من مادة كيمياوية في بعض العروق ، جزء أكثر من المقدار الطبيعي ! لو فكر الشيخ علاوة أن كل ما كان فيه ليس سوى تلك المادة الزائدة التي أفرزها جهازه العصبي لحاول من غير شك أن يساعد مزاجه على العودة الى المجرى الطبيعي ...

بقي في تلك الوضعية ما يقرب من دقيقة . ثم قام فاتجه الى النافذة المطلة على النهج فأخرج رأسه ينظر ، واذا بعينيه تلتقيان بفتى في شباك نافذة مقابلة لداره عاريا ما عدا تبانا للسباحة يستر عورته . فأدخل رأسه بسرعة وهو يتعوذ من شر ما رأى . كل ما كان غافلا عنه أو لم يره من قبل ، أخذ يعترض سبيله حيث ماولى ! وظن ان هذا الفتى يقف هناك في تلك الحالة لاول مرة ، أو أنه ليس من السكان كلية : لابد أن أكلم صاحب الدار ، هذا عيب ! ... إن الناس خرجوا من أطوارهم !

عاد الى مقعده فنزع نظارة الرؤيا ولبس الأخرى ، وراح يتأمل في الطوابع البريدية وساوره وسواس : ماذا تنطوي عليه هذه الرسائل ومن أين جاءت . قرأ الختم البريدي على احدى الرسالتين اللتين جاءتا الى مراد الطبيب . فوجدها من فرنسا . ثم أخذ رسالة ثانية كانت موجهة الى عمر ابنه الاكبر . فبمجرد أن رآها عرف انها من البنك ثم أخذ رسالة ثالثة فوجدها موجهة الى الطبيب أيضا مكتوب عليها اسم شركة لصناعة الالآت الطبية الخاصة بالتصوير بالأشعة وأخذ الرسالة الأخيرة الموجهة الى ابنة أخيه نعيمة ، فوجدها من الجزائر. فتعجب : «من يكاتبها من العاصمة ؟ أنا ظننت ان الرسالة جاءتها من أبيها ! » وتأمل الغلاف فرآى في يساره علامة زائد . خط الرسالة جيد ، يدل على يد متدربة في الكتابة . تحول الوسواس الذي ساوره بخصوص محتوى الرسائل الى شعور بالاطلاع على ما فيها . ماذا يترتب عن ذلك ؟ لاشي . يطلع هذه المرة فقط ، ثم لا يعود . لكن لماذا يطلع عليها ولماذا لا يعود ؟ انها ليست موجهة اليه فليس له ان يخرق حرمة أحد . الرسالة أيضا عورة ! لكن الرغبة في الاطلاع أخذت تكبر ، وتخيل أنه كأب عليه أن يعرف أسرار أولاده . من يدرى ... إن الزمان تغير . وما شاهده من مناكر يجعله في حل من أمره . انه يطلع على الرسائل لا لاكتشاف أسرار بنيه ولكن ليحول بينهم وبين ما يمكن أن يقعوا فيه من انحرافات ومهالك.من الاربعة رسائل اثنتان لا خطر فيهما : رسالة البنك الموجهة الى عمر ، ورسالة الشركة التي تصنع الالآت الطبية للتصوير.

قرر أن يقرأ رسالة البنك ليعرف بالضبط كم يتقاضى مدير مؤسسة، لأن عمر مدير . فتح الرسالة فاذاهي عبارة عن كشف لرصيد عمر

بالبنك في نهاية شهر أفريل من تلك السنة . قرأ الرقم ، وأعاد قراءته وهو لا يصدق عينيه (45 ، 233 1500) دينار ! فردد بصوته ما قرأت عيناه : « له بالبنك مليون وخمسمائة ألف دينار ؟ لا ، محال ، انا غالط » . وأعاد القراءة من جديد فوجد المبلغ هو نفسه : « البنك لا يغلط . يملك مليونا وخمسمائة ألف دينار ! الخبيث ! أخفى علي كل شيء عندما كلمته عن بناء الدور الثالث قال إن ما عنده في حسابه بالبنك لا يبلغ حتى ألف دينار . عجائب وغرائب ! مع أنه ولد عاقل ، مصلى ! عمر ، صديق العمر ، يكذب علي ! عجائب وغرائب ! قال لا يستطيع أن يعاون في البناء الا بالأسمنت . طبعا ، الاسمنت لا يكلفه شيئا . وان كلفه شيئا فلن يكون ذا بال . أصدقاؤه يبيعون له الاسمنت بسعر الحكومة : 14 دينارا للقنطار . في عشرين طنا يدفع (2800) دينار . واشترط مع ذلك أن يأخذ الدور الثالث له ولأولاده بعد الانتهاء من البناء ! بينما اخوته ليس للواحد منهم أكثر من غرفة . لا ، لن اقبل له الآن ... يخفي علينا كل هذه الأموال ، ويريد زيادة على ذلك الاستيلاء على ثلث البيت . في الفائت قدمته على الآخرين لأن له أولادا أما الآن وقد عرفت عنه مالم أكن أعرف فلا . لماذا يحتال علي وعلى إخوانه ؟ من أجل من ؟ من أجل مناه ؟ لن ينال الدور الثالث ! ثم خطر للشيخ علاوة خاطر انقبضت له نفسه : « لكن من أين جاءته هذه الأموال ؟ هو كمدير لا يتقاضى أكثر من ثلاثة آلاف دينار للشهر . فلو وفر كل مرتبه منذ الاستقلال الى اليوم لما كان لديه هذا المبلغ !

أخذ قلما وورقة وراح يحسب :

قلنا مرتبه ثلاثة آلاف دينار ، ولنفرض انه يتقاضى هذا المبلغ منذ الاستقلال . في السنة $12 \times 3000 = 36000$ دينار . في 14 سنة يساوي =

14 × 36000 = (504000) . نطرح هذا المبلغ من مليون وخمسمائة ألف دينار يبقى تقريبا مائة مليون فرنك قديم فائضة عن توفير كل مرتبه منذ دخوله الوظيف الى اليوم ! لا . ليست هذه الدراهم من مرتبه . هي من باب آخر . لاشك في ذلك . هذا أمر خطير علينا جميعا ! اللهم ... اللهم الا اذا حصل عليه من بعض الصفقات التي لا يخشى وراءها أية متابعة قضائية ؟ لا شك في ذلك . والا لما وضع دراهمه بالبنك . الله . الله ! عمر . صدق العمر أخفى علي مائة وخمسين مليونا . وقال : لا يملك شيئا ! من أصدق الآن ؟ سميته عمر وهو معاوية !

أعاد كشف الحساب الى الظرف . وأخذ منديلا يجفف عرقه وبقي ينظر في لا شيء . ويفكر في لا شيء ايضا ! هل يفرح . لأن لأحد أولاده هذا المبلغ المالي المعتبر ؟ أم يحزن . لأنه قد يكون حصل عليه من باب غير مشروع ؟ لا هذا لا يحزنه على كل حال . من ذا الذي « لا يتقلب » ؟ المال لا يحزن . لكنه مع ذلك لم يكن مسرورا كل السرور باكتشافه لهذا السر . إن ابنه الاكبر لا يثق فيه .

اخذ الرسالة الثانية فكانت احدى الثنتين الموجهتين الى الطبيب . واخذ يقرأها : « سيدي .

إن شركتنا نجحت أخيرا في تطوير أجهزة التصوير بالأشعة الى درجة لم يسبق لها مثيل في العالم . إننا جمعنا الى الدقة والضبط وآلية الاستعمال . ضآلة الحجم والوزن . وبذلك حققنا لأول مرة معطيات السيبيرنتيك والاليكترونيك .

ويسعدنا ان تكونوا من بين الذين قد يستفيدون مما تقدمه تكنولوجية شركتنا من خدمات .

مع الرسالة صور لبعض الاجهزة المتوفرة لدى الشركة وبيان بالتقنيات الاساسية والاسعار» .

تمتم الشيخ علاوة عندما انتهى من قراءة الرسالة : «هذا هو العلم . لا اشتراكية فيه ولا ثرثرة . والله يبقى دائما هو الله ! لا شك ان هذه الشركة يابانية ... » .

وقرأ اسم الشركة على الظرف فوجدها فعلا يابانية . والرسالة أرسلت من بعض فروعها الاوربية . فقال في نفسه : « لماذا لم يمنع اليابان تمسكهم بتقاليدهم ودينهم من التقدم الحضاري والعلمي والوصول الى ماوصلوا اليه ؟ » .

ثم خطر بباله خاطرا أعاده الى صباه حيث كان تلميذا في المدرسة الفرنسية الابتدائية وكان المعلم الجزائري يقول له ولرفاقه الصغار بالقبائلية : «تعلموا الفرنسية . سيأتي اليوم الذي تحتاجونها فيه ... »
فقال الشيخ علاوة في نفسه :
رحم الله (المعلم) لو لم اتعلمها في صغري لما استطعت ان اطلع على هذه الرسائل . » .

ثم أضاف : « باللغة الفرنسية يمكن للانسان أن يقرأ الكفر والفسوق وكل شيء دون أن يشعر بوخز ضميره ! »

وفكر أن ابنه الطبيب سيسر بهذه الرسالة . ولكنه استدرك بسرعة : «لكن ماذا يهم «الكندي» ان تصغر آلات التصوير أو تكبر ؟ هو جراح ليس طبيبا أو متخصصا في هذا الميدان . هو جراح يعمل « في الطب المجاني » « وعزرائيل واسرافيل ...» الناس يخسرون دماء قلوبهم ليعلموا اولادهم .. ثم بجرة قلم يقال لهم

انتم تخدمون في الطب المجاني ! هذا آخر الزمان ، لا شك في ذلك . لكنهم سوف يرون الى اين ينتهي بهم هذا الطب المجاني .. بعد سنوات تصبح الجزائر كما كانت في القرون الوسطى . تداوي بالحشائش ! الأطباء رئتهم هي حريتهم . فاذا نزعت منهم فارقتهم الحياة . بعد سنوات يموت من يموت . ويغادر البلاد من يغادر ويبقى « الطب المجاني » يداوي نفسه ! »

قال هذه الكلمات بانفعال ووضع الرسالةعلى المنضدة ، وهو يقول : « مسكين الكندي ورفاقه : ادارة جاهلة . شعب مريض ، وطب مجاني ! »

ثم رفع الرسالة الثالثة فكانت أيضا للطبيب :

« عزيزي »،

لماذا لم تجب عن رسالتي الأخيرة ؟ معاذيرك أعرفها ... تتذرع بالعمل دائما . أنا سيئة الحظ معك . لاني أحبك .

مراد لم أعد أستطيع الانتظار . ان شوقي اليك لم يعد حنينا صار ألماَ متواصلا . (يعلق الشيخ علاوة على الجملة) : أرمي بنفسك في نهر « السين » .

« مراد يجب أن نعيش معا ، هنا أو هناك لا يهم . انما من أجل مستقبلك كطبيب أفضل لنا العيش هنا . (نو . مادموازيل ... ولو الطب عندنا مجاني !) أما أهلك فنستطيع أن نزورهم كل سنة أثناء العطلة مثلا . (نو مادموازيل ! الهقار ليس في داري)

مراد قل لي متى تضع حدا لهذا الفراق الذي فوت علينا كثيرا من المسرات والأيام السعيدة » ؟ ..

وقبل أن يتم قراءة الرسالة دق الباب فوضعها على المنضدة وقال :

— ادخلي ، ماذا تريدين ؟

— أنا يا سيدي ، حملت اليك الطعام .

قالت مني ذلك وهي داخلة ، ولاحظت العرق يتصبب من جبينه ، وعلى المنضدة مجموعة من الرسائل ، فسألته :

— مالك ياسيدي ؟ أنك تبدو مرهقا ؟

قبل أن يجيبها انتبه الى الرسائل فجمعها بسرعة ، محاولا أن يوهمها أنها رسائل وأوراق قديمة ، ووضعها في ملف بالخزانة وهو يقول :

— عندي أعمال مستعجلة طلبتها مني الوزارة . كنت بصدد البحث في الملفات والرسائل القديمة لتحضيرها . انحنت مني تضع صحن الطعام على المنضدة أمامه ، وقالت :

— لما لم تنزل الى المطعم فكرت أن أحمل اليك الغذاء الى هنا .

— على أي ساعة قالت لك حماتك تعود من الحمام ؟

— لم تقل . تعود متى انتهت من الاغتسال . الآن كثر الناس ، قلما يمكن الدخول الى الحمام بمجرد الوصول !

— هي لاتذهب الى الحمام يوم الخميس !

— طلبت منها نعيمة مرافقتها . لانها لاتعرف الحمام ، واليوم لا دروس لها .

— نعيمة لا تعرف الحمام ؟

— هكذا قالت !

— في الجامعة ، ولا تعرف الحمام !

— هل في القرية حمام ؟

— في القرية لا ، لانها صغيرة ، لكن ...

— ربما لاتعرف هذا الحمام الذي تذهب اليه عادة خالتي .

— هذا ممكن . أما لاتعرف الحمام كلية فهذا مستبعد .
ودليلة ، ألم تعد ؟
— لم تعد منذ الصباح . لاشك أن لها دروسا ، أو ... أشغالا ...
— دليلة لها أشغال ؟
— ربما في النادي ، أين تتمرن على « الجيدو » !
— ربما . دليلة كالرجال : الشجاعة و ...
— لانها رياضية . كل من يزاول الرياضة يصير يثق بنفسه .
— صحيح ، صحيح . ولكنها أيضا تربت تربية كاملة ! وهالة ؛ أين هي ؟
— هالة من العادة تدخل على الواحدة .
لم يسأل عن أبنائه الذكور ولا عن أبناء ابنه وانما قال سائلا :
— من بالدار غيرك ؟
— أنا ووداد وجمال . سعاد تخرج من المدرسة على الرابعة ؛ وكذلك إبراهيم . لم يتقدم للطعام وبقي ينتظر انصرافها ، فقالت له :
كل يا سيدي ما دام الأكل ساخنا .
— لا آكل ، ارفعي الصحن من أمامي .
— ما لك اليوم يا سيدي ؟ لماذا لا تأكل ؟
— لا أحس بالحاجة الى الطعام .
— ولو ، ينبغي أن تأكل .
— قلت لك لا .
رققت صوتها وقالت بتحنن :
— كل من أجل خاطري .
وقالت في نفسها : « الآن يأكل ! » ولم تتم الجملة حتى تقدم الى الأكل وهو يقول :

— لا بأس، من أجل خاطرك أخذ هذه اللقمة (يتناول ملعقة ثم يتوقف) خذي الآن .

— (يريد أن أؤاكله !) سيدي هذا ما تأكل من أجل خاطري ؟ لا، ينبغي أن تأكل بصورة طبيعية . كعادتك !

لم تعجبه كلمة : «كعادتك» . فقال في نفسه : اللعينة تعرض بي كاني أكلت من دار أبيها !

وصرح لها :

— لا أستطيع ، ليست لي شهية «كعادتي»!

— سيدي ، الشهية تأتي مع الأكل . اذا لم تأكل فأغضب !

(لا أكلت !). قال في نفسه : « هي تود أن تراني ممدودا أمامها ، ميتا ! لتبقى لها الدار وحدها . »

وصرح لها :

— الشهية تأتي مع الراحة ، ومع السرور...

— وأنت مالك يا سيدي ؟

— لا شيء . أنا غير جائع !

— لا ، لا تقل هكذا ... هل أكلت في مكان آخر؟ طبعاً . لا . إذن يجب أن تأكل ، أقسم لك .

— انصرفي . لا أستطيع أن أكل وأنت هنا أمامي !

عدني أنك تأكل حتى الشبع !

— (ما أثقلها !) أعدك .

اتعدت وخرجت على أن تعود اليه بعد حين لأخذ الصحن . أما هو فأخذ يأكل بنهم . كما لو أنه يريد أن يقول لها : زوجك يخفي

الدراهم وأنت تعيرينني بالجشع وكلاكما في داري ! فآكل كما أشاء وموتي ! » .

لم يخسر وقتا طويلا على الأكل . ازدرده بسرعة ونادى على كنته :

— منى ! منى !

سمعت نداءه . فصعدت مسرعة ، ووجدته أكَلَ أكل الشره فقالت :

— أتريد شيئا آخر؟

— لا أريد شيئا .

رفعت الصحن . وقام هو مباشرة الى الملف ، فبحث عن الرسالة التي كان بصدد قراءتها ، فوجدها وأعاد قراءتها من البداية الى أن وصل الى حيث تقول : « ... مساء السبت الماضي التقيت بريموند وأليس وسألاني عنك . أتعرف أنه ولد لهما طفل ؟ لو تراه ما أحلاه !

مراد إن صبري نفد . هيا أسرع يا حبيبي . إنني أنتظرك بكل حواسي واجزاء جسمي المشتهية كل ذرة فيها لعناقك ! (بلع الشيخ علاوة ريقه حياء) .

« أقبلك بحنان وحب . ديدي التي تعبدك . »

فقال الشيخ علاوة بصوت مسموع : « أستغفر الله ، أستغفر الله العظيم ! تعبده الكافرة ! يا الاهي ماذا جنيت ؟ » .

شعر الشيخ علاوة بخيبة أمل . ابنه هو يتزوج بفرنسية ... ماذا يقول الناس عنه ؟ وقال في نفسه : أنا أريد شيئا والأقدار تريد شيئا آخر ! أنا أنوي له بنتا شريفة من علية الناس بينما هو يسير في طريق آخر ! ماذا جنيت يا الاهي ؟ هل الأبوة جناية ؟ أيصدق الاعمى اذن ؟ (يشير الى قول المعري :

« هذا جناه علي أبي وما جنيت على أحد »

ثم قال بصوت مسموع : «ويحه ! ويحه ان تزوج بكافرة ! »

أحس بالحزن يطبق عليه من جميع أقطاره ، حزن مقرون بالضعف . وتصور أن قضية زواج ابنه بالفتاة الفرنسية أمر واقع لا محالة . بالرغم من أن الرسالة لا تشتمل على ذلك . انها لا تعدو أن تكون رغبة عبرت عنها فتاة تحب فتى ! لكن يومه ذاك لم يكن به لطيفا . وهو رجل شديد الحساسية ، يهول ويبالغ ويبني من الحبة قبة كما يقولون !

إن ابنه الطبيب أكثر من سائر أبنائه الآخرين يعتبره مفخرة الأسرة . يذكره في حديثه مع الناس بمناسبة وبدون مناسبة . فليس هناك من له صلة به ولا يعرف أن ابنه درس الطب في فرنسا ، وانه أنفق عليه ما يملك ... وما لا يملك انه يقول عنه دائما : «قوي الارادة مثلي ! الفارق الوحيد بيننا هو أني اعتمدت في دراستي على نفسي وحدها ، فلم يكن أبي قادرا على مساعدتي ، أما هو فاعتمد علي الى حد كبير. لكنه مع ذلك له ارادة جبارة مثلي » !

والآن ، وبعد أن خيل اليه أن ابنه مقبل على الزواج بأجنبية ، كيف يقول للناس ؟ هو الشيخ علاوة رجل العلم والدين يقول لهم : إن ابني الذي طالما حدثتكم عنه باعتزاز وفخر ، يعتزم الزواج من أجنبية غير مسلمة ؟ يعرف أن الاسلام لا يمنع ذلك ولكن مركزه الاجتماعي ... لو كان مثلا في مكان آخر لا يعرفه فيه أحد ، لأذعن ، لكن هنا في بلده ، وفي هذا «المركز» الذي يظن نفسه أنه يشغله ، زواج من هذا القبيل يفسد عليه كل أموره . والأكثر من الزواج هو إمكانية مغادرة ابنه للوطن . إن ذلك يقوض حياته من الأساس .

هو يسعى أن يربط صلاته بكل ما استطاع بمن يسميهم علية القوم ، من أثرياء المدينة . وبرجوازييها ، سواء بالمعاملة أو المصاهرة أو اي نوع من أنواع التحالف . ليمحو الى الابد مركب «رجل القرية» الذي لا نباهة له ولا شان . ان عمر بإخفائه للاايينه يسير على الاقل في الطريق (المستقيم) الذي يصل بصاحبه ، مباشرة الى صف «الرجال» ويبعده عن «الغوغاء» كما فكر الشيخ علاوة ! وقال في نفسه : «لا ، لا أقبل أن يتزوج بفرنسية . أعمل كل ما في وسعي لمنع ذلك ، أنا لست كسائر الناس ، وأبنائي لا ينبغي أن يكونوا كسائر الأبناء . أبوتي ليست سلطة روحية انها سلطة مادية أيضا ... من عصاني أخرجته من بيتي !»».

أخذ الرسالة بغضب . يعتزم تمزيقها ثم عدل عن ذلك .

رفع الرسالة الاخيرة الموجهة الى ابنة أخيه . ولما رآها تذكر ما كانت أثارته في نفسه من تساؤلات : رسالة الى نعيمة من الجزائر ! من يرسل اليها الرسائل ؟ من يكتب هذا الخط الجميل ؟ ولماذا هذه العلامة على الجانب الأيسر ؟ أم هي علامة لا معنى لها ؟ قرأ الختم مرة أخرى ، فكان ختم البريد المركزي بالعاصمة . وقال في نفسه متعجبا : «بين عشية وضحاها أصبح عندها مراسلون ! لابد من قراءة الرسالة . هي أيضا ابنتي . أنا المسؤول عليها ما دامت عندي ومع أولادي . بل هي أحوج للتوجيه والمساعدة من بناتي . لانها لا تعرف أحابيل سكان المدن ولا مداخلهم الملتوية .»

بهذا المنطق أقنع نفسه وفتح الرسالة . ومضى يقرأ لا يصدق عينيه :

« عزيزتي »

فكرت مليا في الموضوع ، والحل الذي انتهيت اليه ، هو أن نرى طبيبا ... فالاجهاض في بداية الحمل سهل كما قيل لي . ولا

اخالك ترين غير هذا . فكلانا في بداية الحياة ، ولا ينبغي أن يغير ما نعد أنفسنا اليه هذا الحادث العارض .

لوكنت عملت برأيي أثناء « لقائنا » لما وقع هذا كله ...على كل ، لا تتحيري كثيرا ، الامر سهل . أرى طبيبا من أصدقائنا يساعدك ثم تقضين اذا لزم الامر بضعة أيام في احدى المصحات وانتهى الامر !
كل المشاكل الاخرى ، مالية وغيرها ، أنا أتولاها .
أقبلك . »

لم يصل الشيخ علاوة الى آخر الرسالة حتى أحس أن أرضية الغرفة رجت من تحته رجا ! حاول أن يقرأ اسم المرسل فلم يجد شيئا . لم تكن الرسالة ممضاة ولا ذكر فيها اسم صاحبها . التفت يمينا وشمالا لا يدري ماذا يفعل . خيل اليه أن كل ما في الغرفة يهتز ! أحس بالغضب يخنقه خنقا أليما . لم يعرف في حياته الطويلة حالة بلغ فيها سخطه الى هذه الدرجة . أين يقع ما شاهده وسمعه ، أو ماقرأه مما في هذه الرسالة ! انها الكارثة الحمراء تنزل من السقف ! «مستحيل ، مستحيل ! نعيمة التي لا تحسن حتى الجلوس الى المائدة ... نعيمة البائسة تنزلق الى هذه الهاوية ! لماذا زهدت في شبابها الى هذا الحد ؟ لماذارمت بنفسها في وحل لن تخرج منه أبدا ؟ أغباؤها هو الذي أغرقها في هذا المنكر ؟ يالله لنا من هذه الكارثة ! يا لله لابيها المسكين ! من حياة الحرب الى حياة السجن... كيف لم تفكر أن أباها يقتلها بالظنة فضلا عن الانغماس في الفحشاء بهذه الصورة البشعة ؟ لاحول ولا قوة الا بالله ! ماذا أفعل ؟ ماذا أقول ؟ لمن أقول ؟ انها حكمت على نفسها بالموت . أبوها لن يسمح لها هذه الزلة . من يقبل أن تعود اليه ابنته بلقيط ؟ لاحول ولا قوة

الا بالله . كأن الذي أنا فيه لا يكفي حتى تنزل علي هذه الصاعقة ! لماذا قبلتها اليوم الاول ؟ أنا الظالم ، أنا الجاني على نفسي وعلى أخي . كان يعتزم ادخالها الى المعهد التكنولوجي للبنات فدبرت عليه ... يالها من ظالمة ! »

كل الكلمات تقصر عن تصوير ما كان يشعر به الشيخ علاوة من مرارة ساخطة وسخط مر . كل معاني الكلمات لايسع حجمها حجم الكارثة التي كان يتصور أنها نزلت عليه وعلى أخيه المجاهد السابق . انها كارثة دكت في لحظة شرفا بناه بكم من تضحية ، وبكم من جرأة طوال سبع سنوات ! جاهد كما لم يجاهد أحد ، وأبلى بلاء الوفي لوطنه ! تحدى الموت في مواطن الموت . ليبني شرفا وليحرر وطنا ... ها هوذا تسخر الاقدار منه فيلد الفضيحة من صلبه !

« تعود اليه بلقيط ! خذ أيها الاب المجاهد هذه اللعنة على على وجهك لانك ولدت بنتا ...

سيقتلها ما في ذلك شك ، وسيقطع كل صلة بي الى الابد ! أخي ، الذي ليس لي في هذه الدنيا سواه ! »

اختلطت الافكار بالمشاعر في رأسه ، ولم يعد يقدر حتى على الغضب ! كان يبكي بلا دموع ...دموعه كانت تسيل في نفسه . ودّ لو يطير الى أرض لا يسمع فيها ببشر . كل السبل بدت له مغلقة . لو ارتكبت أثما ، ولو كان قذرا بهذا الشكل لكن بدون لقيط لارغمت النفس على قبوله مهما كان ممضا ...يفسق الفتيان وتفسق الفتيات ، شيء لا يرتضى ولكنه يقع ... فضيحته لا تتحدى الناس والمجتمع بهذا الشكل الفظيع ! أما فضيحة من هذا النوع فهي لعنة أبدية في شكل انسان ! لعنة لصاحبتها ولاهلها وللمجتمع !

كانت هذه الأفكار تجري في نفسه في شكل خطاب ، يلقيه على الناس . وشعر ببرودة تعلو جسمه حتى أحس بالحاجة الى غلق النافذة والدخول في الفراش .

قال في نفسه وهو يجذب الغطاء عليه : «لا أستطيع أن أفكر ، إن الموضوع أكبر من أفكاري . » .

وكان في حقيقة الامر يفضل عدم البت فيه بسرعة ، والانتظار به وقتا ، لعل أمورا أخرى تحدث فتساعده على ايجاد الحل الملائـم .

ومهما يكن فانه في حالته تلك ، كان عاجزا عن القيام بأي شيء . لا بد اذن أن ينتظر الى المساء ، أو الى الغد . زوجته أيضا لها رأيها في مثل هذا الامر ، ولعلها تدله على حل لم يخطر له على بال .

في تلك اللحظة دقت مني الباب وهي تقول :

— سيدي ، سي عبد الكبير بن عبد الجليل في الخط يريد أن يكلمك .

- قولي له اني مريض . لا ، قولي له اني لست هنا ... لا لا، قولي له ينتظر أني آت .

بن عبد الجليل من أعيان المدينة ومن أثريائها الكبار ، من الطبقة الممتازة كما يرى الشيخ علاوة فلا ينبغي أن يرد . ان مكالمته وحدها تعتبر شرفا .

نزل الشيخ علاوة يتعثر في حزنه ليكلم الرجل الذي يرنو أن يكون من أقرانه أوعلى الاقل من أصفيائه .

أخذ السماعة وتكلم بصوت مرهق :

— آلو ، سي عبد الكبير !

فرد عليه صوت رجل مستبشر ملىء بالحيوية :

— آلو الشيخ ، لابأس ! ان صوتك ضعيف كأنك مريض !

— انني متعب ، وكنت في الفراش .

— لا بأس ؟ زكام أم ماذا ؟

— ارهاق من الاجتماعات ...

— لا بأس ، لا بأس . اسمع ، الشيخ : كلمتك مرتين أو ثلاثا هذا الصباح للوزارة فلم أجدك . وكلمتك منذ حوالي ساعة الى البيت فلم يجب أحد ...

— كنا هنا ، لعل الهاتف ...

— لا يهم ، اسمع الشيخ . اننا ننتظرك غدا بعد صلاة الجمعة . قررنا اقامة أمسية «أندلسية» للاحباب بمناسبة زفاف دنيا ، ابنتي الوسطى ، يوم الاحد . أمسية خاصة للخواص . لابد من حضورك !

— ولكني لا أستطيع . انني أشعر...

— الشيخ ، لاتشعر ولا أقبل أعذارا من أصدقائي . لايمكن أن تكون غائبا في مناسبة عزيزة مثل هذه . أنت ممن نعزهم ، ونتبرك بهم !

— أعزك الله وبارك فيك . انما أنا في حالة ...

— الحالة التي أنت فيها تزول ... المثل يقول : آنس الهم ينساك ! اننا ننتظرك بعد صلاة الظهر .

— اذا قدرت على كل حال ...

— على كل حال تقدر وتحضر بحول الله . الى اللقاء .

وضع السماعة عبد الكبير ، بينما بقي الشيخ علاوة واضعا لها على اذنه يستمع لرنات الانقطاع لا يدري ماذا يفعل ؟ وقال في نفسه : « هو لا يعلم الحالة التي أنا فيها ... أنا في نفسي صرت أمسية ... لكن ماذا أفعل؟ ليس لي أن أرد دعوة رجل مثله . على كل حال ، من الآن الى غد يفعل الله ما يشاء . »

وضع السماعة وبقي في مكانه متأملا في الطريقة التي يعالج بها هذه القضية الخطيرة التي نزلت على رأسه كالصاعقة ، بدون سابق انذار . وانتهى به تفكيره الى أنه مهما كان الحال فان لديه متسعا من الوقت للنظر في الموضوع انما عليه أن يحتفظ بهذا السر احتفاظا كليا حتى يتعين الامر ، وأن لا يغير من سلوكه ولا من حياته حتى لا يثير حوله الشك . فحل مثل هذه المشكلة ليس من الحلول العادية التي ترى وتسمع ، انما يكون في السر والصمت .

وقال في نفسه مفكرا في نعيمة : « عليها أن تتحمل ما اكتسبت. العفو لا يكون عن مثل هذه الامور ! »

وكأن هذه الكلمة التي جاءت على لسانه فتحت أمامه الطريق للحل « المنطقي » والعادل الذي يتصوره . وقام راجعا الى غرفته ليستريح وينظر في الموضوع بعد ذلك نظر المتأني الذي لا يستعجل للناس الخير ولا الشر.

* * *

- 3 -

لم تكن نعيمة تعرف من حمامات العاصمة إلا الواجهة الخارجية المنمقة بالآجر الملون أو الفيسفاء . وكانت تعد نفسها دائما بالذهاب الى الحمام متى سمحت لها الفرصة ، لأن ما سمعته من بنات عمها ومن الطالبات اللائي يدرسن معها من قصص تجري فيه ألهب فضولها للتعرف عليه .

هاهي إذن تذهب اليوم مع زوجة عمها العجوز كلثوم وابنة عمها زبيدة الفتاة العانس .

أعجبت نعيمة بالقاعة الأولى التي هي بمثابة المدخل . كانت حيوطها مزخرفة الى النصف بالفيسفاء الملونة ذات الأشكال الهندسية والزهرية المختلفة ولاحظت أن القاعة ليست في استواء واحد . فهناك البهو الذي تحيط به أقواس على شكل هالة ، أضفت على المكان مسحة من الفن المعماري الأندلسي المكيف بالذوق الجزائري . بينما وراء الأقواس امتدت على كلا الجانبين للممر المؤدي الى القاعة الثانية مصطبتان فسيحتان للاستراحة بعد الخروج من الحمام ولنزع الثياب قبل الدخول اليه .

صاحبة الحمام جالسة وراء مكتب عال على شكل خزانة بالقرب من الباب . ضخامة جسمها جعلت فيه العرض يتساوي مع

الطول ! ولولا احتفاظ وجهها بشكله الطبيعي الى حد ما ، وبتجانس أجزائه ، لكانت تبدو وكأنها فقدت فجأة عمرها ، وخرجت عن مقاييس الزمن الى مقاييس الاحجام !

تقدمت العجوز كلثوم الى صاحبة الحمام التي كانت تعرفها فحيتها ، فردت عليها المرأة ترحب بها وبمن معها في صوت حلو النبرات ، راق نعيمة وخفّف من شعور النفور منها عندما وقع عليها نظرها لأول مرة :

— أهلا بك يا كلثوم . أهلا بزبيدة ، وأهلا بهذه التي لا أعرفها والتي جاءت بوجهها الجميل وجسمها النحيف تتحداني في محلي ! (استنكار مازح) فأجابتها العجوز كلثوم ضاحكة :

— متى نجدك مغتاظة ؟ إنك دائما في مزاحك ومرحك !

— لماذا أغتاظ ؟ من لم تعجبني غطست رأسها في الحوض حتى تعود الى الطريق ! لم تقولي لي من هذه التي جاءت تشتري إحساني ببسماتها ؟

وكانت نعيمة لا تنفك تبتسم ، وابتسامها ذاك أعطى لوجهها سحرا لم يغب عن صاحبة الحمام .

فاجابتها العجوز كلثوم :

— هذه نعيمة ابنة سلفي الذي في البلد (في الريف)

— جاءت ضيفة اذن !

— لا ، تدرس هنا بالجزائر .

— مرحبا بك يا ابنتي . (ضاحكة) من أتى حمام باية مرة لم يغب عنه مرة ! أليس كذلك يا كلثوم ؟

— حق ، حق ، حمام ولا كالحمامات !

— (الى نعيمة) أرأيت الى امرأة عملك ؟ فضلت الحمام على صاحبته ! أتدرين لماذا ؟ لاني ازن ثلاث مرات مثلها . انها تغار ! اسمعي يا بنيتي ، اياك أن تضحكي من ضخامة جسمي لأنك عندئذ تخسرين رقة قلبي . صحيح ما أقوله لك قلبي رقيق رقيق ... سوف تتحققين من قولي ...

خجلت نعيمة ، وظنت أن المرأة تتكلم جادة ، وقالت :

— لا تضحكني ضخامة جسمك ولا نحافته . أنا في مستوى أقل من أن أضحك على الناس !

— لماذا ، لأنك من الريف ؟ لا تفكري هكذا ... لا يستحي من أصله سوى البطيخ !

ضحكت نعيمة بالرغم منها واستفهمت :

— هل البطيخ يستحي من أصله ؟

— وهل تشكين في ذلك ؟ لماذا اذن يضخم ويحمر ويعذب ، لو لم يكن يحاول تغطية أصله ؟ انه خرج من بذرة سوداء مثلي ! لوتعرفين أمي ... سوداء سوداء تلمع بالسواد كالزيتون !

قالت ذلك وغمزت زبيدة وهي تقول لها :

— عما قريب ... سوف ترين ، يأتي لخطبتك رجل أضخم مني !

تدخلت العجوز كلثوم لتغير موضوع الحديث :

— باية ، نود أن نتخذ أماكن بالقرب من مقصورة العرائس . أنت تعرفين أنني أصاب أحيانا بالضيقة من الحمام ...

— للاسف يا كلثوم ، لا أستطيع اليوم ... تلك الجهة كلها محجوزة منذ أسبوع انظري (مشيرة الى الدفتر أمامها) اني أنتظر صواحبتها من لحظة لأخرى .

— من حجزتها ؟

— عائلة بن عبد الجليل ... أرادوا أن يحجزوا الحمام كله هذا اليوم . فامتنعت لأن زبانتي أيضا لهم حقهم في هذا الحمام . ليست الدراهم وحدها هي صاحبة الحق !

— ألم يجدوا أين يحجزون الا هنا ؟ هذا الحمام بعيد عنهم .

— صاحب المال الدنيا كلها قريبة منه ! وحمامي ليس كسائر الحمامات ..

— لا شك أن بنتهم ستزف عما قريب ؟

— يوم الاحد على ما علمت . ألم يستدعوكم ؟

— لا علم لي لحد الآن . ربما دعوا الشيخ ونسي أن يخبرني كعادته .

— الرجال لا ينسون . يتناسون !

— لا ، لا أظن . لاشك أنه نسى . لان سي عبد الكبير صديقه . قولي يا باية ، هل تعرفين أهل الرجل الذي تزوج بها ؟

— تزوجها ابن ذهبية ، امرأة بوبكر القهواجي . أنت لا تعرفينها . يسكنون بالابيار .

— وكيف قبل بن عبد الجليل أن يعطي بنته لابن قهواجي ؟

— بوبكر القهواجي صار أغنى من عبد الجليل ! وابنه حسن ، الذي تزوج بدنيا نائب وكيل الجمهورية ...

— آ ... لهذا قبل !

ثم قالت تثني على الفتاة العروس :

— دنيا فتاة حيية مليحة تستحق كل خير .

— لكن وهيبة أختها الصغرى أجملهن .

— حق ، حق .

وهيبة هي البنت التي يفكر الشيخ علاوة وزوجته العجوز كلثوم خطبتها الى مراد الطبيب . فتاة في منتهى الجمال .

وسألت العجوز كلثوم صاحبة الحمام :

— في أي جهة نتخذ لنا أماكن ؟

— هناك ، بالقرب من النافذة . انه مكان مريح . انتظرن لحظة تعده لكن العاملة . ونادت :

— مريم ! حضري المكان قرب النافذة للسيدة كلثوم ...

واصلت صاحبة الحمام الحديث مع العجوز كلثوم ، ريثما يتم تحضير المكان ، أما نعيمة فكانت تسترق النظر الى المرأة بالرغم منها . فلاحظت أنها تلبس فستانا حريرياً حائل اللون ، أو بالأحرى رأت الجزء الاعلى من الفستان أو ما يشبهه لأن الجزء الاسفل كان يحول بينها وبين رؤيته المكتب - الخزانة .

وتشد نصف رأسها بمنديل حريري أخضر تتخلله خيوط بيضاء على الطريقة الجزائرية القديمة . رقبتها يحليها وشم ضخم من أقصى اليمين الى أقصى اليسار في شكل عقد عريض . وعلى الوشم قلادة ذهبية غليظة ، تتفرع عنها سلاسل صغيرة ، برؤوسها ميداليات من قطع العشرين فرنك النابليونية . تغطي الجزء الاعلى من صدرها العاري . علقت في أذنيها قرطين على شكل هلالين خصيبين . والتبس في نظر نعيمة الوشم بالمصوغات ، لكثرة ماحلت به المرأة نفسها من هذا وتلك ! ورأت على لحيتها في الوسط من الشفة السفلى الى الذقن وشما في شكل صليب مزدوج يتقلص طوله كلما ضحكت المرأة . وكانت تضحك بلا انقطاع . مما جعل الصليب-الوشم ، من جراء الحركة المتواصلة يبدو كأنه يسخر من رأيه ومن صاحبته في نفس الآن !

كما كانت حركة ذراعيها تحدث ضجة من الرنين بلا انقطاع ، لما طوقهما من أساور ذهبية من عضلات الكربعتين الى المعصمين ! عدتها نعيمة فوجدتها سبعة أساور في كل ذراع ، من النوع العريض !

في أصابعها تزاحمت مجموعة من الخواتم التي تدل على قيمة مرتفعة بلا ذوق . قالت نعيمة في نفسها : « انه نوع من الثراء البذيئي الموروث عن عهود الانحطاط ! » وفعلا ، كانت المرأة بمصوغاتها تلك تشكل بطاقة بريدية مثل البطاقات التي كانت تمثل « فاطمة » الاستعماريين في أيام الاحتلال الاولى !

وكانت المرأة وهي تتحدث تلعب بقلم حبة (بي) بين أصابعها وتضع رأسه أحيانا على شفتيها السفلى حتى ازرقّ المكان فشكل تكملة للوشم !

رأت نعيمة وراء المرآة بالحائط مرافع عليها زجاجات صغيرة وحقق وأوعية مختلفة بها المواد التي تستعمل في الحمام عادة من طرف النساء . تحت المرافع نصبت ثلاجة ضخمة للمبردات . الى يسار المرأة مروحة كهربائية تهب بهواء دسم كثفته أبخرة الماء الساخن والتنفس .

انتبهت نعيمة الى ما كانت فيه المرأة من حديث ، نبهها جهر المرأة وضربها بيدها على صدرها :

— قلت لها ، نحن حافظنا على أصلنا وشرفنا والاستعمار بالباب . أما أنت كنت خادمة عندهم . كانوا ينادونك « فاطمة » واسمك خديجة ! واليوم أصبحت تحسبين نفسك وحدك في الدنيا . أنت فقط التي جاهد ابنها والأخريات ولدن الخونة « والمتعاونين » قلت

لها : « أنا لم ألد ، ولست أما لمجاهد . أنا المجاهدة . وضعت قنبلتين بقهوة « الميلك بار » « والكوكاردي » ... هاهي أوراقي . وقلت لها من اليوم لن أقبلك في حمامي . اذهبي حيث شئت فلست في حاجة الى أوساخك . ومن ذلك اليوم لم تضع رجلها ببابي !

فقالت لها العجوزكلثوم :

— لم يهدها الله . الثلب في الناس عيب . الحرب كل الناس عرفوها وتعرضوا لويلاتها .

— بارك الله فيك ! هذا كلام العقال . لكن قولي لها أنت هذا واسمعي ... إنها أفعى بسبعة رؤوس !

أقبلت العاملة تخبرهن بأن المكان جاهز فقالت العجوز كلثوم ناصحة :

— وسعي بالك ، الزمان تغير.

— لاتخافي علي ، الزمان يتغير وأنا أتغير معه . صح حمامكن !.

شكرنها واتجهن الى المكان الذي أعد لهن ، وطفقن ينزعن أثوابهن ، واذا بولولات النساء تنطلق بباب الحمام ، معلنة وصول العروس وذويها . فلاقتهن « باية السمينة » بالترحيب . وكانت تتقدم العروس ومن رافقنها مغنية تقليدية تغني أغنية خاصة بالمنسابة ، مضمونها طمأنينة العروس على الحياة المقبلة عليها ، وذكر خصالها والدعاء بالخير لها والسعادة . بينماكانت صاحبة الحمام تمشي أمامهن ترشدهن الى المكان المخصص لهن وهي كلها ابتسام وترحيب .

وراحت نعيمة وزبيدة تتابعان باهتمام بالغ تقدم العروس في البهو الى أن دخلت مقصورتها وغابت عن أنظارهن . كان ما يدفع نعيمة الى متابعة ما يجري جانب الفضول والاطلاع ، بينما زبيدة كان يدفعها الى ذلك التمني بهذا النمط من الاحتفالات في زفافها هي عندما تتزوج . ولم لا ؟ انها من عائلة محترمة ، امكانياتها تسمح لها بمثل هذه النفقات لكنها مع ذلك كانت تشعر في أعماقها بأن الوقت يكاد يفوتها . فمن الشاب الذي يتقدم الى خطبة عانس تتأهب لاستقبال الاربعين ؟ انها تبلغ بالضبط ثماني وثلاثين سنة ، قضت منها ما يقرب العشرين في انتظار مثل هذا اليوم ، ولم يتقدم اليها من يحظى برضا والدها . ان خطبها مثقف فضل لها الغني ، وان خطبها غني تمنى لها من يجمع العلم والثراء . وان تقدم هذا ودّها من له حسب ونسب ... وبقيت تنظر الرجل الذي يعجب والدها حتى اوصلها الانتظار الى العنوس ! ثم أخذ الزهد في الزواج يتغلب فيها على الامل فيه ، وصارت بمرور الايام تشعر بالحقد على من يتزوج . رجالا ونساء . كان تتبعها للعروس وهي تتجه الى مقصورتها فيه كثير من الحقد ومن التمني معا .

المقصورة طبعا لا تتسع الا لعدد معدود من الاشخاص . ولذلك بقي معظم من رافقن العروس في المصطبة الفسيحة . رأت عمة العروس العجوز كلثوم في الجهة المقابلة فحيتها برأسها ، مشيرة لها أنهما سيتلاقيان في قاعة الاستحمام بعد حين .

أحست العجوز كلثوم بالخجل منذ حيتها المرأة وقالت لزبيدة :

— أخشى أن يكون أبوك نسي أن يخبرنا بأنهم استدعونا لحضور

حفل زفاف ابنتهم ؟

— أنا لا أشك في أنهم استدعونا ، وأبي لن يخبرنا الا في آخر لحظة كعادته ...

أتممن نزع ثيابهن وشددن على أوساطهن بفوطات الحمام ، ودخلن قاعة الاستحمام . كانت هذه القاعة تشتمل على دكة واسعة ، لِدَلْكِ الاجسام ، وحولها مقصورات صغيرة يؤخذ منها الماء لغسل الجسم أو الرأس أو الاستسخان .

لقد أدهش المشهد نعيمة ... كان عبارة عن سوق للعواري من كل سن ، من الثانية عشرة الى السبعين أو أكثر ! وأذهلها بالخصوص ما يلاحظ من فرق مريع بين أجسام تلك النساء العواري حسب أعمارهن . وفكرت أن جسم المرأة اذا تجاوز سنا معينة أصبح مجلبة للضحك المر ! لقد تصورت بعضهن ضفادع ضخمة تلبس جلودا بيضاء ، لاتكاد تتحرك من السمن ! بينما كانت العاملات منهمكات في أعمالهن . هذه تدلك وتلك تساعد في غسل الرأس ، والاخرى تجلب مسحوقا طلب منها أو عجينة لازالة الشعر الخ ...

قالت العجوز كلثوم لزبيدة ونعيمة :

— لنسرع قبل أن تدخل العروس ومن معها فلا نجد مكانا .

وتقدمن نحو حوض على اليمين ، فنادتهن احدى العاملات :

— الاحواض اليمنى محجوزة . اذهبن الى اليسرى .

التففن حول حوض وأخذن يغتسلن ، لكن نعيمة لم تطق حرارة الماء . فقالت لها زبيدة :

— لا تخافي ، ستتعودين بسرعة . خذي الماء بيديك واغسلي ساقيك شيئا فشيئا حتى يسخن كامل جسمك .

— لكنه حار جدا !

الناس يأتون للحمام من أجل الحرارة . ولولا ذلك لاكتفوا بحمامات بيوتهم . سترين . بعد فترة وجيزة تتعودين وتحسين بأن جسمك يأخذ في الارتخاء كأنه يستسلم للحرارة ! ثم تشعرين بلذة الحرارة التي تشملك ... أنا أود لو أبقى يوما كاملا بالحمام !

عملت نعيمة بنصيحة ابنة عمها ، وشعرت بالفعل أن جسمها قادر على تحمل حرارة أكبر !

وكان بأحد الاحواض القريبة منهن امرأتان تغتسلان . وكانت المسنة منهما تدلك الاخرى التي ما يزال نهداها لم يتهدلا ، تدلكها دلكا رفيقا . مما أثار انتباه نعيمة ، وودت لو أنها كانت مكان الفتاة بين أيدي تلك المرأة الحنون . وفكرت أنها تكون أختها الكبرى ، أو قريبة لها تعزها . وكانت الفتاة تبدو مستسلمة للمرأة ، ينثني جسمها بطواعية ، تبعا لحركة الدلك . وكانت المرأة أحيانا تبدو وكأنها نسيت أنها تدلك فتبقى يداها وحدهما تجسان كتفي الفتاة ، وهي تكاد تلتصق بها !

همست زبيدة بالفرنسية لنعيمة لكي لا تفهم أمها :

— انظري ...

فأجاباتها نعيمة :

— رأيتها قبلك . انها في دنيا أخرى ...

— ماذا تريدين أن تقولي ؟

— لم تفهمي ؟

— لم أفهم ماذا ؟

ــ ماذا تعمل المرأة لتلك الفتاة ؟

ــ تدلكها ... ماذا تعمل ؟

ــ ما أغباك ! ألا ترين ؟

ــ ماذا أرى ؟

ــ انظري ، انها نسيت نفسها تماما ... انها ...

ــ ربما أتعبتها الحرارة ؟

ــ الحرارة الداخلية ! ينبغي أن تأتي للحمام مرات عديدة لكي تعرفي ما تفعل بعض النساء ...

ــ ماذا تفعل امرأة لامرأة ؟

ــ أنت لا تفهمين شيئا . دعينا من هذا الحديث ...

ــ هل رأيتهما قبل اليوم ؟

ــ عندما تنتهيان من الحوض وتنتقلان الى الدكة انظري ، هل تدع الطيابة (الدلاكة) تلمس صاحبتها ...

كانت في تلك اللحظة كل من المرأة والفتاة مغمضتي العينين ، مستسلمتين لبعضهما ، في حالة من التواصل الغريب الذي أنساهما كلية في المكان والزمان .

فتعجبت نعيمة ، وقالت بدون أن تفكر

ــ عيناهما مغمضتان !

فردت عليها زبيدة بالفرنسية دائما :

ــ وما حاجتهما لفتح عيونهما اذا كانت القلوب تعرف بعضها !

ــ انك قاسية !

ــ على من ؟ أنت لا تعرفين هذا النوع من النساء .

ــ سمعت وقرأت ، لكن نفسي لا تصدق !

ــ الى الآن ؟

— لست أدري .

فتدخلت العجوز كلثوم وقد أثارها تهامسهما :

— منذ حين وأنتما توسوسان لبعضكما بالفرنسية ... انكما أثرتما فضول من حولكما !

فقالت لها زبيدة :

— هل التهامس عيب ؟

— اذا كان فيه اشارة الى الغير عيب ! .

— لم نشر الى أحد .

— انني أعنيك أنت بالخصوص ، أما نعيمة حاشاها ...

— لن آتي معك مرة أخرى الى الحمام !

— يكفي من الحديث الفارغ . اشتغلي بنفسك ولا يعنيك حال الغير ...

انطلقت ولولة موكب العروس فقطعت توبيخ العجوز كلثوم لابنتها . وبختها بمحضر نعيمة ، نكاية بها وتحذيرا للاخرى التي ربما لا تعرف أن هذا النوع من الاشتغال بالغير ، غالبا ما ينتهي بخصومات لا آخر لها .

دخلت العروس بموكبها وأبهتها تتقدمها المرأة « المقدمة » (المغنية) وفتاتان تحملان شمعتان مشتعلتان ، واتجهن جميعهن الى الاحواض اليمنى . أزاحت العروس عن وركيها الفوطة لتستحم ، ففعلت الاخريات مثلها وأخذن يغتسلن .

لاحظت نعيمة ان وركي العروس أعرض بكثير من صدرها ، كما لو أنها ركبت من جسمين : أعلى نحيف ، وأسفل عريض ! وأفضت الى ابنة عمها بما يدور في نفسها :

— أرأيت جسم العروس ؟

أدركت زبيدة ما تعني ابنةعمها ، وكانت لاحظت ما لاحظته هذه منذ اللحظة الاولى وقالت :

من الجلوس !

— عدم العناية أيضا له فعله .

— اغلب الجزائريات ولا سيما من تربين مثلي ، لا يفارقن البيت ، يعنون غالبا بوجوههن أكثر من كل شيء آخر . ليس مثلكن أنتن الجيل الحالي ...

— مهلا ، مهلا ! الجيل الحالي والجيل الماضي .. هذا كلام لعجوز... انك تخوفينني بهذا التفكير القانط !

— بين عمري وعمرك ثماني عشرسنة !

الاعمار لاتقاس بالسنين ، بل بالطريقة التي يحيا بها الانسان . نحن بالريف مثلا أكثر الفتيات لا يعرفن من الشباب الا حلما عابرا ، تعقبه الامومة أو الشيخوخة المبكرة ... حسنة الحظ من « بيعت » في سن السادسة عشرة ...

— الزواج في السادسة عشرة ولا حياة العنوس الى الاربعين .

— لا تقنطي من الحياة بهذا النوع من التفكير . ان التفكير المستمر في شيء ينتهي بصاحبه اليه ! انك مازلت تحتفظين بكل مقومات الشباب . ثم ان السعادة ليست في الزواج ...

ضحكت زبيدة ضحكا عاليا حتى التفت إليهما من بالحمام ، وأغضبت أمها التي كانت ذهبت الى العروس ومن معها وخاصة العمة التي أشارت لها منذ حين بقاعة الاستراحة أنهما تتلاقيان من بعد ، والتي ما أن دخلت قاعة الاستحمام حتى دعتها من جديد .

هددت العجوز كلثوم ابنتها من بعيد بيدها عن الضحك المسموع فهزت زبيدة كتفيها غير عابثة بالتهديد وأجابت ابنة عمها :

— اذا لم تكن السعادة في الزواج للمرأة الجزائرية ، فأين تكون اذن ؟ انك مازلت غرا ، لاتعرفين ما معنى المرأة عندنا ... انني أحيانا عندما أكون بالبيت وحدي أتمنى لو أكون شحنة كهربائية تضرب كل رجل يمر مع نهجنا !

— لماذا ؟ (بتعجب)

— لأشعره ، بوجودي وبحرماني .

— رسخت في ذهنك هذه الافكار لبقائك الدائم بالبيت . لو خرجت لما كانت أفكارك هكذا ... ان الرجال ليسوا كما تتخيلين . انهم كالكلاب ...

— فيماذا ؟

— اذا طعموا تفرقوا . لا عاطفة لهم .

— من عرفك بالرجال ؟ ان حياة المرأة وحدها لا معنى لها . وحياتها بدار أهلها خادما على نساء الاخوة هي أقسى ما يمكن أن تتعرض اليه من عذاب ! لا ، أنت تتحدثين عن موضوع لا تعرفينه .

— لم أكن أدري أنك ساخطة على الحياة بهذا القدر؟

— لم توات الفرصة لنتحادث ، أنت طالبة وأنا ...

— وأنت ماذا ؟ أنت أيضا قارئة و...

— أقرأ ألف ليلة كل ليلة !

— أود لو كنت في مكانك أحيا بالمدينة ، مع أخوة مثقفين . أنا أحيا مع أب جاهل ، لا ينفك يروي لنا المعارك التي خاضها أثناء حرب التحرير...

— أحيا في المدينة ومع أهل مثقفين ، أنت تتصورين حياة المدينة كحياة أسرة العم بيل (مسلسل تليفزيوني أمريكي للاطفال) انك مخطئة . الحياة في المدينة أوفي الريف ، أوحتى في السماء مع الاهل ، هي دائما شيء واحد !

أنت تتحدثين مع عمي وتردين عليه أحيانا ، أما أنا مع أبي لا حق لي الا في قول « نعم » . قال لي ذات يوم : أكلمك مباشرة لانك يتيمة ، ولوكانت أمك حية لما كلمتك !

— أنت تتصورين أنني أتحدث مع أبي ! عن ماذا نتحدث ؟ أبي لا يتحدث معه أحد ، يتحدث وحده ، أليس هو الشيخ علاوة ؟

— على كل ، هومثقف .

ضحكت زبيدة من قول نعيمة ... وقالت في نفسها : « انها لا تعرف شيئا عن الثقافة وعن الحياة اذا كان ما تقوله هو هواعتقادها ! وقالت بجهر :

— مرات أفضل أن لا أكون مثقفة ، عندما أسمع هذا النوع من التفكير ! تدرسين في الجامعة ولا تعرفين أن أبي غير مثقف! يريد أن يكون مثل ذاك وذاك ، ولا يفكر لحظة واحدة أن يكون هو نفسه ... عندما يذكر امامه ثرى من اثرياء المدينة يقفز مادحا له ولو لم يعرفه ! لماذا لم أتزوج ؟ لانه ينتظر هذا الثرى الذي يتقدم اليه خاطبا ... وهم يضحكون عليه . اننا لو بقينا مائة قرن في الجزائر لا عتبرنا سكانها الاصليون من الفحص (الضواحي) !

— تبالغين . ما الفرق بين سكان المدينة وغيرهم ؟

— سوف تعرفين ما الفرق ...

— دليلة لا تفكر مثلك !

— أنا نموذج وحدي ! سوف ترين ، دليلة ، هالة ، رضا ، مراد ... لكن مراد لا ، قد يقبلون مصاهرته ... أما نحن كلنا لا نعامل الا معاملة الوافدين على المدينة !

— وماذا يؤلمك في هذا ؟

— يؤلمني أن أبي لم يرد أن يعرف طبقته !

— تتحدثين عن الطبقة الآن !

— ولم لا ؟ أنا أعرف موقع قدمي . ولعلني بهذا سيئة الحظ !

— أنت سيئة الحظ اذن بدون شك ! عمي فعلا يحاول أن ينتمي الى طبقة غير طبقته ... يخلط بين تمسكه بالدين وانتمائه سياسيــا !

— لاتخافي ، لا يخلط . هو اقطاعي بفكره ولو لم يكن من الملاك !

— انك تدهشينني بهذا التفكير الجديد ! لا شك أن رضا أعداك ...

— رضا هوأذكانا ... ولعله هوملاذنا في نهاية الأمر ...

— ودليلة ما رأيك فيها ؟

— دليلة ، كما كتب على باب غرفتها رضا : بركان ، ولكنها لا تلتهم نارها غيرها ! أنا لوكنت مثقفة مثلها لا نفجرت على غيري . هي كريمه جدا ، تعطي نفسها لاتأخذ .

— يبدولي أنها في هذه المدة تعيش أزمة ؟

— من يدري ؟ هي لا تسار أحدا . ثم ، لماذا لا ؟ كل شيء في حياتنا أزمة ...

— ألا تريدين أن نخرج ؟ اني لم أعد أقوى على تحمل هذه الحرارة .

— نخرج ونحن لم ندلك ؟ أمشي الى الدكة الحجرية ، أنا أتم غسل شعري وألتحق بك . ونادت زبيدة على عاملة تعرفها ، ورجتها أن تتولى دلك نعيمة . وقالت لنعيمة :

— هي تدلك جيدا ، دعيها تدلكك .

— وأنت ؟

— أنا لا يهمك . لا يلعبن معي ...

ذهبت نعيمة الى الدكة الحجرية ، وأتت اليها المرأة ، وأمرتها أن تنبطح على طولها وتسلم لها جسمها فضحكت نعيمة ، وقالت لها :

— هوأمامك ، افعلي به ما تريدين .

أخذت المرأة تدلكها بكفيه أشعرت نعيمة بلذة وبارتياح . لكنها بعد لحظات أخذت مرة تضغط على كاذتيها ومرة تكبس نهديها ، مما جعل نعيمة تزجرها غاضبة :

— مالك ؟ هل كلكن مريضات في هذا الحمام ؟

— وكيف تريدي أن أدلكك ؟ أعلم بخطوط جسمك ، لكي لا أتجاوز الاماكن التي تريدين دلكها ؟

— ضعي تلك الخطوط في رأسك ، لا على جسدي .

— اذا كنت لا تريدين أن أدلكك أنصرف . ليس لي وقت أضيعه في الحديث !

— أدلكي ما يدلك وكفى .

— كل شيء يدلك ! انظري الى هذه الاوساخ التي أخرجها منك ...

— (تريد اشعاري بالنقص) لولا الوسخ لما جئت الى الحمام .

— لا ، وسخك تجاوز الحد ، كأنك لم تذهبي في حياتك الى الحمام !

— اعملي عملك وكفى .

— اسمعي ، لست خدامة عندك ! عهد « المعلمين » مات ...

قالت ذلك وتوقفت عن الدلك تنتظر رد فعل نعيمة . لكن هذه بعد غضبها الاول شعرت بشيء يشبه التعاطف مع هذه العاملة التي تحتج وتحاول إثبات شخصيتها وكرامتها . فقالت لها بلهجة التصالح :

— لاتخافي ، لست من طبقة « المعلمين » أنا مثلك .

— اذا كنت مثلي دعيني أعمل عملي .

فقالت نعيمة بلهجة مازحة :

— اعملي عملك ودعي ماليس لك !

— ما دمت بين يدي جسمك كله لي ، فهمت أم لا ؟

فكرت العاملة أن هذه الفتاة ليست من المدينة فهي لأول مرة في عملها هذا تزجر بهذا الشكل في الوقت الذي كانت تعتقد أنها بحركاتها تلك الزائدة على الدلك تنال حظوة أكثر لدى نعيمة . وسألتها :

— أنت لست من المدينة ، لا ؟

— لست من المدينة .

— ماذا تعملين هنا ؟

— أدرس .

— زبيدة صديقتك أوقريبتك ؟

— ابنة عمي .

— هي بنت طيبة . لكن ليس لها حظ .

— ولماذا ؟

التي يكون أبوها بورجوازياً في الجزائر لا يمكن أن يكون لها حظ .

— ولماذا ؟

— لانها لاتتزوج . الشعب لا يخطبها ، والبورجوازيون يتزوجون بالاجنبيات !

— أتعتقدين هذا ؟

— ولم لا ؟ هل أكذب ؟

— لم أقل هذا . ولكن البورجوازيين لا يتزوجون بالاجنبيات ، ليس كلهم . هم كغيرهم من الناس .

تعجبت العاملة من تفكير نعيمة ، وقالت لها :

— تفكرين أن البورجوازيين كغيرهم ؟ مع أنك قلت ، تدرسين هنا بالجزائر ! أنا أقول لك : البورجوازيون من جهة والناس من جهة أخرى ! انظري الى اللواتي جئن مع العروس ، لبسن كل مصوغاتهن. يتعالين بها علينا !

— أنت غالطة . لبس المصوغات لا يعني دائما الانتماء الى الطبقة التي تتحدثين عنها . النساء كلهن يلبسن ما يملكن في المناسبات .

— أنت تتكلمين كما في الاجتماعات . نحن الآن في الحمام !

— أي اجتماعات ؟ (متعجبة)

— اجتماعات الميثاق ... هل هناك غيرها .

— أتشاركين فيها ؟

— ولم لا ؟ ألست من أفراد الشعب ؟ هذا المساء أذهب الى اجتماع بحيكم .

- صحيح ؟ أنا أيضا أنوي ذلك .

— نتلاقى هناك اذن ، وسوف ترين ما أفعل !
— طيب ، شكرا الآن يكفي من الدلك ، أحس لحمي طاب !
— لذلك نسمى بالطيابات !

قامت نعيمة لتذهب الى المنضخة ، بينما أقبلت زبيدة لتدلكها نفس العاملة . وكانت العجوز كلثوم حينئذ مع عمة العروس في أحاديث وبرامج مستقبلية منوعة . العمة تود من العجوز كلثوم أن توصي ابنها الطبيب ليرى أحد معارفه الاطباء في أمراض المفاصل ... لأنها تشكو هذا المرض ، ولم تنفع فيها أدوية ولا حمامات . في حين كانت العجوز كلثوم تتنسم الاخبار عن وهيبة ، الاخت الصغرى للعروس ، والتي يتحدث عن جمالها كل من رآها ، كما تبحث عن زوج لزبيدة ، أو لدليلة لانها أيضا في سن الزواج ... وقالت لعمة العروس متحدثة عن وهيبة :

— وهيبة فتاة طيبة . تكلمت ذات يوم أنا والشيخ عليها ...
— لمن ؟
— للطبيب ، لمراد .
— ايه ، رجل وابن رجال ! هل ذكرتم شيئا لابيها ؟
— ما زلنا ، نريد أن نشاور مراداً أولا . هو ليس كالآخرين ، لا نستطيع أن نتصرف فيه كما نحب ...
— صحيح . استشارته لازمة . اذا رغب فيها فلا أظن أخي يرفض طلبه . لكن وهيبة أيضا ليست سهلة . أبوها لا يستطيع تزويجها الا بمن ترضى به هي .
— كم عمرها الآن ؟
— أربعة وعشرون عاما .

— عمر الزواج الحقيقي ...

— وزبيدة ، ألم تتزوج ؟

— لم يحن مكتوبها .

— الزواج لمن في سنها صعب .

— أبوها هو السبب ، في كل مرة يأتي خاطب يرفضه ، حتى فوت عليها الفرص والآن ها هي ذي كما ترين ...

— لو تكلي أمرها لي أزوجها !

— اني وكلتك .

— وأبوها ؟

— أبوها الآن لا يستطيع أن يعارض . من يجد لابنته خاطبا ويرفض ، في سنها ؟ أنا أقول الحق ...

— اذن أؤكد لك ، ستتزوج بالرغم من الرجال . اننا من العاصمة ، نعرف كل مداخلها ومخارجها ... تتزوج في هذا الصيف ، أو في هذه الايام !

— لك منا كل ما تريدين ، اذا حققت لنا هذه الامنية .

— أريد الفي دينار فقط ، ليس لي أنا ، وانما أنفقها في هذا السبيل .

— لك أكثر اذا شئت .

— أنت لا تدفعين شيئا . آخذ الالفي دينار منكم وأنتم خذوها من الزوج . ألا يليق هذا الرأي ؟

— أنا أدفعها من عندي ، اذا لزم الامر .

— لا تدفعين شيئا . دعيني أنا أتصرف .

— تصرفي ، ولك كل عرفاني بالجميل .

— بعد غد تأتين للتصدير ؟ (حفل تلبس فيه العروس جهازها أمام المدعوات)

— ان شاء الله . أما فيما يخص الطبيب فاني أكلم مرادا هذا المساء .

— تعملين جميلا .

— أبقي على خير .

— لماذا لا تبقين معنا حتى نخرج ؟ اننا أتممنا حمامنا نحن أيضا .

— لا ، شكرا . اني على استعجال ، لم أتعود أن أبقى كل هذا الوقت في الحمام .

افترقت المرأتان وقد حققت كلتاهما مصلحة . وكانت العجوز كلثوم قد اغتسلت في الاحواض المخصصة للعروس . وبمجرد أن التحقت بزبيدة ونعيمة أخذت تحثهما على الاسراع ، كأنها تخشى أن تفوت فرصة تزويج زبيدة مرة أخرى ، ان هي بقيت بالحمام دقائق أخرى !

وكانت تنوي اخبار زوجها بالامر ، ليؤمن لها الالفي دينار التي طلبتها المرأة كما كانت تود أن تعرف ما اذا كان بن عبد الجليل دعاهم الى الحفل أم لا . لانها أصبحت ترى ضرورة حضور هذا العرس ، لما فيه من مصلحة ...

أتممن غسلهن وخرجن الى قاعة الاستراحة ، ولم يلبثن لحظات حتى خرجت العروس أيضا من قاعة الاستحمام مع من رافقنها . وقدمت المشروبات لمن كن بالحمام بدون استثناء ، بينما كانت امرأة تحمل في يدها قمقما ترش بما فيه من عطر على النساء وغطت الولولات وصوت المغنية هرج الحمام ، وحركته الدائبة بين خارج وداخل وطالبة لمادة من مواد الاغسال ، أوخدمة ما .

كانت نعيمة تفكرأن الحمام عبارة عن سوق مصغرة من الاسواق القديمة التي قرأت عنها في ألف ليلة وليلة ... ولكنها تزيد عليها بما يجري بين النساء من جهة ، وبأن الحمام لا يقبل الرجال.والنساء في وقت واحد ، اذ للرجال الصباح وللنساء العشية ... ولم تكن تجربتها في هذا الميدان خالية من الفائدة على كل حال ولما نشف العرق عنهن لبسن ثيابهن وخرجن عائدات الى البيت مودعات لعمة العروس ومن معها .

* * *

- 4 -

في الوقت الذي كانت فيه نعيمة وزبيدة تراقبان المرآتين المتناجيتين بالحمام ، كانت دليلة جالسة على كنبة وثيرة بشقة العزوبة التي يملكها كريمو بشارع محمد الخامس . كانت تتأمل في صورة للممثل عمر الشريف في دورشي غيفارة ، معلقة بالحائط المقابل لها .

إن هذه الصورة تثير في نفسها كم من ذكرى ... فأول مرة رأتها فيها كانت جالسة في هذا المكان بالضبط ، وعلى نفس هذه الكنبة . وكان السكر قد بلغ بها مبلغه ، فلم تكن متعودة على الخمر ، فأغراها كريمو بالشرب . بطريقة جد بارعة فشربت .. وكان كريمو يحسن الحديث للعاطفة ، ويتقن فن استثارة الغرائز حتى وجدت نفسها تحن الى استقباله في هذا المكان ، لا في الغرفة المعدة الى ذلك ، والتي عرفتها من بعد ... ورأت وهي في سورة التشنج هذه الصورة !

كانت في نظرها حينئذ جد جميلة ... جمعت بين ممثل بارع وثائر عظيم ! لكنها الآن لاترى هذه الصورة بنفس الشعور ، فقالت في نفسها : زيف ، كل هذا تمثيل وزيف . ثم جرعت مابقى من ويسكي في كأسها جرعة واحدة ، ووضعت الكأس على المنضدة الصغيرة التي أمامها . وجذبت نفسا صغيرا من السيقارة التي بيدها وقالت لكريمو وهي تبدو في حالة انفعال وتوتر شديدين :

— قلت لي انتظرى أسبوعا ، وها هو الأسبوع قد انتهى منذ يومين !
كان كريمو واقفا أمام المشرب ، في يده كأس من الويسكي لم يذقها بعد يفركها بيده ليسكن بذلك أعصابه . ولما تكلمت دليلة وضعها على لوحة المشرب ، ومشى خطوات في القاعة ثم التفت الى دليلة مجيبا في لهجة المؤاخذة والاستنكار معا :
— طلبت أن نتلاقى بسرعة من أجل اسماعى أغنيتك ؟ مع أني أخبرتك في الهاتف بأني لا أستطيع مقابلتك في هذه الأيام...

احمرّ وجه دليلة غضبا وتشكلت على خديها حفرتان من عضها على فكيها ، تحاول بذلك السيطرة على أعصابها ، فازداد وجهها جمالا وجاذبية قلما توجد في حالة الغضب وقالت :

— لم آت لأغنى لك ، جئت لأعرف جوابك .
— أنت تعرفين أن أبي يقيم حفلا غدا بمناسبة زفاف أختي ، وأنا وحدى الذي أعد كل شيء ، فلماذا هذا الاستعجال ؟ لست في المخاض على كل حال . لنا كل الوقت للحديث ، ثم ان جوابي مع ذلك تعرفينه ، قلت لك كل شيء في الرسالة .
— أي رسالة ؟
— الرسالة التي أرسلتها اليك .
— متى ؟
— أمس .
— باسمي أنا ؟
— باسم ابنة عمك ، وضعت العلامة على الغلاف كالعادة .
— ربما ستصل اليوم . لكن لماذا كتبت الي رسالة في موضوع يقتضي المشافهة وتبادل الرأي ؟

— القضية لا تحتاج الى تبادل رأي ، كتبت اليك ، لأني ظننت أن لا نتلاقى بسرعة .

— ظننت ان لا نتلاقى ! الآن صرت تفكر في أن لا نتلاقى ...

اقترب منها وأخذ يدها فجذبتها منه ، فقام ومشى خطوات في القاعة ثم أشعل سيقارة وقال لها بدون أن ينظر الى جهتها :

— لم يعد يجدى الكلام معك . أنت لا تثقين بي ولا بحبي لك .

فسألت بابتسامة ساخرة :

— تحبني مثل من : سليمة ؟ أو هدي القسنطينية ؟ أو نصيرة — صوناكوم ؟ .

— حتى نصيرة — صوناكوم أيضا كنت خليلا لها ! أنت كل الطالبات اللائي تحدثت معهن ولو مرة كن أوهن صديقاتي ! هذا كثير. ينبغي أن تعيشي في عصرك لا بغيرة القرون الوسطى !

— أعيش في عصرى ... (بحدة) لست أنا فقط التى أعيش في عصرى بل حتى هذا الذي وضعته هنا (تشير الى بطنها) يعيش في عصره ، ويود أن يعرف مصيره !

— أنت عصبية وكل حديث معك لا ينتهى الى نتيجة .

— الآن صرت عصبية ، أليس كذلك ؟ أما من قبل كنت فتاة حيية عاقلة ...

التفت اليها مستعملا طريقة الهجوم :

— أنت تحاسبيننى على فعل ما رسناه معا ؟ لم أرغمك على شيء لم ترغبى فيه . تحملى مسؤولية رغباتك .

قامت مغضبة ورمت السيقارة على الأرض وسحقتها بقدمها وهي تقول :

— لا أريد منك دروسا ! قل لي ماذا تنوي أن تفعل ؟

— قلت لك كل شيء في الرسالة . لا داعي للانفعال ولا لاستعمال لهجة التهديد . لست أول فتاة تحبل ... إن أكثر من عشرة الآف فتاة يجهضن سنويا في العاصمة وحدها !

— آ ... تريد هذا ! تريد أن أجهض . بالنسبة اليك كل شي سهل

— ولم لا ؟

— أتظن الحياة تجري كما تحب أنت ؟

— قلت لك منذ لحظات لا داعي للتهديد . اذا أردت أن نبقى دقائق أخرى معا غيري لهجتك .

ضحكت بسخرية وانفعال . وطفقت ترقص في القاعة . وقالت :

— هكذا يعجبك ؟ تريد أن أرقص لك هنا . أو آتى لأرقص في زفاف أختك ؟ هي ابنة عبد الجليل . وأخت كريمو لا تضع في بطنها الا مني زوجها . ليست مثلي !

— يكفي من هذا اللغو !

— أتريد أن نجامع واقفين لتغيير الموضوع ؟

رفعت فستانها الى صدرها في موجة من الانفعال وهي تقول :

— انظر . بدون سروال ! عندما تفقد المرأة عذريتها مع جبان لماذا تتسرول ! .

هيا اقترب ! لكن لا تستطيع . أنت أعجز من أن تجامع فتاة واقفة ، أنت تجامع النائمات !

— ان الويسكي أفقدك عقلك . لو كنت مكانك لا سترحت .

— كيف ؟ مستلقية ، أم منبطحة ؟ أرأيت ، إن رجليك لم تعد تقوى على حملك واقفا . لأنك جبان !

— لو لم أكن جبانا لما تركتك هكذا ... لكنت دفعتك الى هاوية لا تخرجين منها ابدا !

— أي هاوية ؟ ترسلني الى فرنسا كما أرسلت غبيات قبلي ؟

— انك تهذين .

يصب لها كأساً من الوسكي ويتقدم اليها كالمصالح ، داعيا لها للجلوس .

— لا ، لن أجلس . قل لي كلمتك النهائية . لأرى كيف أتصرف.

— (يفتعل الغضب) تصرفي ، اعملي ماشئت ... شدي السماء من تلابيبها زلزلي الارض !

يشرب كأسه في جرعة واحدة . ثم يضيف :

— أنسيت أنك في الثانية والعشرين ؟ يبدو أن أساتذتك في الحقوق لم يفهموك معنى الرشد القانوني ؟ أفعلي ماشئت . اذهبي الى مركز الشرطة ، أو اتصلي بمحامي أليس في أساتذتك من يمتهن المحاماة ؟ إطرحي عليه قضيتك ... قولي له أني حبلت من رجل ، ذهبت الى داره فأرغمني ... أو قولي له ، أنا سائرة في نهج فهجم علي وأخذني الى داره ..

أخذت بدورها زجاجة الويسكي فصبت كأسا وجلست . وقد عاد اليها بعض الهدوء كما لو أن انفعال كريمو أزال عنها انفعالها . أو أن ما قاله لا يخلو من حجة ومنطق في غير صالحها ! وراحت تنظر الى شي غيفارة الممسوخ ... وتتساءل في نفسها : متى جاء شي غيفارة الى الجزائر؟ ثم تسأل بجهر :

— هل ترك أولادا ؟

ينظر كريمو اليها مستغربا سؤالها . ولكن لا يجيب . فتضيف في أسى :

— الثائر لا يلد !

— من هذا الذي تتحدثين عنه ؟

— لو ولد لولد ثورات ... وهذا يستحيل . لأن الحياة من أصل بورجوازي ! .

— ماذا تقولين ؟ أ أنت مريضة ؟

ورآها تتأمل في الصورة بالحائط فقال :

— ترك أولادا مع فاتن حمامة على ما أظن .

— واذا لم يترك العمر — الشريفون أولادا فمن يترك اذن ؟

قامت والكأس في يدها واتجهت الى النافذة فلم تقدم لها الانهجا مكتضا بالسيارات وقالت في نفسها : الجزائر حبلى بالسيارات ! ثم التفتت اليه تسأله . :

— ماذا تقول ، لو ألد لك سيارة ... ميرسديس أو604 أو سيارة أخرى ضخمة ، تناسب مقام العائلة ؟ عندئذ ترتاح ويرتاح أبوك من شراء الفرنك الفرنسي بدينارين ! في كل تسعة أشهر ألد لك سيارة ... طبعا تقودني حالا الى دار القاضي حينئذ لنتعاقد . لأن الاجهاض يلد سيارة غير كاملة التكوين !

— ان الويسكي لعب برأسك !

— لوكان الويسكي لعب بعقلي لهان الأمر.

أقبلت نحوه وهي تبتسم في مرارة :

— أتدري ماذا قال لي الطبيب عندما قلت له لا يمكن أن أكون

حبلى ، لأني لست متزوجة ؟ قال :

أنت مريم !

— من هو الطبيب الذي فحصك ؟

— رجل من الرجال ! أتدري فيماذا أفكر ؟ ولم أنا في هذه المرارة ؟ لأني امرأة . وضعي كامرأة في مجتمع رجال هو الذي يحزنني . أنت لست في نهاية الأمر سوى واحد من الرجال . مأساتي أنني أحيا في مجتمع الرجال ! الصديق رجل ، الأب رجل ، الأخ رجل ، الزوج ، حتى بائع الخبز رجل ! ليس سوى الرجال ...

— أنت التي كنت متهورة ... ألححت علي لأنزع الواقي ...

فطأطأت رأسها تتذكر الواقعة التي أشار اليها ، والحزن يملأ نفسها . وقالت بصوت هادىء :

— أتدري لماذا ألححت عليك ؟ لم أكن متهورة ، انما أحببت أن أنال منك مالم تنله غيرى ... لم أرد أن تكون تجربتي كامرأة تشبه الفحص الطبي !

اقترب منها ليقبلها ويهون عليها الأمر :

— ان حالتك لا تستحق كل هذا التهويل ، فليس أسهل من الاجهاض ...

دفعته عنها وقالت :

— طبعا ، ليس هناك أسهل من الاجهاض !
— أنا أقصد ...
— أنت لا تقصد شيئا . أنت رجل ...

— عدنا من جديد الى ما كنا فيه . أذهب الى الغرفة المجاورة ، ولما ينتهي غضبك أعود .

وانصرف الى غرفة النوم . فقالت في نفسها : « اذهب الى الشيطان لم أعد « بسيشي » الساذجة ! ورفعت كأس الويسكي الى شفتيها واذا واذا بها ترى ذبابة سقطت فيها فخاطبتها متهكمة : هل الويسكي هو الذي أغراك فأغرقك ، ام أنت التي أحببت الانغماس ؟ وتراءت لها الذبابة من وراء الزجاج الداكن فاقدة للحركة . ثم ارتسم على زجاج الكأس أمامها أحد مدرجات نفق الجامعة قبل أن تنقل كلية الحقوق الى ابن عكنون ، كانت حينئذ في سنتها الأولى في الحقوق . وفي الثامنة عشرة من العمر ... رأت شابا طويلا نحيفا شعره يشع ذهبا ، وعيناه تحاكيان زرقة السماء ، واقفا مع مجموعة من الشبان وفتاة ، تكاد تمتصه بنظراتها المتصقة به . كان ينظر اليها الفينة بعد الأخرى ، ولكن بلا مبالاة ثم بعد برهة وجيزة أقبل نحوها كما لو كان يعرفها . وسألها بدون مقدمات وهو يمد يده :

— سيقارة من فضلك .

تعجبت من أسلوب الشاب في «عدوانه» هذا الغريب والجميل معا ! وأجابت سائلة بدورها :

— ومن قال لك بأني أدخن ؟

— ألست طالبة ؟

— واذا كنت طالبة ؟

— هل تأذيت من طريقتي هذه المباشرة ؟ أنا ظننت أنك مثلنا جميعا ...

— فيماذا ؟

— لست أدري ... من أجل سيقارة كل هذه التعاليق ! لو أنت طلبت مني سيقارة لما ...

— ولكنى لم أطلب منك شيئا !

أرادت أن تحرجه الى أقصى حد . وظنته كالمراهقين الذين كانوا معها بالثانوية . فأجابها وهو ينحني عليها ليقبلها :

— طيب ، تجاوزت معك الحد ؟ ها أنذا أقبلك مستعذرا ...

وقبلها ! فقامت بدون أن تشعر من شدة المفاجأة ولاحظت من بعيد الشبان الذين كان معهم يضحكون عليها . وقالت له بغضب تحذره

— لاتعد لمثل هذا أبدا ! ماذا تظنني ؟

أظنك طالبة . سنة أولى حقوق أليس كذلك ؟

وانفجر ضاحكا ، ومد يده لها مصافحا ومعرفا نفسه اليها في خطبة طويلة فلم تستطع وضع كلمة معه خلال ذلك :

— اسمي الكريم : كريمو . اللقب العظيم : بن عبد الجليل ، القامة 77،1 الوزن 70 كلغ . أحسن من اللغات : العربية ، طبعا الفرنسية ، طبعا الأنقليزية بلا طبعا ! الدرجة العلمية : ليسانس في العلوم السياسية بعد النجاح . الوظيفة المقبلة : سفير بجزرهاواي . حاجتي المقبلة الى الموظفين متخرجة في الحقوق قبل الدراسة ...

— انفجرت ضاحكة وهي تقول :

— يكفي ، يكفي ، أرجوك !

كانت تظن أنه لن يغادرها وسيواصل الحديث معها الى مالانهاية. واذا به يقفل راجعا ، كأنه لم يكن يتحدث معها بالمرة !

وفي رجوعه الى رفاقه ظهرت الذبابة من جديد في الكأس ! وضعتها على المنضدة ، وأخذت حقيبتها اليدوية وقامت تعتزم الانصراف فرآها كريمو تتأهب للخروج فأسرع يعترض سبيلها فدفعته عنها :

— لا تحاول الاتصال بي مرة أخرى أبدا .

قالت ذلك وجذبت الباب اليها ، فاعترضها مرة أخرى :

— لا ، لاتذهبي هكذا . ينبغي أن تفهمي ... نستطيع أن نبقى أصدقاء .

— ما بيننا صار ماضيا منذ الآن !

— لا ينبغي أن نغير مانعد أنفسنا اليه من أجل هذا الحادث العارض

... زحزحته عن طريقها وخرجت في تصميم وعزم تفكر في مستقبل جديد لا يعرفه ماضيها ولا ما أعدها أهلها اليه !

* * *

- 5 -

خرجت دليلة من شقة كريمو وهي لا تدري أين تذهب . وهبطت مع شارع محمد الخامس في اتجاه شارع ديدوش مراد . وأمام أحد المسارب التحت — أرضية ، في زاوية التقاء الشارعين ، قبالة مكاتب الخطوط الجوية الجزائرية كانت نصيرة — صوناكوم واقفة ، كأنها تنتظر أحدا . لم تكن علائق دليلة بها وثيقة . لكن ماسمعته من اشاعات حول علاقتها مع كريمو في وقت من الأوقات جعلها تجد في هذا اللقاء شيئا من المسرة .

— ماذا تعملين هنا ؟ هل أنت مسافرة أم تتمنين السفر؟

— لو كنت مسافرة لما وقفت هكذا أنظر الى مقر الخطوط الجوية الجزائرية ! .

صافحتها دليلة بشيء من الحرارة وسألتها :

— أتنتظرين في أحد؟

— لا أنتظر أحدا ، حرة كالريح .

هل الريح حرة ؟

— هل هناك أكثر حرية منها ؟

— ريح الشمال أم ريح الجنوب ؟

— هل الحرية تختلف؟

— الرياح هي التي تختلف ... أنمشي قليلا ؟
— ولم لا ؟

لاحظت نصيرة أن دليلة ليست في حالة طبيعية مائة بالمائة ، ولم تعرف السبب الا من بعد . وقالت في نفسها : ان سرورها هذا المفتعل اما بقية انفعال ، أو...

ولم تكن تعرف أن دليلة تشرب الخمر . واذا بهذه تلفت انتباهها الى فتى مسند ظهره إلى حاجز الرصيف الحديدي :
— انظري كيف أخذ يستعد لا عتراضنا ...

فتح الفتى قميصه الى سرته ، وراح يمسح بيده على صدره ، في حركات تعبيرية ، محاولا ابداء رجولته ورغبته الجنسية في نفس الوقت . فقالت دليلة :

— انه يعتقد أنه الوحيد الذي له صدر !

فأجابتها نصيرة :

— فتح القميص صار موضة لدى الشباب .
— على كل حال صدر هذا لا يرغب في صاحبه أي امرأة !

تعجبت نصيرة من كلام دليلة ، الذي لا يناسب على كل حال الشارع . والتفتت اليها تستشف من ملامحها ما يدلها على حال الفتاة . لكن دليلة لم ترد أن تكون الصورة التي تأخذها من وجهها نصيرة عن طريق الحدس ، بل تتركب من الكلمات . فقالت :

— سوف ترين عندما نصل اليه كيف يتقلص ويدخل رأسه في صدره كالسلحفاة . .

وفعلا ، عندما وصلتا اليه ضاعف من حركاته لابداء ملامح الرجولة في جسمه لكن دليلة فاجأته تقول :

لوكنت مكانك لأخفيت صدري ، انه يشبه صدور الفتيات !

لم يدر الفتى بما ابتلي ، فأدخل صدره بصفة لا شعورية وانكمش مشدوها ! بحث عن كلمة يرد بها ، لكن الكلمات أبعدتها المفاجأة ، بحيث لم يتمكن من تركيب جملة ، حتى كانت الفتاتان بمنأي عن ما يمكن أن تتضمن من اقذاع يعنيهما . وقال من بعيد بصوت غطته ضوضاء الشارع :

— تعالي لأريك ...

لكن نصيرة تأذت وتضايقت مضايقة كبيرة من سلوك رفيقتها ، وندمت على مماشاتها وراحت تحاول اسكات دليلة التي انفجرت ضاحكة ضحكا عاليا نبه المارة اليهما ! ولشد ما كانت دهشتها عندما أدركت أن دليلة في حالة سكر ، أوتوشك ...

لكن دليلة كانت شديدة الانتباه والحساسية بالرغم مما كانت فيه ففهمت أن نصيرة تضايقت منها اذ رأتها تسرع الخطو كالهاربة . كفت عن الضحك ، وقالت بأسى وهي تشد كتف نصيرة :

— لا تخافي ، لست بالقدر الذي تتصورين ... نسيت فقط أنني في مجتمع الرجال !

— ماذا تقولين ؟ هل تعتقدين أن حالتك الاستثنائية تخول لك كل حق ؟ اننا في الشارع !

— أعرف ، أعرف . لا حالتى الاستثنائية ولا العادية تخول لي

الحق ... هوني عليك . نسيت أنني امرأة ! هل عيب أيضا أن أنسى لحظة أني امرأة ؟

— طبعا عيب ! امرأة ، وفي مجتمع الرجال كما قلت ... انظري كم عدد النساء بالشارع وكم عدد الرجال !

— طيب ، مرة أخرى لن أنسى لحظة أني امرأة أيرضيك هذا ؟

وتساءلت في نفسها نصيرة عن ما جرى لدليلة ولكنها لم تجد جوابا مقنعا فسألتها :

— لكن مالك ؟ ان حالتك تبدو غريبة !

— حالتي ، تسألين عن حالتي ؟

— ماذا بك ؟ ماذا جرى ؟

— لم يجر شيء يستحق الاهتمام ، أفقت فقط من حلم بغتة فلم أستعد وعيي بالواقع تمام الاستعادة !

كانت تتكلم جهرا أكثر مما يقتضيه الحديث بين امرأتين . وبالرغم من الضجيج المرتفع في الشارع فان صوتها كان يصل مسموعا الى من يليهما من المارة مما أضجر نصيرة وجعلها تفكر في مفارقتها وقالت لها محذرة :

— خفضي صوتك لست صماء !

— أزعجتك الى هذا الحد ؟

— ان تماديت في الحديث على هذا النسق افترقنا !

— بهذه السرعة ! (ثم بخيبة) ان شئت أن نفترق افترقنا !

— ان سلوكك لا يتلاءم مع المكان الذي نحن فيه . ألا ترين الأعين كيف تخزرنا ؟

— أعين الرجال !

— خفضي صوتك ، إن الناس ينظرون الينا

— الى متى نخشى الناس ؟ لك أن تذهبي وتتركيني اذا شئت لن أخشى أحدا .

كانت دليلة لا تكاد تتكلم جملتين أوثلاثا حتى يعاودها الانفعال مما جعل نصيرة تزداد حرجا على حرج . فلم تجرؤعلى مفارقتها ، ولم تستسغ سلوكها . وكانت تحس أن شيئا ما ، يقض نفس دليلة ، ومفارقتها في تلك الحالة ليس من اللائق . وجرتها من يدها الى نهج « شاراس » الذي كانتا وصلتا الى زاويته التي تلتقي بشارع عبد الكريم الخطابي . فأذعنت دليلة ، وابتعدتا بذلك نسبيا عن الأعين . لأن النهج تقل فيه المارة . وقررت نصيرة أن تسألها في صميم الموضوع الذي أحست أنها تتألم منه :

— هل تخاصمت مع كريمو؟

نظرت اليها دليلة لحظات بابتسام نظرات لا تخلو من حنان وهما تمشيان الهوينا وقالت :

— لم نتخاصم .

وحاولت أن تقرأ على نصف وجه نصيرة الموالي اليها ما تحدثه كلماتها ، فلم ترشيئا يرتسم عليه أصلا . وأضافت :

— ولكننا افترقنا ... افترقنا الى الأبد !

فبدا الانطلاق على محيا نصيرة . وقالت في نفسها دليلة تخاطب رفيقتها :

« عرفت أن هذه الكلمة تريحك ! ثم صرحت :

— أرأيت ؟ اننا سواء ... ما أراحني أراحك . وهذا هوالمهم . القاسم

المشترك بيننا نحن النساء أننا عندما نتخلص من الرجال نشعر بالتوادد والارتياح ! أليس كذلك ؟

طأطأت رأسها نصيرة ولم تجب بكلمة . وسارتا في صمت جزءا من النهج الذي كاد يعود بهما الى الوراء ثم سألت نصيرة دليلة :

— الى أين نذهب ؟
— لست أدري .
— أليس لك درس هذه العشية ؟
— لي درس على الرابعة ولكن لا أذهب اليه .
— وأين تريدين أن نذهب ؟
— أنت اليوم بدون سيارة ؟
— سيارتي بموقف التافورة .
— اذن نذهب الى السيارة ، وهناك نرى ماذا نفعل !
— كما تشائين .

عادتا الى الصمت من جديد ، وكانتا قد وصلتا الى نهاية نهج شاراس المتصل في أسفله بشارع العقيد عميروش . فرجعتا معه في اتجاه موقف التافورة الذي يقع في أسفل البريد المركزي ، الى جانب حديقة صوفيا .

ثم خطر لدليلة أن تسأل زميلتها :

— ومن قال لك أني كنت مع كريمو؟
— قال لي محمد الخامس ! (الشارع)
— هل محمد الخامس يتكلم ؟
— محمد الخامس لا يؤدي الا اليه !
— شارع كامل لا يؤدي الا اليه ؟ وأنت ، ماذا كنت تفعلين في

أسفل الشارع ؟ بصدد التفكير في الذهاب اليه ؟

— أنا أفكر في الذهاب اليه ؟ اذن أنت ...

— ماذا أنا ؟

— اذن أنت تتصورين أن علاقتي به وصلت الى ما بعد الجلوس ؟

أضحك التعبير دليلة ، وارتسمت أمامها على بلاط الرصيف صورة عمر الشريف في دور شي غيفارة ... وتعجبت من ورود الصورة على ذهنها وهي لا تفكر فيها ! وراحت تبحث عن العلاقة التي أدت الى بروز الصورة . وانتهت بمعرفتها : « كلمة ما بعد الجلوس » التي تلفظت بها نصيرة . لقد رأت هذه الصورة لأول مرة في حالة ما بعد الجلوس ...

وقالت مازحة :

— اذن لم تعرفي عمر الشريف ؟

— الممثل المصري ؟

— نعم .

— لم أفهم ما تعنين ؟

— ألم تري عمر الشريف لدى كيريمو؟

— هل جاء الى هناك ؟

— هو صديقه !

— لا علم لي بهذا !

— صديقه في التمثيل !

— أنت تمزحين .

— لا أمزح . لووصلت الى ما بعد ...

ولم تتم الجملة . فالحت عليها نصيرة أن تتكلم :

— قولي ما شئت . هذا الشارع يقل فيه الفضول والتهور .

— أتظنين ؟ انظري الى هذا الذي مرة يتقدمنا ومرة يتأخر !

وبالفعل . كان في تلك اللحظة شخص متقدم في السن ، يحاول مغازلتهما ، لكن ظروف المرور في الرصيف لم تسمح له بأداء دوره كاملا . فراح يتسكع في منظر مزر بالنسبة لسنه .

— صحيح ! لم أره ماذا يريد هذا الغبي ؟

— يريد أن أصفعه !

خافت نصيرة من إقدام دليلة على تنفيد ما قالت ، وتوسلت اليها بإلحاح :

— أرجوك ، أرجوك ... أقسم لك ، لا تفعلي . دعي الكلب يلهث أتريدين أن يجتمع علينا المارة ، والشرطة ؟ انظري ، ذاك مركز الشرطة .

لم يكن يخطر ببال دليلة صفع الرجل . وانما هي كلمة قالتها . لكنها ما إن سمعت نصيرة تحذرها حتى راقتها الفكرة : «ماذا لو صفعته ؟ انه يقينا لا يستطيع انقاذ نفسه مني ! » .

حقيقة ان دليلة قادرة على ذلك . فهي رياضية ممتازة في المصارعة اليابانية . لكنها عدلت لحينها عن الفكرة الطائشة ، وقالت لنصيرة :

— لا تخافي . لن أصفعه .

— لقد خشيت فعلا ... على ماذا كنا نتكلم ؟

فكرت دليلة هنيهة ثم قالت :

— على عمر الشريف ... سألتك اذا رأيته أم لا ؟ قلت لم تريه أليس كذلك ؟

— لم أره أقسم لك . ولم أعلم أبدا بمجيئه !

— انه دائما هناك .

— عدنا الى المزاح من جديد !

— أؤكد لك ، انه هناك . ولو وصلت الى ما بعد الجلوس مع كريمو لكنت شاهدته ولو مرة . انه هناك يمثل دور شي غيفارة !

— فهمت، تعنين أن كريمو يملك الفيلم الذي مثل فيه عمر الشريف دور شي غيفارة ...

— ليس فيلما . إنه معلق بالحائط .

— تقصدين صورته وهو في دور شي غيفارة ؟ وماذا في ذلك من غرابة ؟ أليس عمر الشريف ممثلا ؟

— وكيف لا !

— واذن ، يمثل دور شي غيفارة أو دور هيتلر ما الفرق ؟

— لست أدري ، لكن تلك الصورة تسخطني .

— ولماذا تسخطك صورة ؟

— للزيف الذي تمثله .

كانت نصيرة في حديثها مع دليلة ، تنتقل من دهشة الى أخرى . وأخذت تكتشف هذه الشخصية الغريبة الجذابة في نفس الوقت . وقالت لها :

— أتعرفين ، أنني بدأت أشعر بالغبطة لهذا اللقاء !

— وقد كنت منذ حين متضايقة !

— صحيح ، خشيت أن تؤدي بناجرأتك الى ما لا يليق .

— ماذا يغبطك في لقائنا ؟

— اكتشاف جانب من شخصيتك !

لم تجب دليلة بشيء . راحت تستمع الى وقع خطاهما فلم تجده منسجما فعدلت من مشيها حتى انسجم وقع خطاها مع وقع نصيرة ، وصارا صوتا واحدا . وكأن امساكها عن الحديث دفع نصيرة اليه ! فقالت تحكى مغامرتها مع كريمو :

— أنا لم تربطني بكريمو صداقة . تعارفنا كما يتعارف كل الطلبة ، ولما اكتشفت حقيقته تركته . اننا لا ننتمي الى طبقة واحدة .

— تتحدثين عن الطبقة !

— ولم لا ؟ هل تعتقدين إمكانية مصادقة شخص أنت عدوه طبقيا ؟ أنالا أرى ذلك .

— وكيف كان تعارفكما ؟ ألم تذهبي الى شقته بشارع محمد الخامس ؟

— ذهبت ، ولكن لا كما تتصورين ! لما تعارفنا ، دعانى ذات يوم الى تناول الشاي في بيته . فقبلت الدعوة ، وكنت أظنه دعانى الى عند أهله . اتفقنا على الموعد : كان عشية سبت ، لم تكن لنا دروس . وظننت أن زيارتي له بين أهله وذويه لا تثير تعليقا ولا وشوشة ... طالبة تزور أحد زملائها ... هل هناك أكثر بساطة من هذا ؟

— ظننت أهله يسكنون بشارع محمد الخامس !

— نعم أعرف أن أباه من كبار الاثرياء ، ولكني قلت : أنهج الجزائر لا تؤمن ... تقدم لك أحيانا مظهرا متواضعا وهي تخفي بين ثناياها قصورا ! ذهبت اذن . وقلت بما أني أزور هذه العائلة لأول مرة فمن اللائق ان آخذ معي بعض الورود ...

— حملت له النوار !

— حملت له النوار وذهبت . ضغطت على الجرس الكهربائي ففتحت

لي الباب عجوز لها ناب من ذهب ، تحاول بكل الطرق اظهاره . سألتها : هذه دار سي كريمو أليس كذلك ؟ وكان مدخل البيت أثار في نفسي بعض الحيرة وقلت لعلني غلطت في الدار . فقالت ضاحكة : نعم ، هذه دار سي كريمو بن عبد الجليل . تفضلي.وأفسحت لي الطريق ويدها تشير الى الغرفة ، أعطيت لها النوار ، ودخلت وبقيت واقفة فأشارت إليّ بالجلوس . فانحنيت على أحد المقاعد فدعتني الى الجلوس على كنبه . لم يكن هذه الغرفة أثاث كبير . فبالإضافة الى الكنبة التي يبدو لي أنها تستعمل أيضا سريرا ، هناك مقعدان وثيران ، على الجهة اليمنى خزانة كتب ...

— وهي أيضا مشرب للخمور ... عند كريموكل شيء ذو وجهين !

واصلت نصيرة تصف الغرفة :

— أما على الجهة اليسرى نصب جهاز ستيريو : راديو ، ايليكترفون ، كاسيت . ومجموعة من الاسطوانات وتسجيل الكاسيت التي كانت موضوعة في أدراج أثاث خشبي صنع لذلك . لا حظت من بين الاسطوانات غلاف استطوانة عليها صورة جيلبير بيكو.

في احدى زوايا الغرفة وضعت خزانة صغيرة عليها زهرية من خزف صيني ، أو ياباني لست أدري . جلست لحظات وحدي . وأخذت أشغل وقتي بقراءة عنوان الاغنية المكتوبة على غلاف اسطوانة بيكو...

— « الوحدة لا وجود لها » أليس كذلك ؟

— هو ذاك . وظننت أن أحدا من أهله آت الي ... أمه أو احدى أخواته . وفي الواقع لم يكن شكل البيت يريحني ويشعرني بأني

في دار أسرة ... فكل من الغرفة التي أدخلت اليها والاثاث ، والعاملة وابتسامها الغامض ، ولا سيا وهي تقبض الزهورمني ، والصمت المطبق تضافرت على جعلي أحس بأني في بيت غريب ! وتساءلت :

لماذا تركوني وحدي ؟ هل أنا في عيادة طبيب أومكتب محامي ؟ » لكن لم أتوصل الى الحقيقة ... ثم تبينت الامر من بعد ، عندما أقبل علي وهويفتعل الاعتذار ، وقال :

فقاطعتها دليلة :

— قال لك كان بصدد نقل محاضرة ، أليس كذلك ؟

— هكذا قال لي ولم أصدقه . قولي ، انك تعرفين دقائق سلوكه وتعامله مع زواره !

— وكيف لا ، وأنا وصلت الى مستوى « المحظية » لديه !

— أقبل مبتسما ، معتذرا ، سائلا أياي اذا لم أضجر من هذا الانتظار الغير المقصود. وانحنى جالسا وهويقول :

— هل وجدت بسهولة أين تقفين ؟ ان يوم السبت يسهل الوقوف فيه بهذا الشارع وخاصة بعد الظهر ، لان السكان يخرجون من المدينة ...

جلس على المقعد المقابل ، وآخذني على الاتيان بالزهور . ثم قام واتجه الى الجهاز الموسيقي ووضع اسطوانة بيكو : «...» وعاد نحوي وهويقول :

— لعلك لا تحبين بيكو؟

فقلت له وأنا أشعر بالحيرة ولم أدر هل أبقى أم أغادر الغرفة :

— جيلبير بيكو أوغيره لا يهم ...

وقررت أن أسأله بعدما تأكدت من أني في شقة عزوبة :

— كريمو ، هل نحن في دار أهلك أم ؟...

ضحك عاليا وقال :

— لا ، لا... أهلي يسكنون هنا ! غير معقول ، غير معقول ...

— هل تسكن وحدك ؟

— لا ، أسكن مع أهلي طبعا . هذه شقة خاصة بالاصدقاء . أتظنينني متهور أفضحك من أول تعارف ؟ لا ، أبدا . هنا لايعلم أحد أنك معي الا العاملة العجوز فاطمة التي فتحت لك ، وهي لاتتكلم أبدا .

فقالت لها دليلة :

— اسمها عويشة ليس فاطمة . ولكنه يدعوها « فاطمة » على طريقة المستعمرين في الماضي .

— قال لي ذلك ذات مرة عندما سألته متعجبة : « لماذا تناديها فاطمة واسمها عويشة ؟ » فأجابني : لو ناديتها باسمها لاغترت وتحولت بسرعة الى خالة أو أم ... أما وأنا أناديها بغير اسمها فلا تنسى أنها خادم عندي ولو بقيت مدى الحياة !

وواصلت نصيرة حكايتها :

— ... قلت له : لماذا تفضحني ؟ هل زيارتك في دار أهلك فضيحة ؟ الفضيحة أن أكون معك هنا !

فقال بابتسام :

— عائلتنا محافظة ... لا أبي ولا أمي يقبلان أن تزورني صديقة الى الدار . أما هنا فنحن أحرار... نحن من جيل ، وأهلي من جيل... وأهلك أيضا ... أليس كذلك ؟

فلم أجبه . وبدالي أن أتلبث حتى أرى ماذا يريد أن يفعل . لعله سليم النية ؟

قام الى الخزانة ـ الخمارة ، وقال لي وهو يدير واجهة الكتب الى الحائط ليبرز مكانها مشربا معبأ بأنواع الخمور حسبما يظهر من أشكال الزجاجات المختلفة :
— ويسكي بالثلج أو بصودة ؟ أو مشروبا لذيذا ... « مارتني » مثلا بقطعة ثلج وأخرى ليمون !

فأجبته بما أمكن أن تعبر عنه لهجتي من برودة : «لا هذا ولا ذاك ! »

وكنت أشعر أني ارتكبت خطأ فادحا . ولكني قررت مواصلة التمثيلية بالرغم من قلقي وحيرتي . ونادى :
— فاطمة ! فاطمة ! أعدي شايا أحمر بالليمون .

وقال لي :

— الشاي بالليمون في الحر لا أحسن منه .
ثم كالمتعجب :

— لكن ... كيف لا تشربين الخمر ؟ ان حالك غريبة ! فتاة مثقفة مثلك لا تشرب ؟

فقلت له :

هل تعاطي الخمر عنوان على التطور؟
— في مجتمع محافظ كمجتمعنا لا بد من سلوك جريئي ، للفتى والفتاة معا ...

كانت نصيرة تحكي ودليلة تخمن ما ستقوله لها مسبقا ، لشد ما تتشابه الحكايتان ، مع اختلاف ضئيل في الجزئيات ... فهي كانت تشرب الخمر قبل التعرف عليه ...

ووصلت الفتاتان الى موقف تافورة ، واتجهتا الى أسفل الموقف حيث تركت نصيرة سيارتها . كانت من نوع « الاوستين » صغيرة الحجم جدا يشيع استعمال أمثالها بأوربا بكثرة ، وخاصة من طرف النساء . فتحت الباب فركبت دليلة ثم ركبت هي . فلاحظت دليلة :

— من العادة السيارات الانقليزية مقودها على اليمين .

— هذه من السيارات التي صنعت للتصدير. الى أين نذهب ؟

— أتممي لي الحكاية أولا .

— نمشي ونحكي ، أليس ذلك أفضل ؟

— أفضل سماع بقية القصة بدون انشغال خارجي .

— لماذا ؟

— لست أدري .

وفعلا كانت تود أن تسمع بقية القصة بكل تفاصيلها ، كما لو أنها تعيشها هي من جديد . أو لعلها وجدت فيها بعض العزاء عما وقع لها . وواصلت نصيرة :

ثم أقبل نحوي ودعاني الى التعرف على غرف الشقة . بدأ بالمطبخ ، حيث كانت « فاطمة » بصدد اعداد الشاي . لم يكن يشتمل على تجهيزات كبيرة : موقد ذو مشعلين . ثلاجة ، خزانة حائطية بها مجموعة من الصحون والفناجين وأكواب الشاي ...

— ولماذا تريدين أن يكون مطبخ شقة عزوبة مجهزا ؟ هو لا يأكل هناك الا لماما .

— ثم أراني بيت الحمام الذي كان نظيفا . وانتقل بي الى غرفة بها سريران فرديان من النوع العادي . بالحائط أعلاهما علقت صورة زيتية تمثل فتاة عارية تقريبا ، جالسة على مقعد . وفتى بجناحين عار يقبلها على جبينها ...

فقاطعتها دليلة متممة التفاصيل المتعلقة بالصورة :

— يد الفتى اليسرى موضوعة برفق على أعلى نهدها الايمن ، واليسرى وراء عنقها بدون أن تمسه !

فاندهشت نصيرة من التفاصيل التي أعطتها دليلة وقالت لها :

— أتتذكرين لهذا الحد كل هذه التفاصيل ؟ أنا لم أكن أبدا أستطيع أن أتذكر أكثر من صورة لفتاة وفتى عاريين . واذا أضفت تفصيلا آخر يكون على أبعد تقدير : تقبيل الفتى للفتاة !

— تلك الصورة رأيتها عشرات المرات . لا أعرف الرسم ولا أنا من هواته ولكن تلك الصورة لشدة ما أثارت فضولي سألت عنها من لهم خبرة بفن الرسم فأفهموني بأنها من غير شك ، ليست أصلية وانما منقولة :

— ولكنها زيتية ، وتبدو قديمة !

— ولو. هي لرسام يدعى فرانسوا بارون جيرار

من مواليد ايطاليا بالقرن الثامن عشر . والصورة تمثل أسطورة يونانية عن الفتاة الحسناء بسيشى (Psyché) وهي تتلقى لأول مرة قبلة الحب !

— برافو ! اذن ، وضعها هناك ليغري الفتيات بقبلته الأولى لهن !

— ألم يقبلك هناك ؟

— لا . ثم انتقلنا الى غرفة أخرى ، قال لى عنها انها الاستوديو

حيث يعرض مع بعض أصدقائه أحيانا بعض الأفلام التي يحصل على نقل نسخة منها أو يستعيرها . كما أن بهذا الاستديو مخبرا لتحميض الصور . .

— لتحميض الصور البورنوغرافية على الخصوص ! ألم يعرض عليك مجموعته البورنوغرافية ؟ ان له مجموعة قلما توجد في مكان آخر .

— هل هو مغرم بهذا الهواية ؟

— هي هوايته المفضلة !

— ثم دعاني لمشاهدة فيلم قصير ، فاعتذرت . فألح علي بحيث لم أتمكن من الرفض . جلست فأطفأ النور وأدار جهاز العرض وجاء الى جانبي وجلس واذا بي أرى مشاهد بورنوغرافية مركبة تركيبا ، كما لو أنها أخذت من عدة أفلام ، أو هي من القطع التي تحذفها الرقابة ... أخجلتني من نفسي ! فجئت أقوم واذا بذارعه تمتد فوق كتفي ، ويميل علي ليقبلني ... قمت مغضبة في انفعال شديد ، ونسيت حتى من أين دخلت ، فارتطمت بالحائط ! .

خرجت كالمجنونة لا ألوي على شيء . كنت أحس أن روحي تكاد تمزق جسمي سخطا وغضبا . لقد ظنني ولدت تحت جسر !

— هل اللواتي يولدن تحت الجسور يختلف سلوكهن عن سلوكنا ؟

— هكذا فكرت حينئذ ... سمي ذلك بأنه من آثار التربية المحافظة أو بما تشائين .

هما كذلك واذا بسيارة سوداء تصل الى مكان في آخر خط بالموقف ، وتقف . بها رجل وامرأة . ما إن وقفت السيارة قليلا حتى مال الرجل على المرأة يقبلها في لهفة وشوق . وأحست دليلة كأن شيئا ما يثيرها

... انها تعرف هذه السيارة ! وراحت تقرأ الرقم ... تعرفها يقينا : انها سيارة أخيها الأكبر ، عمر ، المدير ... حاولت أن ترى الرجل ، لكنها لم تتمكن . يبدو من الوراء كأخيها ، لكن الجزم بذلك مائة بالمائة يستحيل . لكن كيف يأتي أخوها مع مرآة أجنبية والى هذا المكان ؟ هي لم ترمن قبل هذه المرآة أبدا . لعل شخصا آخر مع المرآة في سيارة أخيها استعار السيارة لكيلا يعرف ... لكن أخاها ليس ممن يعيرون سياراتهم ! وأرادت أن تتأكد من الامر ولوكلفها ذلك التقاؤها بأخيها وجها لوجه ! وقالت لنصيرة :

— قولي ، هل تستطيعين أن تذهبي الى آخر خط كالباحثة عن مكان لتقفي به ، ثم ننصرف ؟

— ولماذا ؟

— أردت أن أتحقق من شيء ... رأيت رجلا يشبه أحد أساتذتي .

— ولماذا تريدين التحقق منه ؟ انه في وضع لا يليق بك أن تفاجئه

— لن يراني . انما أردت أن أتحقق ليس الا ... سأحكي لك من بعد لماذا ...

— سيارة البوجو السوداء ، لا ؟

— 504 ، تلك التي وصلت الآن .

نظرت نصيرة فرأت الرجل غارقا في اشباع نهمه من المرأة التي لا يبدو عليها مشاركته حماسه الغرامي ! فقالت :

— انه غارق الى أذنيه !

— حاولي أن لا تثيري انتباهه .

— لن ينتبه ، وأنا لا يعرفني على كل حال . غطي وجهك اذا خشيت أن لا يراك .

— سأفعل .

مرت سيارة الفتاتين بالقرب من سيارة البوجو السوداء ... انه أخوها يقينا ! أخوها الأكبر المتزوج ! أخوها الذي يأتي في الترتيب العائلي بعد أبيها ... وقالت لنصيرة :

— أسرعي ، اخرجي بما استطعت من سرعة !

— عرفته ؟ هو أستاذك ؟

— اخرجى ، لا تسأليني عن شيء الآن .

ضغطت نصيرة على الدفاع فأقلعت السيارة كالرصاصة .

أظلمت الدنيا في عيني دليلة . وأحست كأن شيئا بدأ يتقوض في شخصيتها ! اذن . ما تحيا فيه كله زيف ، كله ضلال ! كله سراب !

كانت السيارة تتجه غربا نحو ساحة الشهداء ، سالكة شارع الاستقلال ، وكانت دليلة ترى البنايات المحاذية للشارع على الجهة اليسرى تساقط الواحدة تلو الأخرى نحو البحر .

وودت لو أن السيارة تحولت الى صاروخ ، وشقت الفضاء ، وانطلقت بعيدا بعيدا ، حيث لا كريمو ولا عمرو ولا بشر ، حيث لا زيف ولا حيف ! لقد شعرت بالاختناق ، وبمزيج من المرارة والحسرة . كل ما قيل لها أو سمعته عن الدين والاخلاق والأسرة والناس بدأ يأخذ أشكالا أخرى في نفسها لم تتصورها من قبل . لو كان أخوها رضا الذي يكبرها بست سنوات والذي مازال أعزب هو الذي شاهدته متلبسا بهذا الجرم لهان الأمر . وتساءلت في نفسها : ترى لو كان في هذه السيارة بدله شخص آخر مع امراته ، ماذا سيكون الموقف ؟ لكنت بصقت عليها أمام الملأ ، ولسحبت من معها على وجهه في الساحة ! لماذا اخي المحترم أحب هذه المرأة الرخيصة التي قبلت تأتي معه الى هذا المكان

القذر ؟ لماذا تزوج اذن ؟ لماذا جاء بها الى هنا ، حيث الأنظار تحزره بكل ما تملك من احتقار ؟ لماذا لم يذهب بعيدا حيث لا يراه أحد ؟ هذا في الاسرة أعرفنا ووليها بعد أبينا لوكنا في حاجة الى ولي ! معارفه ليست في خلاياه ، انها في جيبه ، ... انه تافه ، حقير ... حقير

وابتسمت ساخرة من نفسها في حديثها النفسي : أنا خائفة ، غضبى ، شعرت بالاجرام لأني أحمل في بطني جنينا لم أفكر لحظة لذتي في حمله ! لو قبل كريمو لأصبحت أشرف امرأة لدى أهلي ...

وتراءى لها أهلها فردا ، فردا ، عراة بالعراء ! ثم رأت كل من تعرفهم عراة يغطون عوراتهم بأيديهم ! ثم رأت الناس جميعا عراة ولكن لا يمشون على أرجلهم وانما البعض منهم يمشون على رؤوسهم ، والبعض يحملون رؤوسهم تحت آباطهم ! وسألت نصيرة بدون أن تشعر :

— لماذا الناس يحملون رؤوسهم تحت آباطهم ؟

فتعجبت نصيرة من سؤالها وسألتها :

— ماذا تعنين ؟ لم أفهم سؤالك !

— مع أنه واضح ... قلت لك لماذا الناس يحملون رؤوسهم تحت آباطهم ؟

فكرت نصيرة لحظات قبل أن تجيب ، ثم قالت تجاري رفيقتها في حديثها التجريدي :

— ربما لأن أجسامهم تعبت من حملها !

— ممكن . أو ربما لانهم يستحون أن يروا أنفسهم وهم عراة وسخون ؟

— لا أظن أن الوسخ يستحي من نفسه . اذا استحى فيستحي من غيره !

— صحيح . مجتمعنا قذر ، أليس كذلك ؟

— لا ، بعض الطبقات فيه قذرة !

- ربما .

وأحست نصيرة أن دليلة في حزن ممض لم تلاحظه عليها من قبل بهذه الدرجة . فسألتها :

— ماذا بك ؟ هل أستاذك هو الذي أظلم حاله نفسك بهذه الدرجة ؟

— ليس أستأذى ، انما ما قاله لي منذ بدأت أعرف الحروف الهجائية للحياة ! لكن لا تخافي علي . لست سهلة العطب !

— اننا وصلنا الى ساحة الشهداء ، الى أين تريدين أن نذهب ؟

— بودي أن أذهب الى مكان لا أرى فيه أحدا .

— وأين هو هذا المكان ؟

— لست أدري ، في كوكب بعيد ، أومقبرة !

— المكان الذي ليس فيه أحد ، قد يكون هو الجنة !

ابتسمت دليلة بدون أن تشعر ، لما أثارت في نفسها هذه الكلمة من صور . وقالت سائلة :

— وهذه المساجد اذن التي تمتلىء بها الدنيا ، لماذا بنيت ؟

— لماذا ؟ هل تعتقدين أن المساجد محطات قطر ، أو مطارات للجنة ؟

لما وصلت السيارة الى الدوار قفلت نصيرة راجعة دون أن تستشير دليلة التي أجابت قائلة :

— أنا أفضل أن تكون المساجد مطارات على أن تكون محطات قطر !

— ولكن صوار يخها ثابتة أبدا كما قال أحد الكتاب ....

ولاحظت دليلة السيارة عائدة من حيث أتت فسألت نصيرة :

— الى أين ذاهبة ؟

— سألتك منذ برهة الى أين نذهب فلم تردي علي .

— لا أريد أن أعود الى المدينة .

— الى أي مكان تريدين أن تذهب ؟

— لست أدري . اذهبي الى أي مكان ، باستثناء المدينة .

— لي اقتراح ، نذهب سويا الى دارنا . هناك لا يزعجك أحد . ومن شرفة غرفتي نرى الجزائر كلها ...نراها في عظمتها وفي تفاهتها أيضا !

— الجزائر ليست تافهة انما سكانها هم التافهون !

— أصحح لك كلامك لثاني مرة : ليس كل السكان ، بعض السكان تافهون ! الشعوب ليست تافهة !

— أرى أنك تحبين الدقة ، وأنت خريجة كلية الآداب !

— لم تردي علي ... أنذهب الى دارنا أم لا ؟

— نذهب لكن بشرطين أولا ليس الآن ، مازال لدينا متسع من الوقت وأفضل اذا لم تري مانعا ، أن نذهب الى شاطىء من الشواطىء ، وفي نهاية العشية نمر بدارنا لاخبار أمي وأخذ بعض الثياب .

— والشرط الثاني ؟

— أن لا يكون في ذهابي معك أى كلفة .

— أي كلفة ؟ أتعتقدين أننا نذبح لك كبشا ؟ كوني مطمئنة ، لن يكون ذلك ولا ما يشابهه !

— طيب ، اتفقنا .

— اذن نذهب ، ان شئت الى نادي الصنوبر ، هو المكان الهادي في هذا الوقت .

— خسارة ، لوكان معي تبان لا ستحممت !

— مرة أخرى اذا شئت نأتي ، الآن رواد البحر قليلون ماعدا بعض المتعاونين .

عادت السيارة من جديد الى الاتجاه الاول الغربي قاصدة نادي الصنوبر . وقالت لها دليلة وقد مرت بذهنها بعض الاحداث القريبة التي عاشتها :

— خسارة لم أعرفك بهذه الصورة قبل اليوم ...لكنت الآن امرأة أخرى ...

— لماذا امرأة أخرى ؟ لكنت أنت كما أنت ! أنا أيضا اكتشفتك ، واني مسرورة بهذا الاكتشاف .

— صحيح ؟

— صحيح . ولعل الايام تقرب بيننا أكثر ، من يدري ؟

— ربما .

وراحت كل منهما تتابع الطريق بسرعة السيارة التي كانت تخترق الشوارع اختراقا ، لا تعطلها حركة المرور المتزايدة ولا مآزق الشوارع الملتوية !

* * *

أخذت الشمس تحمر وهي منحدرة الى الغروب كما تبدو من رمال نادي الصنوبر حيث قضت دليلة ونصيرة فترة من الوقت أراحتهما من هرج المدينة وضوضائها . لم يكن بهذا الشاطيء الفسيح

الجميل الا بعض المتعاونين الأوربيين الذين يحسنون الاستمتاع بالطبيعة ، بالرغم من حرارة الطقس ، ولا سيما في وسط النهار . ولم يجر بين الفتاتين حديث ذو بال . كانت كل منهما تستمتع بما يمنحه هذا المكان الهادي من راحة ومناظر وديعة .

لكن دليلة كانت تخطط ولو على الرمال لمستقبل آخر لا تتصوره . بيد أنه بالنسبة اليها يشكل مصيرها المختوم . فليس لها من سبيل الى الا ستمرار في حياتها السابقة . هذه السنة هي الاخيرة في الدراسة .

السنة لا تنتهي وهي بنت حرة تبحث عن المزيد من المغامرات كما كانت في السابق بل تنتهي عليها وهي أم لمولود لا يعرف أباه . ولن يعرفه . كما قررت ! وتنتهي كذلك وهي تتحمل حياتها ومصيرها وحيدة . لاسند لها الا نفسها .

كانت في هذه الافكار عندما نبهتها نصيرة الى باخرة تتجه نحو الشمال تبدو في أقصى الافق كأنها واقفة :

— ألا تتمنين أن لو كنت على ظهرها ؟

— لا أدري . لم أفكر فيها . فوق ظهرها أو هنا ما الفرق ؟ الانسان وحيد أينما كان ...

. افقتك الافكار السوداء حتى الى هنا ؟

— لم ترافقني . هي تحيا في ذرات وجودي !

— ألا تريدين أن نعود ؟ ان الطقس أخذ يبرد . ثم حركة المرور ...

— كما تشائين . لنعد .

وقامت تنفض ما علق بها من رمال . وكذلك نصيرة . واتجهتا الى السيارة وسألت نصيرة زميلتها :

— نسلك أي طريق ؟ البحري ؟ أم البري ؟

— أنت التي تسوقين وتعرفين أحسن الطريق اللائق .

— أظن أن الطريق البري أحسن . من جهة حركة المرور . نمر بالشراقة، الابيار ، المرادية . ثم نتجه الى سكناك . أم نسلك طريق حيدرة وبير مندرايس والقبة ... ماذا تفضلين ؟

— أنت صاحبة الامر . على أني أعتقد أن طريق حيدرة أقل حركة في هذا الوقت من الابيار والمرادية .

— نسلك طريق حيدرة ... أنت تسكنين في حي « البحر والشمس » أليس كذلك ؟

— ليس تماما هناك . أنا في حي الواحات ، في أعلى حسين داي .

— زي بعضه ، كما يقول المصريون !

انطلقت السيارة بالفتاتين كالسهم لكن في نفس اللحظة ضغطت نصيرة على الفرامل لانها تذكرت العراقيل الارضية التي أوشكت أن ترتطم بأحدها والتي جعلت في طرقات نادي الصنوبر للتخفيف من السرعة . فسألتها دليلة :

— لماذا أسرعت ، ولماذا تتمهلين ؟

— لأني لا أريد أن أغادر المكان دون أن آخذ في ذاكرتي صورا لهذه الفيلات الضخمة التي بنيت للمحظوظين ! .

— لست أدري إن كانوا محظوظين ؟

— ولم لا ؟

لم تجب دليلة ، وأخذت سرعة السيارة تزداد بقدر ما تبتعد عن العراقيل وعن نادي الصنوبر . وما هي الا لحظات حتى وصلتا الى مزرعة بوشاوي التي كانت في عهد الاستعمار مزرعة لأكبر المعمرين :

بورجو فقالت نصيرة : .

— لم يأخذ الشهيد بوشاوي من خيرات المزرعة الا الاسم !

— تلك هي الحياة ، كقول الشاعر : بعض يصيد وبعض يأكل السمك !

— تعرفين الشعر ! متى التقت الحقوق بالشعر ؟

— هذا شعر أبي ... الذي ينشده علينا أويتمثل به !

— جميل !

— أبي أنت لا تعرفينه ، تسمعين به فقط ... هو رجل أضاع زمانه وبقي بلا زمان ! كلما رأى شخصا وأعجبه حاول تقليده ، أو التقرب اليه !

— انك تدهشينني أكثر فأكثر ! وأظن أن طريقينا ينتهيان الى نقطة واحدة !

— لست أدري .

— انظري ذاك الذي اجتازنا منذ لحظات ، كيف أريه أن يتعلم الأدب ويحتفظ بالمؤخرة !

ضحكت دليلة من التعبير الذي لم تجده موفقا في هذا المضمار بالذات وقالت :

— ذاك ما يفتش عنه الرجال : المؤخرة !

— لكن ليس في الطريق . انظرى ...

وأعطت للأستين الحساسة كامل السرعة فانطلقت كالرمية ، واجتازت الرجل الذي بدأت سرعة سيارته كسرعة احدى الشاحنات ! وساد الصمت بينهما وأخذت الأشجار المحاذية للطريق وحدها تحييهما

بسرعة 130 كلم في الساعة ! وبعدها البنايات ثم الاحياء ، حتى وصلا الى الواحات في أقصر وقت عرفته دليلة منذ أن بدأت تركب السيارات !

وبالنهج الذي تقع به دار الشيخ علاوة ، سألت دليلة زميلتها أن تدخل معها ، ريثما تأخذ غلالتها وتغير بعض ملابسها ، فامتنعت وفضلت الانتظار بالسيارة . قالت :

— لو دخلت لدعيت الى تناول قهوة أو شاي ، ولطال بي المقام ، وأصبحت أنا المدعوة ...
— كما تشائين . لن ألبث طويلا .

دخلت دليلة الى البيت وبقيت نصيرة تنتظرها .

لم يكن النهج جميلا ولا رديئا . كان بين بين . وقد كان ذات يوم جميلا ... تزدان كل فيلا ته بحدائق أمامية أو خلفية جميلة . حتى الفيلات التي كانت مساحتها لا تتسع لحديقة ، كان بها مكان أو أمكنة لغرس الأزهار . وكانت دائما تجد العناية من ساكنيها لتجديدها حسب الفصول .

فهي طول السنة مزدانة بجميل الزهر والحشائش النادرة . أما بعد السنوات الاولى من الاستقلال فأخذت كل فيلا تتشكل بحالة ساكنيها ... معظم السكان لم ينشؤوا تنشئة حضارية ، ولا لهم موارد مالية تسمح لهم بأن يولوا عناية لهذا المظهر الثانوي بالنسبة اليهم والذي يتمثل في الجمال . وفي الواقع ما الفائدة في أن يجمل مدخل الفيلا أو يقبح اذا كان سلوك الفرد سلوكا لا حضاريا ؟ وكذلك صارت معظم الفيلات

بلا حدائق . أو ببقايا حدائق . وبلا زهور ولا نباتات نادرة . وبلا مدخل تماما . لقد بنيت أسوار عالية في معظم الفيلات لتحول بين النهج والنوافذ المطلة عليه . مبالغة في الاحتجاب فصارت الفيلات أحواشا . ضاعف من قبحها . تفنن سكانها في انتقاء الالوان الفاتحة لدهنها . فاذا البيوت تصير مجموعة من الألوان المتنافرة المتسامتة ! وضربت القضبان الحديدية على النوافذ . وأحيانا مدت من السور الخارجي الى سقف البيت . بحيث صارت بعض البيوت سجونا مصغرة لساكنيها . ولكنها سجون اختيارية ! أو أقفاصا كبرى ضربت حول النساء . كما لو كن حيوانات مفترسة !

كان نظر نصيرة يتنقل من دار الى أخرى بهذا النهج . ولم تكن الدور كلها مثل ما كان يجري بنفسها ... لقد كانت بعض البيوت تذكرها ببيوت أخرى في أنهج وأحياء أخرى جرى لها ما جرى لهذه .

وكانت دار الشيخ علاوة تظهر لها كعمارة صغيرة أكثر منها كفيلا . فالطبقتان اللتان أضيفتا الى البناء الأصلي . حولتا شكلها تحويلا كاملا . وبدا النشازواضحا بين البناء الارضي الذي تحيط به حديقة . وله مدخل كمدخل الفيلات . والجانب العلوي الدي ترك الفيلا في الأرض ليتخذ شكل عمارة بدورين !

في الرصيف المقابل لنصيرة كانت مجموعة من الشبان يقمرون بينما راح واحد منهم يعزف على قيثارة صغيرة . في حين كان شابان أحدهما يمسك بزجاجة مغطاة بجريدة واضعا فمها في فمه والآخر في حالة المنتظر المتلهف لتناولها بدوره ! تظننت نصيرة أنها من غير شك زجاجة من البيرة لأنها رأت في أماكن أخرى هذه الطريقة في التعمية .

بالطريق كان الأطفال يتسابقون على صفائح من اللوح ، مركبة على عجلات صغيرة من حديد . تحدث في هبوطها ضجيجا يصم الاسماع ! أما البنات الصغيرات فكانت تتسابق في التطبيل على أوعية الزيت القزديرية الفارغة .

باختصار ، كان النهج قد تجاوز الحياة العادية الى درجة التلوث بالضجيج . شأن أغلب أنهج العاصمة وأحيائها . وفي أسفل النهج كان لاعبو الكرة في تشاحن وتصادم أنساهم كلية في المارةوسائقي السيارات ... طبعا نصيرة لم تستغرب ذلك . فالمنظر عاد جدا وعام بشكل جعله جزءا من حياة السكان اليومية . لكن الشيء الذي لم تره نصيرة من قبل ، والذي يعتبر بالنسبة اليها جديدا هو قذف المصابيح الكهربائية بمقاليع مطاطية من طرف الاطفال !

وتساءلت في نفسها نصيرة وهي ترى كل ذلك في نهج واحد وفي لحظة واحدة « كم ينبغي لنا من سنة لنتخلص من كل هذا » . طبعا لا يمكن أن تجيب هي ولا غيرها عن هذا السؤال لأنه يعني هنا تطور الانسان من وضعية متخلفة الى مستوى حضاري معين ... لقد لاحظت مثلا مع بعض زملائها في مصلحة الدراسات النقابية أن مستوى معيشة الفرد في الجزائر ارتفع عشر مرات أكثر على ما كان عليه إبان الاستقلال سواء في المدن أو الارياف بينما لم يصاحب هذا التطور المادي تطورا في السلوك الحضاري ! بل يكاد المرء يعتقد العكس : كلما ارتفع مستوى المعيشة لدى الفرد الجزائري كلما تدهور سلوكه ! والحقيقة هي أن «ما كبت عاد الى الظهور» ... على حد تعبير فرويد . لم يؤد ارتفاع مستوى المعيشة الى تدهور السلوك ، وانما أدى الى اكتشاف ما كان غائبا عن الأنظار تحت أثقال الخصاصة والحيف بكل أنواعه !

كان الناس موتى والميت لا سلوك له أصلا . ولما أخذت الحياة تدب فيهم بدا سلوكهم وكأنه غير الذي كان !

ان نصيرة ترآى لها هذا النهج بأكثر مما هو عليه ، لأنها تسكن بمكان يقع على طريق ضيق ملتو منحدر ، لا يصلح للجلوس ولا للعب .

فلو جاءت الى هنا وهي تسكن كما كانت من قبل ببيلكور لتراآي لها نهجا هادئا جميلا . ثم لأنها جاءت وقد خرج الاطفال من المدارس وعاد العمال من أعمالهم . فمن الطبيعي اذن أن ترى ما ترى ... فالشقق والفيلات لا تتسع لا يواء كل أفراد سكانها ايواء معقولا . ذلك أن معظم السكان من النازحين الى المدينة في سنوات الاستقلال الأولى . فكانت الأسرة لا تشتمل على أكثر من ستة أو سبعة أنفار . واليوم أصبحت مرتين أكثر !

ان دار الشيخ علاوة نفسها خير دليل على هذا الواقع . فهو عندما سكن هنا بأسرته كانت فيلا أرضية ... ثم كبر الأبناء فأخذوا يستقلون بالغرف . فبنى الشيخ علاوة دورا إضافيا ولو على حساب الذوق المعماري . ثم لما ولد لبعض أولاده فبنى دورا ثانيا وهو يفكر في بناء دور ثالث . لأنه يعتقد أن أبناءه لن يستقلوا عنه . فهو عندما يكون مزاجه في حالة مرح ويتحدث مع أصدقائه ومقربيه على الحياة والاسرة والابناء يقول ضاحكا : انه يعطي لا بنائه استقلالاً داخليا . أما الخارجية والدفاع والمالية فيحتفظ بها لنفسه ، وان عجز عن القيام بها كلها أشرك معه أكبر أبنائه !

وهكذا صار بيته بدورين ، ولربما في المستقبل القريب أو البعيد سيصير بثلاثة أو أربعة أدوار ولم لا ؟ الجزائر لا تنوى أن تبقى بلدة صغيرة لا شأن لها . تريد أن تعد الملايين ، وملايين الملايين ! ولادة الاولاد

لا تكلف تعليما ولا مهارة . من الجزائري الذي في حاجة الى تلقى دروس من الغير في انتاجية الأولاد ؟ صحيح هناك بلدان متقدمة في هذا المضمار وهي معروفة ، ولكن الجزائر سوف تتحداها في مستقبل لن يطول كثيرا ...

ثم إن هذا النهج لا يعمره ساكنوه فقط .. انه ككل الأحياء الأخرى ، تحرسه عمارات مجاورة ، تضم بين طياتها مآت الشقق . أين يذهب أطفال هذه العمارات اذا لم يكن الى الأنهج المجاورة ؟ وخاصة الأنهج التي تقل فيها حركة السيارات مثل هذا النهج الذي أدهش نصيرة ! انه اذن نهج يلعب فيه سكانه من الأطفال ويلعب فيه أطفال العمارات المجاورة الذي تظهر أدوار منها لنصيرة ، شرفاتها جللت بمختلف الفرش والغسيل ، بالرغم من الشمس التي غربت !

وتساءلت نصيرة في نفسها وهي ترى كل ذلك : « والسلطة ، أين هي ؟ » نصيرة تعرف وضعية الجزائر الديموغرافية كسائر الناس ، أو بالأقل أولئك الذين نالوا حظا من الثقافة . ولكنها منذ أن سكنت بالمرادية ، في هذا الممر الضيق الذي ينحدر منها الى شارع الشهداء تعودت ان لا ترى بهذا القدر مناظر البشاعة ! هي من شرفة غرفتها ترى المدينة أسفلها ، وترى وراء المدينة البحر وترى وراء البحر أو في نهايته أفقا جميلا ... كما تحدثت بذلك الى دليلة ! جزائرها هي عبارة عن صورة بانورامية من أبدع الصور . لا صورة جزئية متقطعة بالعمارات والشرفات المعبأة بالفرش والغسيل حتى وقت الغرب !

أما دليلة فانها لما دخلت الى البيت وجدت رضا بالردهة واقفا ، بيده محفظة كالمتأهب للخروج . فسألته :

— الى أين ؟

— الى ما لا يهمك !

— ألم تر نعيمة ؟

— مع الجدة زبيدة (أخته الكبرى) يبدو عليك الاستعجال ؟

— تركت نصيرة أمام الباب .

— نصيرة من ؟

— نصيرة ـ صوناكوم .

— أهاه ! انك تطورت على ما يظهر !

— ولم لا ؟

— لماذا لم تدخليها ؟

— (ساخرة) خشيت أن أجدك هنا !

انطلقت الى غرفة زبيدة . كانت متحرقة للتعرف على ما اذا وصلت الرسالة أم لا ؟ وجدت نعيمة بغرفة زبيدة تسرح شعرها ، تتأهب هي أيضا للخروج . ولم تكن زبيدة بالغرفة ، كانت بالمطبخ مع منى زوجة أخيها ... وسألتها .

— ألى أين ؟

— الى حيث لا تفكرين أبدا !

تشككت في أنها قد تكون ذاهبة الى السينما مع رضا ، لكن الوقت ليس وقت السينما . ولكنها سألتها مع ذلك تقول :

— أذاهبة الى السينما ؟

— سينما من نوع خاص !

— مع رضا ؟

— مع رضا .
— قولي لي الحقيقة ، الى أين ذاهبة ؟ ... لكن لا يهمني هذا . هل جاءتني رسالة ؟
— لا ، لم تأت أي رسالة .
— أنت متاكدة ؟
— قلت لك لم تأت أي رسالة ، ألا يكفيك هذا ؟
— كنت هنا عندما مر ساعي البريد ؟
— كنت بالحمام .
— ذهبت اليوم الى الحمام ؟ مع من ؟
— لماذا كل هذه الأسئلة ؟

التفتت نعيمة تتفحص ابنة عمها لتتحقق ما اذا كانت تهزل أم تجد بأسئلتها . لاحظت على وجهها شحوبا غريبا وقلقا باديا في كل ملامحها . وسألتها بدورها :

— مالك مضطربة هكذا ؟
— لست مضطربة . انما أنتظر رسالة تهمني . من كان هنا عندما مر ساعي البريد ؟
— مني ، على ما أظن .
— وحدها ؟
— الظاهر ... لكن لماذا كل هذه الأسئلة ؟
— ألم تعطك أي رسالة ؟
— أنت مريضة بهذه الرسالة ! لو جاءتك رسالة لأعطيتها لك .
— لكنها تجيئني باسمك .
— أعرف . ليست هذه المرة الأولى ...

— أين هي منى ؟

— بالمطبخ مع زبيدة .

ذهبت دليلة الى المطبخ مباشرة ، فسألت منى على البريد فأخبرتها هذه بأن الساعي لم يمر أو مر ولم يأت برسائل . فقالت لها زبيدة ساخرة :

— تدخلين هكذا لا سلام ولا كلام ، تسألين عن البريد ، وعن الأكل ... أليس كثيرا هذا ؟

فأجابتها دليلة بقسوة :

— لم يغلط رضا عندما كتب على باب غرفتك : كلبة واعرة !

— فردت زبيدة بغضب :

— عليك وعليه اللعنة ، أيتها الوقحة !

ولكن دليلة كانت قد خرجت بعد وعادت الى نعيمة توصيها على الرسائل وتسألها الى أين ذاهبة :

— قولي ، الى أين تذهبين ؟

— الى اجتماع عن الميثاق .

— أنت !

— ولم لا ؟ أأدهشك هذا ؟

— مع رضا ؟

— مع رضا . هل هناك مانع ؟

— لوعلم أبي لغضب عليك .

— لأني خرجت مع رضا . ؟

— لأنك تحضرين اجتماعا عن الميثاق وبالحي .

— ليغضب !

— أنصحك على كل حال . لا تخبرى أمي بأنك ذاهبة الى اجتماع ولا مني ...

— وأنت الى أين ذاهبة ؟

— مع نصيرة .

— مع نصيرة ـ صوناكوم .

عجيب ! متى تصادقتما ؟

— اليوم .

— لماذا لم تدخل ؟

— لأننا على عجل . الى اللقاء .

صعدت الى غرفتها التي تتقاسمها مع أختها الصغرى هالة فوجدتها تستمع الى بعض الاسطوانات ، فقالت لها محذرة :

— أياك أن تفعلى ما فعلته المرة السابقة ...

— ماذا فعلت المرة السابقة ؟

— دورت الاسطوانة على 45 وهي 33 أنسيت ؟

— غير صحيح . لست أنا التي أفسدتها ... أنت !

— كيف أنا ؟ تكذبين علي الآن !

— لأنك لم تتذكرى ، كنت ...

— ماذا كنت ؟ (بقوة)

— كنت في القمر !

لم تجد دليلة الا الابتسام أمامها كرد فعل لتعبير أختها المفاجىء الذي تحاشت به أن تقول لها : كنت سكرى ... وقالت :

— اذا حذرتك فأعني المستقبل . فهمت ؟

تسرولت ثم أخذت غلالة رقيقة فوضعتها في حقيبتها اليدوية ، ولبست فستانا ازرق بلا أكمام من «الجين» الرفيع . ثم وقفت أمام المرآة فسرحت شعرها ومسحت وجهها مسحا خفيفا ببودرة غطت ما علاه من شحوب . وأخذت قلم الكحل فأمرت به على جفنيها ، ثم قلم الشفاه الغليظ الذي كان لونه ورديا ببياض فجرته على شفتيها المغلقتين . وأخرجت لسانها الذي كان أسود مما دخنت من سقائر وشربت من ويسكي ، فأمرته على شفتيها تدهنهما بالمادة الصبغية التي تركها عليهما قلم الماكياج . أخذت بعد ذلك قطعة من قطن مسحت بها مازاد على القدر من الماكياج ورمتها الى الأرض . ثم أخذت زجاجة عطر بمرش فضغطت على المضخة صوب رقبتها وخلف أذنيها ونظرت الى مرآة الخزانة تسألها :

— ماذا ترين ؟ الماكياج ليس كثيرا ؟

فاجأبتها هالة دون أن تنظر اليها :

— ليس ملائما ...

— ماذا ليس ملائما ؟ الماكياج ؟ أم الألوان ؟

— الكل !

— ومن سألك رأيك ؟

— أنت ...

— اسمعي عبد الحليم حافظ ، ودعي الامور الأخرى لأهلها ... لوكنت مكانك لما استعملت ذاك الأحمر المبيض وأنا بيضاء !

— لست مكاني !

ذهبت بعد ذلك الى غرفة أمها فأخبرتها بأنها تنام عند نصيرة ولم تدع لها الفرصة لتضع أسئلتها العادية ... وخرجت !

* * *

- 6 -

هذا أول اجتماع تشارك فيه نعيمة حول الميثاق الوطني ، في وسط غير طلابي . لقد أثارت المناقشات التي وقعت في كثير من جهات الوطن ، وقدم التليفزيون خلاصات ضافية عنها ، رغبتها الشديدة في المشاركة . كانت تحب أن تطلع في عين المكان على مجرى المناقشات في وسط شعبي بين فيئات اجتماعية مختلفة . لقد رأت من بين ما رأت في التليفزيون بعض النساء وخاصة الفتيات يصرحن امام الرجال بتصريحات جد جريئة . وهي كامرأة لم تتعود على سماعها بهذا الشكل ! كما رأت وسمعت كثيرا من النقد اللاذع للمسؤولين ، سواء المحليين أو من هم على مستوى الوطن . وهو أمر عظيم وشديد الأهمية في بلد ضحى بالكثير من أجل الحياة الديموقراطية والتعبير الحر ! إن عليها اذن كطالبة أن تتعرف على الحقائق الكثيرة الواقعة والتي غطى ظهورها الخوف والانتهازية والديماغوجية . وعليها كفتاة أن تمارس ولو بالمشاهدة ، تجربة المشاركة الى جانب الرجل في القضايا الوطنية كما عليها أن تثبت وجودها لهذا الرجل الذي انتزع منها حتى انسانيتها في بعض الأحيان . وهي كريفية يتأكد عليها أكثر أن تحصل على أكبر مجموعة من التجارب في كل الميادين ...

ولعل أهم ما أدهش نعيمة ، وأدهش كل ملاحظ هو هذه الحرية في التعبير التي أعطت فجأة صورة أخرى لجزائر ظنها الكثير ماتت ! لقد كان النقد العلني والاتهام لأناس كانوا من الخشية بحيث ذكر أسمائهم يلقى الرعب في القلوب شيئا ملحوظا يوميا لأن حرية التعبير كانت حقا مضمونا للجميع ، فمارسه الشعب دون خشية ولا التواء وأظهر شجاعته وأهليته للحياة الديموقراطية .

وخيب بذلك كل أولئك الذين توقعوا شراً من أعطاء هذه الحرية في بلد لم يستوف بعد كل مؤسساته الدستورية ، بل مازال في مهب الأرياح !

والشيء الذي تأكدت منه نعيمة وتأكد منه كل جزائري بهذه المناسبة هو أن الأنظمة التي تخشى أو تحارب حرية التعبير هي أنظمة ديكتاتورية ، لا خير فيها لأي وطن . لأن حرية التعبير لم تكن في يوم من الأيام شرا على وطن . كما ثبت لدى الناس أن مثل هذا الأسلوب في معالجة القضايا المطروحة على الوطن يعتبر طريق الثورة الثقافية الصحيحة .

ان المناقشات خلال هذه الأسابيع الأولى من شهر ماي بشمولها وعمقها وديموقراطيتها ظننت الكثير بأن الجزائر مقبلة على تحول جذرى وخوض ثورة ثقافية حقيقية ! ...

لكن نعيمة استولت على اهتمامها نقطة أخرى ، هي تعرف الناس على بعضهم بعضا : التقدمي اكتشف الرجعي المرابي ، والاشتراكي عرف المداهن بالاشتراكية والمتحرر عرف المتزمت الذي كان يتوارى بالتسامح ... باختصار ، الكل عرف الكل واتضح للجميع أن الجميع لا ينتمي الى طبقة واحدة !

وفي الواقع لم تكن نعيمة هي صاحبة هذه الملاحظة انما هي ملاحظة شاعت في الأوساط الطلابية خلال مناقشة الميثاق ...

ذهبت نعيمة الى هذا الإجتماع الذى لا يبعد كثيرا عن دار عمها والذي يقع باحدى مدارس الحي ، بهذه الأفكار وهذا الاستعداد ، في حين كان رضا بعيداً عن كل تحمس أو تطرف . هو رجل يزن الأشياء بميزانها ، لا يتشاءم ولا يتفاءل يراقب الأحداث ويحاول التدخل لجعلها في صالح الفكرة التي يعتنقها بكل الوسائل .

بالقرب من المدرسة وقف أستاذ سابق في التعليم الثانوي لرضا وهو رجل محافظ الى درجة أن غلوه في المحافظة خيل اليه أنه تقدمي متطرف ! انه يعتبر نفسه من القلائل الذين بقوا في هذا الوطن يدافعون عن قيمه ولغته وتاريخه . لما رأى رضا مقبلا اعترضه مبديا سروره وهو يقول :

— أنت كنت تلميذي سابقا ، أليس كذلك ؟

— نعم .

— أنت ابن الشيخ علاوه إن لم تخني الذاكرة ؟

— لم تخنك .

ابتسمت نعيمة لرد رضا وبرودته . أضاف الأستاد :

— عائلة طيبة ، عائلة طيبة متدينة ! أبوك من الخيار. رجل صالح .

لم يجب رضا بشيء وانتظر بهدوء ما يريد منه الرجل .

— وهذه البنت التي معك ؟

— هي ابنة عمي .

— ما شاء الله ، ما شاء الله ! لعلني أحرجتك باعتراضي هذا وأسئلتي؟

انني سمحت لنفسي بذلك كأستاذ سابق «وكأب» روحي ... أليس كذلك ؟

قالت نعيمة في نفسها : « ما أركه ! » أما رضا فأجابه بنفس البرودة السابقة :

— ليس كذلك !

أدهش جواب رضا استاذه السابق ، وساله :

— ماذا تقول ؟

— قلت ليس كذلك !

— ليس كذلك . ماذا ؟

— ماذا تريد مني ؟

— لا أريد شيئا يابني . لا أريد شيئا ... انما كأب روحي وأخ في الدين . أحببت أن أنصح لأبنائنا ... إن أوباش الحي كلهم يحضرون ... وهذه البنت التي معك ... أليس كذلك ؟

— ليس كذلك !

ضحكت نعيمة . لم تستطع التحكم في نفسها ، أما رضا فلم يغير شعرة من برودته ولا من لهجته ، وأخذها من يدها ومشيا تاركين الرجل الناصح مبهوتا لا يدري بالضبط ماذا سمع !

قالت نعيمة لرضا وقد ابتعدا عن الرجل :

— يستحق الصفعة ...

— هذا النوع من الناس . مثل «جنرالنا» كما تسميه دليلة . يعيشون في عصر لا يعرفونه . ويدافعون عن عصور لا يعرفونها .

— تعبير جميل !

لكنها بعدما فكرت فيما قاله رضا من كلمات استعدبتها في البداية . شعرت بعدم اقتناعها بها . وقالت :

— ألا تظن أنهم يدافعون عن مصالحهم ليس الا ؟

— هل ما قلته يناقض هذا ؟ انهم يوهمون الشعب ان ماضي العرب لم يكن الا عدلا وأخوة وسلاما وإنهم لا يريدون سوى أحياء تلك القيم والامجاد ...

— ألا تظن انهم مخلصون في زعمهم ؟

— اذا كانوا مخلصين فمعنى هدا بكل بساطة أنهم يجهلون التاريخ الذي يتحدثون عنه . ويجهلون بالتالي هذا الماضي الذي يقدسونه ويدعون الناس الى تقديسه !

— وأنت الا تعتقد أن ماضي الأمة العربية كان مجيدا ؟

— فرق بين المجد والعدل . كل الديكتاتوريات في العالم كانت تبحث عن المجد لكن على حساب العدل ... ثم من قال لك إن ماضي الأمة العربية كان كله مجدا . ؟

لم تجب عن تساؤل ابن عمها . ومضت تفكر فيما سمعته من تضارب حول هذه النقطة . منذ أن التحقت بالجامعة ...

رأت نعيمة وهماداخلان الى المدرسة التي يعقد فيها الاجتماع . ساحة واسعة أقيمت فيها منصة . ونصبت مقاعد الأقسام كما نصبت مكبرات للصوت في عدة جهات . ولكنها لا حظت عددا قليلا من الناس يشغل بعض المقاعد . على خلاف ما كانت تتوقع . أما النساء فلم ترالا أربعا جالسات على دكاء أحد الأقسام . قالت معلقة :

— ظننت أننا نجد الحي كله هنا !

- أتينا مبكرين ... كم الساعة الآن ؟

- السابعة الا عشرين دقيقة !

- الأجتماع مقرر على الساعة السابعة . ثم هناك بعض المخربين الذين يصدون الناس عن حضور الاجتماعات .

- لماذا ؟ أليس الدفاع عن قضية يستدعي بالضبط المشاركة في النقاش ؟

فأجابها وهما يتخذان مقعدا بالقرب من المنصة :

- التغيب أيضا له تأثيره ... أما بالنسبة الينا فنحن نعمل على أن يشارك أكبر عدد ممكن . لأن ما ندافع عنه هو مصلحة الجماهير الكادحة ! ...

اشتمت نعيمة من كلام ابن عمها انتماء معينا . فهده الضمائر التي يستعملها في حديثه وهذا النوع من التعابير يؤكد ذلك : بالنسبة الينا نعمل على أن يشارك ... مصلحة الجماهير ... الخ . لقد سمعت مثل هذا الكلام في اجتماع عقدته لجنة التطوع للثورة الزراعية ! فكرت أن تسأله ثم عدلت عن ذلك . وقدرت أنه لا الوقت ولا المكان يناسب ذلك . ثم إن سؤاله عن انتمائه السياسي بصورة مباشرة لا يلائم لا اللباقة ولا اللياقة . عليها أن تتعرف عليه من خلال مثل هذه الكلمات العابرة التي لا تخفي نفسها ...

استغربت نعيمة أن لم تتعرف عليه طوال هذه المدة التي قضتها بالجزائر لكنها استدركت تقول في نفسها . أن الفرصة لم تتح لها لأن رضا قليل الكلام وقليل المقام بالبيت . ثم ماذا تقول عنها بنات عمها وزوجة عمها ومنى ... هي لم تعرفه قبل اليوم . إنه لا تربطه بأهله

إلا صلة التعايش . ثم إن ميدان السياسة شيء جديد بالنسبة اليها . لولا مخالطتها لبعض الطلبة التقدميين التي فتحت أمامها آفاقا جديدة للحياة ، لبقيت تحيا ولو في الجامعة في أفقها القروي المسدود . لقد جرها هؤلاء الطلبة جرا الى السياسة ، ووجدت في ذلك من بعد امكانية تحقيق بعض أمانيها وأحلامها ...

أخذ الناس يتقاطرون على المدرسة أرسالا ولم تحن الساعة السابعة حتى كان جل المقاعد مشغولا . ورأت نعيمة امرأة متلحفة مقبلة عليها ، فلم تعرفها فقالت لها :

— نسيت بسرعة ... كنا منذ حين مع بعض . أنا ذهبية الدلاكة . أنسيت الحمام ؟

— آ ، هذي أنت ! لم أعرفك ، أقسم لك . أتيت الى الاجتماع أنت كذلك ؟ .

— ولم لا ؟ ألست امرأة ؟ جئت وأجيئ ... وسترين كيف أفضحهم

— من تفضحين ؟

— البورجوازيين والبورجوازيات !

— أي بورجوازيات ؟

— باية — السمينة ، امرأة القهواجي ، امرأة عمك ... أتظنين أشفق عليهن ؟ لا ، لن أشفق على أحد . هذا يوم الفقراء أمثالنا !

ضحكت نعيمة ، وقالت لها :

— باية السمينة أيضا بورجوازية ؟

— أليست هي صاحبة الحمام ؟ هي وامرأة عمك والأخريات ، كلهن سواء ... الحاصل أدعك الآن ، أنا أجلس في الجهة الأخرى مع جارتي هناك .

انصرفت المرأة العاملة . وبقيت نعيمة متعجبة من هذا الجو الذي خلقه الميثاق فأصبح جميع الناس يرون فيه متنفسا لهمومهم . وانتظرت أن يعلق رضا على مادار بينها وبين المرأة من كلام . لكن رضا لاذ بالصمت ، كأنه لم يسمع ولم ير . ففضلت أن لا تحدثه عنها وتركته في صمته . وكان حينئذ قد اتجه الى المنصة خمسة أشخاص من بينهم امرأة . فقال رضا :

— ذاك الرجل الأول البطن هو شيخ البلدية . الذي وراءه مسؤول القسمة . أما المرأة فهي عضوة فرع الاتحاد النسائي المحلي . الاثنان الآخران لا أعرفهما .

— هل يوجد بهذا الحي فرع للاتحاد النسائي ؟ لم أكن أعلم ذلك

تقدم مسؤول القسمة الى الميكرفون . وقال بعد أن حيا الحاضرين :

— أشكركم أيها الاخوة باسم الحزب عن هذه المشاركة الجماعية التي تزداد يوما بعد يوم . بدأنا في قلة من الناس هذه السلسلة من الاجتماعات لشرح المشروع التمهيدي للميثاق الوطني . واليوم ها نحن نرى هذا الجمع الغفير الذي جاء ليبرهن على ولائه لحزب جبهة التحرير وللسلطة الثورية ... إن هذا الاقبال ليعد دليلا على وعي المواطنين ، وعلى دراكهم للمرحلة الحاسمة التي يجتازها الوطن .

علقت نعيمة همسا :

— ترى متى نصل الى المرحلة التي ليست حاسمة في حياتنا !

فأجابها رضا :

— المراحل التي ليست حاسمة في حياتنا هي تاريخنا الطويل قبل ثورة نوفمبر !

لم يرق نعيمة هذا الرد الذي كأنه يستبلهها . وواصل الخطيب كلامه : لا أطيل عليكم كثيرا أيها الاخوة . اليوم الكلمة لكم ليست لي أنا . الكلمة للشعب (علت التصفيقات) فالرجاء منكم اذن ان تستمعوا الى الاخ سي الطيب يواصل شرح نص المشروع امامكم ، لكي يتمكن كل واحد منكم من فهم الموضوع وليبدي رأيه بعد ذلك عن بصيرة . شكرا .

صفق الحاضرون . وقرب سي الطيب الميكرفون اليه بيده اليسرى بينما كانت اليمنى تفتح ملفا امامه . نحم نحما خفيفا يسرح حلقه ، واخرج منديلا مسح به انفه ، وشرع في الشرح :

نواصل أيها الأخوة شرح الباب الثالث وهو الثورة الثقافية . وفي هذا المساء نتكلم عن اللغة الوطنية من جديد ، لأن بعض الاخوان بالأمس لم يفهموا جيدا الموضوع . الامر الذي جعل النقاش في واد والموضوع في واد آخر .

يقول المشروع : إن اللغة العربية عنصر اساسي للهوية الثقافية للشعب الجزائري . ولا يمكن فصل شخصيتنا عن اللغة الوطنية التي تعبر عنها . ولهذا فان تعميم استعمال اللغة الوطنية واتقانها كوسيلة عملية خلاقة . يشكل احدى كبريات المهام للمجتمع الجزائري . للتعبير عن كل مظاهر الثقافة وعن العقيدة الاشتراكية ...

وأخذ الرجل يشرح بالدارجة مستعملا خليطا من العبارات العربية والفرنسية المحرفة ، ليقرب من أفهام الناس المضمون الأساسي للنص . لكن نعيمة احزنها وهي تتخيل سي الطيب كشخصية خرافية ، أوكراوية يروي على الشعب خرافات وأساطير ، لا ميثاقا وطنيا عقائديا

ينظم حياتهم ويقرر مصيرهم ! والذي أحزنها أكثر محاولاته المتعددة لاضحاك الناس بضرب الامثال واستعمال ما جاء على لسانه من عبارات ، مما حول الاجتماع الى مجلس أنس أو سهرة لقتل الوقت ، أكثر منه مجلس جد ، يتقرر فيه وفي أمثاله مصير شعب كامل . وقالت هامسة :

— عيسى ابن هشام في مقامات الحريرى ، أليس هذا محزنا ؟

— عيسى ابن هشام ؟

— ألم تقرأ الحريرى ؟

— انك مخطئة . مادام فرد واحد أمي في الجزائر فسنحتاج دائما الى عيسى ابن هشام لتبليغ الفكرة الاشتراكية ! انظري كيف يتضاحكون ..

— بالضبط لانهم يتضاحكون ... لم يعد اجتماع ميثاق وطني صار مجلس فكاهة !

— ألم يرقك ضحك الناس ؟

— طبعا لم يرقنى . هل هذا محل ضحك ؟

— اذن لم تفهمي شيئا عن الاشتراكية ...

— ماذا تعنى ؟

— ألم تشاركى في التطوع الأسبوعى مع الطلبة ؟

— شاركت . لكن ما القرينة ؟

— ألم تغنوا وأنتم خارجون الى التطوع ؟

— غنينا وصفقنا ، بل ورقصنا في الشاحنات ... أتقيس الذهاب الى التطوع باجتماع سياسي ؟

— لم تكونوا اذن جادين في تطوعكم ، لأنكم كنتم تغنون وترقصون؟

— لماذا لم نكن جادين ؟ ذاك مقام وهذا مقام آخر.

— كنتم جادين لاشك في ذلك . عندما يكون الانسان جادا لا يكون حزينا لأن الحياة الجادة لا تتلاقى مع الحزن والعبوس . إن الاشتراكية أمل وسرور مستمر ليست بكاء ولا حزنا . لذلك فان ضحك هؤلاء لا ينقص من جدهم . انه تجاوب بين هؤلاء العمال الذين يشكلون الكثرة في هذا الاجتماع وبين شارح النص .

لا تنسي أننا في الرابعة عشرة من العمر . فلو لم نشرح مثل هذه النصوص الهامة فكيف تريدين من الناس أن يناصروا الاشتراكية أو يؤيدوها ؟ اننا لو كنا نخوض ثورة ثقافية حقيقية لشرحنا للشعب يوميا وفي كل مكان ، كل الايديولوجيات العالمية . فالاشتراكية علمية ، والعلم لا يبنيه الجهل ...

فكرت نعيمة أن ابن عمها يريد أن يلقي عليها درسا في مكان لا يتسع له . ولكنها لم ترد جرح شعوره فتركته يبدي رأيه بما شاء من تفاصيل ، فلم يكن الذي يجري في الاجتماع يهمها ، لأن سي « الطيب » كان مستمرا في شرحه فواصل رضا قائلا :

— ان الشعب الجاهل لا يبني اشتراكية ولا اقتصادا صحيحا . انما يبني الجوع والخراب . اذا كان الجوع والخراب يبنيان !

واصلت نعيمة الاستماع ، وحاولت أن لا تظهر بمظهر المتضايقة منه فسألها :

— ألا توافقين على ما ذكرت ؟

— أقول لك صراحة ينبغي لي وقت لهضم هذه الافكار ! أنا من الريف وذهني لا يسير بالسرعة التي يسير بها ذهنك .

— لا تسخري .

لا أسخر . ذلك هو الحق .

وحاولت نعيمة أن تراقب الشارح ومستمعيه بوجهة نظر ابن عمها . فلاحظت فعلا تجاوبا بين «عيسى ابن هشام» كما سمته وبين الحاضرين . وأدارت في رأسها مرات كلام رضا فوجدته في نهاية الامر مصيبا . ليس هناك من بديل للشرح . كل شيء له ابجديته . وابجدية الثورة هي فهمها .

وبدون فهم فالشعب يعيش متنعما في قصور من الوهم تفوق قصور ألف ليلة وليلة .

انتهى سي الطيب من شرح النص فطلب الكلمة أحد الحاضرين . وكان يبدو من سحنته أنه عامل . طال به أمد العمل فصير وجهه تجعيدات وخطوطا في كل اتجاه . فقال :

— أنا أترك الحديث عن اللغة للذين يعرفون . أنا أريد أن أتكلم عن موضوع آخر... أنا عامل بالمرسى . مضى علي في هدا العمل ثلاثون سنة الا ثلاثة أشهر ! لي خمسة أولاد . لا أتحدث عنهم ولا على عملهم . ذلك امر لا يهم أحدا هنا . أما بخصوص الثورة التحريرية فلم أخن ولم « أتعاون » ... والدليل ؟ هو وجودي هنا ! (ضحك بعض الحاضرين) لكنني أقول لكم عن أيام الثورة شيئا واحدا : أنا أحد الدين نجوا من حادث المرسى الذين سمعتم عنه الكثير...
فقاطعه احد المسؤولين عن الاجتماع :

— من فضلك ادخل في الموضوع . هناك كثير من الاخوان ينتظرون أخذ الكلمة .

فرد الرجل قائلا :

— هل قلت شيئا خارجا عن الموضوع ؟ دعني أتم حديثي ثم انظر اذا كنت خرجت عن الموضوع ! قلت إن هذه المدة الطويلة التي قضيتها عاملا بالمرسى جعلتني أعرف البواخر وحمولاتها بمجرد اشرافها على المرسى .

أعرف باخرة الموز ، وباخرة اللوز ، وباخرة الزبيب ، وباخرة الأجبان وباخرة العين وباخرة اللحوم ... ومنذ الاستقلال الى اليوم دخلت خيرات لا تحصى ، ومازالت تدخل ... لكن عندما أنتهى من عملى وأخرج ، وأقول في نفسي اليوم أشترى لأولادى ما جاءت به تلك الباخرة أو تلك فلا أجد شيئا ! في البداية ظننتني وحدى الذي لم يسعفني الحظ ، ولما أسأل رفاقى العمال بالنهار والجيران بالمساء أجدهم مثلى ، لم يروا شيئا ! ثم علمت ان الشعب كله مثلنا . يعلم ولكن لم ينل شيئا ! ثم علمت أن الذي تذهب الى تلك الخيرات هو الذي لا يعلم مثلنا بمجيئها ، تذهب اليه تدق الباب وتدخل في سترها ... (تصفيقات) ثم علمت أن تلك الخيرات اذا كانت أكثر من حاجة الذين لا يعلمون بها تباع جملة لأصحاب الجملة ! (تصفيقات) أغضب وأصرخ وأصيح : هذا منكر ! هذا حرام ! هذا لا يليق ببلد ضحى ليعيش أبناؤه متساوين ، هذا لا يليق ببلد يقول انه اشتراكي ... فتنهاني زوجتي :

يا رجل ، أنت تريد أن تدع أولادك ضائعين في الطرقات ؟ اسكت ! أتساءل لماذا فقط ؟ لأننا في شهر الحرية وشهر العمال ... والسلام .

عاد الرجل الى مكانه وارتفعت همهمة الحاضرين ، هذا يناصر وهذا يعارض واذا برجل يقوم في تؤدة وجلال كخطيب الجمعة . ولما

يصل الى الميكرفون يخرج ورقة من جيبه ، ينظر فيها لحظات ، ثم يلتفت يمينا وشمالا فيبتسم لبعض من يعرفهم . ثم يجرب الميكرفون بضربات خفيفة عليه . ويقول :

— أنا أقترح أن تعدل الفقرة المتعلقة بلغتنا كما يلي : بعد قول المشروع أن الخيار بين اللغة العربية واللغة الأجنبية أمر غير وارد البتة ولا رجعة في ذلك ... بعد ذلك يلغى كل الباقي المتعلق باللغة الى فصل التربية ، ويضاف هذا : وبناء على ذلك فانه بعد التصويت على مشروع الميثاق الوطني واعتماده دستوريا من طرف الشعب ، يصبح استعمال اللغة العربية اجباريا في كل المؤسسات والقطاعات العامة والخاصة ، سواء منها الاقتصادية والثقافية والادارية أو التربوية بجميع فروعها والسلام .

يصفق عليه بعض الحاضرين تصفيقا حادا ، ويقوم الأستاذ الذي اعترض رضا في الطريق وشخص آخر يلاقيان الرجل الذي كان كما يظهر من مشيته في حالة اغتباط ونشوة عالية . ويجلسون ويتبادلون التهاني !

على اثر ذلك قام رجل آخر يطلب الكلمة وهو في حالة المستعجل الذي يخشى أن يقع التصديق على ما قاله من تقدمه ويفوته ما يريد . فقال :

— اذا تقرر استعمال العربية بعد اعتماد الميثاق ، فما هو مصير أبنائنا الذين لا يعرفون العربية ؟ طبعا كلنا نحب لغتنا ما في ذلك شك ، ولكن هؤلاء الذين لم يتعلموا سوى الفرنسية كيف نفعل لهم ؟

قام الرجل الذي كان يتكلم من قبل ليرد عليه . فرأى أحد المسؤولين على الاجتماع أن لا يعطى له الكلمة ، لكن مسؤولا آخر

بجانبه لاحظ له أن الغاية من الاجتماع هي بالضبط الوصول الى اثارة النقاش ، النقاش الحاد حول كل النقط ... ذلك وحده الذي يجلب الناس لحضور الاجتماعات . فأعطيت الكلمة من جديد للرجل فقال :

لقد حيل بيننا وبين لغتنا مائة واثنتين وثلاثين سنة ، بدون ان أعد سنوات الاستقلال الى الآن ، فلماذا لم يسأل أحد عن حالنا نحن الذين لا نحسن سوى العربية ؟

قام رجل في الطرف الآخر ورد عليه من مكانه دون أن يطلب الكلمة : لم يسأل أحد ؟ تقول هذا أنت المثقف ... فلماذا قامت ثورة نوفمبر اذن ؟ لقد سأل شعب كامل عن تلك الحالة ؟ وأي سؤال ! إن الرجل سأل عن وضعية موجودة بالفعل ... هناك جزائريون لظروف معينة ، لم يتعلموا العربية ، فلو طبق اقتراحك من الغد ، ماذا يفعلون ؟

— ما عليهم سوى تعلم العربية ، اذا أرادوا أن يعيشوا في بلد عربي !

وعلا تصفيق أنصار هذا الاخير ... وتدخل المسؤول موضحا أن الميثاق لا يتحدث عن ادخال العربية في كل الميادين طفرة واحدة ، بل لا بد من مراعاة ظروف وشروط النجاح .

على أن تعلم العربية ليس واجبا فقط ، ولكنه أمر تقتضيه كرامة المواطنة ... ثم ان الجزائر لا تستغني عن كل طاقاتها الحية ، مهما كان نوع اللغة التي يحسنها المواطن . ان عشرات المتعاونين من الاصدقاء والاخوان في الجزائر وهم لا يحسنون العربية ، ومع ذلك لم تستغن الجزائر عن مساعداتهم وتعاونهم فضلا عن أبنائها » .

لكن أحد المتسائلين عن مصير أصحاب الفرنسية لم يقتنع بالجزء الاخير من كلام المسؤول فرد عليه :

– المتعاونون لهم اختصاصات معينة ، لذلك لا تستغني عنهم الجزائر في الظروف الحالية . أما المواطنون الذين نحن نتحدث عنهم فيهم من لا اختصاص له ولا ثقافة عالية وهم الاغلبية .

لم تقف القضية عند هذا الحد ، اذ قام رجل آخر في حوالي الاربعين من العمر فطلب الكلمة فقال :

كل عاقل يؤيد طريقة المعالجة التي يرتئيها مشروع الميثاق لقضية اللغة . انما يبدو لي ان هناك تشديدا في الالحاح على عدم استعمال اللغة العربية كما هي . إن هذه التحذيرات المتتالية تشجع أعداء العربية في استغلال الموقف ومحاولة ابقائها دائما في وضعها المتأخر . صحيح ، أن اللغة العربية تعيش بمنطق وبنيات البصرة والكوفة ، وأنها لم تتقدم تقدما حقيقيا منذ القرن الثاني عشر الميلادي . وهذا لا يعنى أن اللغة العربية في حد ذاتها غير قابلة للتطور والتقدم . فقد أثبتت في عهودها الزاهرة ، ابتداء من عهد المأمون على الخصوص ، قدرتها العجيبة على تمثل ثقافات وعلوم اليونان والفرس والهند والروم ... وانما ما أعنيه هو أنه لا يمكن أن تتقدم لغة وأمتها متأخرة . فتقدم اللغة وتطورها مرهون بتقدم وتطور الأمة العربية نفسها . ونحن اليوم في العالم العربي ، نحيا في حضارة لم نشارك في صنعها منذ ثمانية قرون ، ان استعمالنا للغة العربية أوعدم الاستعمال لا يخرجنا من هذا الاغتراب والاستلاب الذي نحن فيه . اننا نحيا في محيط أجنبي عن لغتنا وتصورنا للكون والانسان ..

فالطريق الصحيح اذن للعربية هو التعلّم الصحيح الذي يعتمد المناهج البيداغوجية الحديثة ، مع العناية الكبرى إن لم أقل الكلية بالعلوم وتطبيقاتها التكنولوجية ، وجعلها على رأس المواد التعليمية . إن حضارة عصرنا مخيفة ورهيبة بالنسبة للشعوب التي في مستوانا ، لانها حضارة تعتمد أساسا على العلم والتكنولوجيا ، أي التطبيقات العلمية . فكل ساعة نضيعها تضاعف من ابعادنا عن عصرنا ، لأن العلوم تتقدم تقدما مذهلا . سواء من حيث السرعة او الكم والكيف . واذا لم نفعل فإننا ندور في حلقة مفرغة الى الأبد .

رأيي باختصار ، هو أن نفرض بشكل جدي تعلم العربية ، لا كمادة مقررة في الامتحانات ... أما استعمالها فينبغي أن لا يكون تعميمياً ولا طفروياً . لابد من ضبط خطة تأخذ بعين الاعتبار زمان ومكان التطبيق ، كما يرتئي المشروع أعنى المراحل والقطاعات . ولعله من حسن حظ الجزائر أن تكون في متناولها لغة متطورة . تعبر عن أفكارها وتصوراتها هي ...

قام الرجل الاول معترضا بشدة :

— ماذا تعنى ؟ تعني أن الجزائر محظوظة اذ يتكلم ابناؤها الفرنسية ؟

لم يخرج الرجل عن هدونه . ولا أثارته هده الطريقة الهجومية التي استعملها الرجل . كأنه يعرفه أو هو على علم بهذا النوع من الناس الذين يسيئون الى العربية في اعتقاده . من حيث لا يشعرون . ومضى يقول بكل هدوء :

— انه من حسن الحظ أن يتكلم بالفرنسية في الجزائر أبناؤها الذين كافحوا من أجل تحريرها . ويناضلون اليوم من أجل بنائها الى جانب

اخوانهم المثقفين بالعربية . إنها فرصة تاريخية فذة متاحة ، فاذا أحسنا استغلالها كما أحسن استغلال لغتنا وحضارتنا في ظرف تاريخي معروف فاننا لا نعيد إلى العربية مكانتها فقط ، بل نصل بها إلى مستوى حضاري معاصر لم تصل بها اليه جهود قرون وقرون . ذلك ، لأننا نطورها من الداخل تطويرا يجعلها باستمرار في حالة مخاض وولادة جديدة . هذا الاستغلال يتمثل في إنشاء بنيات للتواصل والتفاعل بين اللغتين طوال هذه المرحلة الانتقالية . إننا من غير شك سنكلف أنفسنا أعباء جديدة بشرية ، مالية ، مادية ... ولكننا في نهاية المطاف ننتهى بأنفسنا وجدانيا وقوميا وحضاريا الى المستوى الحضاري المعاصر الصحيح لا المزيف . إن مثل هذا التواصل والتفاعل بين اللغتين يضمن انسجام تقدمنا ، ويضمن في نفس الوقت الانسجام بين مختلف الطاقات البشرية المتوفرة لدينا ، ويوفر كل الظروف اللازمة للتقدم بلغتنا الى مستوى الابداع في العلم والتكنولوجيا .

قام شخص بعيد يذكر الناس بأن العربية هي لغة القرآن . فقال الرجل بابتسام :

— وهل نحن قلنا لغة أبي جهل ؟

ضحك رضا وصفق مع بعض من صفقوا خفيفا . أما نعيمة فوقفت دون ان تشعر تصفق بحدة . جذبها رضا من فستانها يدعوها للجلوس . اخذ يتبلور الاجتماع بين أنصار العربية عاطفيا وانصارها فكريا ، وأعدائها . وقام رجل يناصر تطبيق العربية في الحال :

— انه وهم تريدون القاءه في ذهن الشعب بأن اللغة العربية غير قادرة على استيعاب الحضارة المعاصرة . ولو شئت لضربت عشرات

الأمثلة التي تكذب هذا الزعم . إن العربية قادرة على تسيير شؤون الدولة وقطاعاتها المختلفة لا أستشهد بمصر وسوريا ولا بغيرهما من الأقطار العربية البعيدة عن الجزائر جغرافيا ، أستشهد فقط بليبيا ... لقد عربت كل شيء . فلماذا لم تجد هذا العناء وهذه العراقيل والمشاكل وهي تسير أمورها بالعربية ؟ إن ابقاء العربية في عزلة عن الحياة العامة لا يطورها وانما يميتها ميتة تدريجية محققة .

فرد الرجل باتزان ، محاولا أن لا يقع في الشرك الذي نصبه له الرجل بأن يجعله مثلا يهاجم تأخر البلاد العربية وبذلك يفقد تدخله كل أهمية وكل قيمة ... فقال :

— لا تخف أحب ليبيا بالاقل كما تحبها أنت ، وأحب كل البلدان العربية الشقيقة لكن أود أن الاحظ أن ليبيا أو أي بلد عربي آخر لم تعرف وضعية الجزائر ، وليس فيها المثقفون باللغة الأجنبية هم الأغلبية ...

فقال الرجل :

في هذه البلدان أيضا عدد كبير من المثقفين باللغات الأجنبية .

فواصل الرجل حديثه :

— وضعية الجزائر اذن شاذة لظروف تاريخية معروفة . فلو كنا كالبلدان الأخرى المثقف فيها مثقف بلغته ، حتى ولو عرف لغات أخرى لما كانت هناك مشكلة بالمرة لكنا من أول استقلالنا كالفيتنام مثلا ، استعملنا العربية . لكننا لسوء الحظ لسنا كأي بلد من البلدان التي كانت مستعمرة ...

هل للجزائر أن توقف كل مؤسساتها حتى تعد العدد الكافي من المتعلمين بالعربية لتسييرها ؟ ان مثل هذا التفكير لا يرد على ذهن عاقل انني أتخيل أن الذين يطالبون بالتعريب الفوري يمكن أيضا أن يطالبوا بان ترسل الجزائر سفنا فضائية مثل الاتحاد السوفييتي وأمريكا ! ولم لا ؟ اذا كان لنا الخيار أن نعمل مانحب أو لا نعمل ؟

لاحظ رضا لنعيمة ، أن الرجل أخذ يغْي . فنهض أستاذ رضا السابق ليقول :

— إنه أفضل لنا أن نبقى متأخرين في لغتنا على أن نكون متقدمين في لغة الغير !

فرد عليه الرجل مبتسما :

— ليسمح لي الاستاذ أن أذكره ببعض الحقائق ، لقد كانت لغةالجزائر قبل سنة 1830 هي العربية . وكنا أحرارا مستقلين . ولكن كنا متأخرين . فاحتلت أرضنا ، ولم يجد كفاحنا ولا شجاعتنا ، لاننا كنا نواجه العدو بشجاعة قلوبنا ، في حين كانت الشجاعة في أوربا قد تحولت من القلوب الى المصانع ... احتلت أرضنا كما قلت وسلبت منا حريتنا ، وحرمت لغتنا تحريما كليا . ان الشعب المتأخر لا يفقد فقط لغته ، بل يفقد حتى كيانه . ان ما قاله الاستاذ يستلزم أن نعيش على الكرة الارضية وحدنا . وعندئذ تفقد كل الكلمات مدلولاتها . فلا يصبح للتأخر ولا للتقدم معنى ! ان التفكير بهذه الصورة خطير في نفسه وأشد خطرا اذا كان من أستاذ . وأريد ، مادام أنني وصلت الى هذا الحد ، أن أقول : ان الصراع الحقيقي في الجزائر اليوم ، ليس بين أنصار العربية وغيرهم ، ان الصراع

الحقيقي هو بين الرجعية والتقدمية ، بين الاقطاعيين والبورجوازيين ومن والاهم وبين الاشتراكيين . ثم إن الذي يدعى أنه يخدم مصلحة الجزائر وحده دون الآخرين هو ديكتاتور. فالسلوك الديكتاتوري وحده هو الذي يبرر الانانية بهذا الحجم !

علت ضجة كبرى بين الحاضرين ، هذا يؤيد وهذا يعارض . ولم يتمكن المسؤولون عن الاجتماع من إعادة الجو الى ماكان عليه الا بصعوبة .

علقت نعيمة على تدخل الرجل بحماس :

— لقد حطم الرجعيين !

فأجابها رضا كالمتأسف :

— لم يحطم شيئا ، الجزء الاخير من كلامه لا دخل له في الموضوع ..

تعجبت نعيمة من تفكير ابن عمها وقالت :

— كيف ، ألا ترضيك مهاجمة الرجعيين ؟

الدفاع عن القضايا الهامة لا يحتاج الى البهلوانيات ولا الخلط بين المواضيع .

— لم أفهمك ، ألم يعجبك ما قاله بخصوص العربية ؟

— ان التحليل الموضوعي للمشاكل المطروحة يقتضي التجرد والضبط . ليس صحيحا قوله أن لا وجود لمن يعادي العربية . هناك فعلا فيئة تتصور العربية على أنها لغة الجهل والرمال ، لا تتسع للحياة الحضارية المعاصرة ويتصورون أن كل مثقف بالعربية ما هو الا محفظ قرءان في أحد الكتاتيب ، ما هو الا « طالب » كما يسمونه !

— أنا أعرف أستاذا في الجامعة أشد تخلفا مني حضاريا !

تبسم رضا وقال :

— انك حسنة الحظ من غير شك اذا كنت تعرفين أستاذا واحدا... ان ذلك بالضبط هو ما نخشاه : أن يكون الحكم على المثقفين بالعربية وعلى العربية نفسها منطلقا من ملاحظة التخلف الحضاري والفكري لبعض المثقفين عندنا بالعربية !

— مثلي !

— الحديث لا يتعلق بك ولا بكل من هو في سنك . بالنسبة الى النشأ الجديد القضية غير مطروحة بهذه الصورة ...

هما كذلك واذا بشخص متوسط العمر يلبس قميصا بلا أكمام ، يمسك بنظارة شمس كان رافعا أصبعه منذ حين ، قام ليعبر بدوره عن رأيه :

— ربما وافقت الأخ الذي كان قبلي الى حد ما ، ولكني أتساءل فقط : أليست مواصلة التعليم بالفرنسية هي نوع من الابقاء لهيمنة الأجنبية ، وتثبيت لشخصية المحتل الثقافية ، بطريقة لم يتفطن اليها حتى غلاة الاستعمار. ؟

إن اللغة هي المقوم الأول للشخصية الثقافية ، فاذا كان استعمال الفرنسية في الادارة تبرره المصالح المستعجلة والعاجلة ، فان استعمالها في التربية والتعليم لا يشكل حالة مرحلية وانما يشكل حالة تراكمية للثقافية الأجنبية عندنا ، ويشكل من جهة أخرى استمرارا ومواصلة لضرب الثقافة العربية ومحوها بصورة أنجع من المحو الاستعماري . لأن ذلك اعتمد القهر والتحريم والطمس لمعالم الجزائر التاريخية

والسياسية والثقافية . أما استعمالنا نحن للفرنسية فهو يهدف لاحياء هذه المعالم وتثبيتها في أذهان أبنائنا ! فينتج عن ذلك احدى الحالات التالية :

إما التبعية الثقافية المطلقة مع ما يترتب عليها من اغتراب ومركبات . واما الانفصام في الشخصية ومعاداة أهم عناصر الشخصية القومية والثقافية وهو اللغة .

وأصير أنا المثقف بالفرنسية الذي نشأت في الاستقلال أعتبر ماضي مجيدا وأمتي عظيمة ، ولكن لغتي لم تكن في المستوى لتضع اصبعي على مواطن المجد ومواقف العظمة ... وهناك حالة أخرى وهي ضرب كلتا الثقافتين العربية والفرنسية معا ومحاولة البحث عن بديل ... وهذه الحالات كلها لا يستحقها شعب ضحى كثيرا من أجل بناء انسان جديد ومجتمع جديد !

وألاحظ في النهاية بأني أقول هذا وأنا لست من اعداء الفرنسية ولا أي لغة اخرى ، بل أكن لكل اللغات ما تستحقه من احترام . انما أريد قبل أن أكون غيري أن أكون أنا أولا .

قام الرجل الذي كان يتكلم مرة أخرى ليوضح رأيه في الموضوع وقال :

— أرجو الكلمة لآخر مرة ، لا لأجادل ولا حتى لأجيب ، وانما لأبدي ملاحظة : لا أرى بين ماقلته وبين ماقاله الأخ خلافا في المرمي . انما المرحلية في حياتنا الثقافية لابد منها . لسنا نتوفر على كل الأطر وفي كل الميادين . ان السوق الوحيدة التي نستورد منها المعلم والأستاذ ، وليسمح لي بهذا التعبير ، هي البلدان العربية الشقيقة . وهي ، اذا أردنا

أن نكون واقعيين متجردين من العاطفيات وكل ديما غوجية ، ليست بأبعد منا شأوا في المستوى الحضاري العام ولا المستوى الثقافي . إن المراجع التي يعود اليها الطلبة في نهاية الامر ،لو تعلموا كل المواد بالعربية هي إما مترجمة عن لغة أجنبية فيدرسونها في تلك الترجمات ، واما أنها في لغتها الأصلية فيجدون أنفسهم مضطرين لتعلم لغة أجنبية أوأكثر للقيام ببحوثهم ودراساتهم .

فالاغتراب موجود على كل حال . لأننا شعب متخلف علميا ... هذه هي الحقيقة . ثم أكرر كلامي بخصوص العربية : أنا أدعوا الى اجبارية اللغة العربية في كل مراحل التعليم . وهكذا تنسجم مرحلية اللغة الأجنبية مع الشخصية الثقافية ، بكلمة : انى انظر الى الموضوع في إطار التصور العام للمجتمع الجزائري المقبل كما يرتئيه الميثاق .

لاحظ رضا قائلا :

— لحسن حظ العربية أن لا يدافع عنها سوى الأغبياء !

— ألم يقل نفس ما قاله الآخر؟

— اقرئى غدا في الجرائد كل ما قيل ، وحاولي أن تستخلصى رأيا .

— لكن هل صحيح ما قلته بأن هناك من يكره العربية ؟

قبل أن يجيبها رضا قامت عاملة الحمام . فقالت :

— أنا جئت لأعرف متى تؤمم الحمامات ؟

ضحك الحاضرون لكن المرأة لم يمنعها ذلك من مواصلة حديثها بكل حزم :

— ... لأنه من غير المعقول أن تؤمم الأراضي ولا تؤمم الحمامات . إنهم أغنياء يستغلون العمال مثل الاقطاعيين الآخرين .

وعادت الى مجلسها . فقام رجل يطلب الكلمة فقال :

— أنا ليس لي ما أقوله عن اللغة . نحن أفراد الشعب نتكلم لغتنا العربية الدارجة كما هي ونتفاهم . ليس لنا مشكلة في هذا الموضوع . لكن أريد أن أسأل لماذا لا تحاسب الدولة أولئك الذين كانوا عند الاستقلال لا يملكون شيئا وأصبحوا اليوم يبنون الفيلات بمآت الملايين ، ويملكون أنواعا من السيارات ، ويأتيهم من الخارج كل ما يحتاجون ؟ اذا كنا نبني الاشتراكية ينبغي أن يحاسب الناس بلا فرق . هذا ما أردت أن أقول والسلام عليكم .

فصاح أحد : لم نأت الى هنا لاتهام الناس ، جئنا للميثاق ... فرد عليه أحد المسيرين للاجتماع :

— كل من أراد أن يقول شيئا له ذلك . حرية التعبير مضمونة في هذا الشهر للجميع . لكن من فضلكم من يريد أن يتكلم يرفع أصبعه ، ويتكلم عندما تعطى له الكلمة . والا صارت فوضى اذا كان كل واحد يتكلم كما يشاء . بارك الله فيكم .

ابتسم رضا وهو يسمع الى كلام المسير ، فسألته نعيمة :

— مايضحكك ؟
— لاشيء .
— عندما تكلم عن حرية التعبير ؟ إنه غبي ...
— غبي أو ذكي ...

فعاد الرجل المتهم الى الكلام وهو يقول :

— عندي قائمة بأسماء من أشرت اليهم من الذين كانوا عند

الاستقلال لا يملكون شيئا . وأنا مستعد لاعطائها للحكومة ، ولكن هنا امام الشعب !

علت الهتافات والتصفيقات من عدة جهات . كما علت صراخات واحتجاجات وشتائم من ناحية أخرى . ففكر رضا أن الجو لم يعد صالحا للنقاش المجدي ، وأن التدخلات الهامة انتهت . فقال لنعيمة :

— ماذا تريدين،أنبقى أم أنصرف ؟ إن الجو لم يعد ملائما ...

— كما تشاء . على كل إن هذا الاجتماع كان هاما بالنسبة الى دلني على شيء لم أكن أعرفه ...

— ماهو هذا الشيء ؟

— إن الناس لا يخافون ...

— طبعا لا يخافون !

— لم اكن أعرف هذا .

— لا يخافون أكثر مما سمعت وشاهدت ... انما يمهلون . أننصرف ؟

— اذا شئت .

وخرجا من الاجتماع ، وكانت نعيمة في حالة من الانبهار تفوق الوصف ! انها شعرت أن الجزائر مقبلة على تحول لم يكن في الحسبان !

* * *

- 7 -

المساء جمع الأسرة في الصالون كما تعود أن يجمعها منذ شهر سبتمبر 1962 وهو الشهر الذي انتقل فيه الشيخ علاوة بأسرته الى هذه الفيلا ، التي كان يسميها صاحبها الأوربـي « الربيع » .

كان هذا الصالون يشتمل على قاعتين واحدة للجلوس وأخرى للأكل ، لكن الشيخ علاوة فضل أن يجعل قاعة الأكل في حجرة مستقلة ، وأمر بضم القاعة المخصصة للأكل الى الصالون .

لم تكن العائلة بهذا العدد الذي هي عليه اليوم . عُمر الابن الأكبر كان عين مديرا لاحدى الثانويات بقسنطينة . مراد كان ذهب الى باريس للدراسة . كانت تلك سنته الأولى بالطب . اليامنة زفت عروسا منذ شهر . فلم تكن تضم الفيلا « الربيع » من أفراد الأسرة الا الشيخ علاوة وزوجته العجوز كلثوم ، والبنات : زبيدة البنت الكبرى والتي كانت في الرابعة والعشرين ، ودليلة التي كانت تبلغ ثماني سنوات ، وهالة سنتين . ورضا أربع عشرة سنة .

وزع الشيخ علاوة حجرات الفيلا على أفراد أسرته كما يلي : حجرة له هو وزوجته والبنت الصغرى هالة . حجرة الى رضا ، حجرة الى زبيدة ودليلة ، حجرة تركت شاغرة لعمر اذا رجع من قسنطينة . على أنها في غيابه تستعمل للطوارىء .

أثاث الصالون لم يكن من فن واحد ، الموائد الخشبية المنقوشة من تلمسان ، المتكآت من سوريا ، وكذلك المناضد العالية المطعمة بالعاج ، التي توضع بين المتكآت . السرر الخشبية المنقوشة كانت من فن مغربي . الصناديق التي وضعت بالجهات الأربع للصالون ، لتعطي بعدا للمقاعد عن بعضها من فن جزائري . فوق كل صندوق علق بالحائط سيفان متقاطعان من السيوف القديمة ، فيها الجزائرى وفيها الأوربي . كما علقت في أماكن اخرى من حيوط الصالون صور بألوان فاتحة مستوحاة من الأساطير العربية . فوق السرير الذي يجلس عليه الشيخ علاوة علقت صورة تمثل الامام علي بن أبي طالب جالسا والى اليمين وقف الحسن والى اليسار الحسين . فوق السرير الذي تجلس عليه العجوز كلثوم علقت صورة تمثل ابراهيم الخليل وهو يستعد لذبح ابنه بينما أقبل عليه ملك بكبش فداء . فوق مقعد عمر علقت صورة تمثل فارسا عربيا في مبارزة مع جندي من جيش الروم ، قطعت ساقه فحملها باليسرى وسيفه باليمني وهو في حالة هجوم على الجندي الرومي !

سألت نعيمة ذات يوم رضا عن هذه الصورة وعن صورة أخرى بالصالون تمثل رجلا عربيا من الماضي السحيق يضرب وسادة بسيف خشبي ، وكانت حينئذ ماتزال جديدة لم يمض على مجيئها الى الجزائر شهر ، فأجابها رضا بأنه لا يعرف بالضبط القصص المستمدة منها هذه الصور ، وانها من غير شك نوع من الفلكلور الشعبي في الرسم ، فسمع الشيخ علاوة ذلك فأغضبه وقال : اذن أثاث هذا الصالون عبارة عن فلكلور ؟ ان جهل الماضي من طرف هذا الجيل يجعل كل تراثنا فلكلورا ! ولقد حاول رضا أن يقنعه بأن الفلكلور بمعناه الصحيح

هو الفنون الشعبية ، وليس في ذلك ما يغضب ... لكن الشيخ علاوة فهم تعليق رضا بالمعنى الشائع الآن بين الناس الذي لا يخلو من استخفاف وسخرية . وأخبر نعيمة بقضية الصور ، فقال لها : انها صور مستمدة من التاريخ ، تاريخ أمتنا المجيد ، ليس فلكلورا . صورة البطل الذي يهاجم الجندي الرومي بسيفه ورجله المقطوعة تحكي بشيء من التحريف قصة حكيم بن جبلة العبدى الذي نقض قومه العهد الذي أمضوه مع الزبير وطلحة ، فخرج لهم طلحة في قوم من أصحابه فقتل منهم أكثر من سبعين رجلا . وكان حكيم أبلى بلاء حسنا ، عظم الرواة والقصاص من شأنه فقالوا ان رجلا من أصحاب طلحة ضربه ضربة قطعت رجله ، فحبا حكيم حتى أخذ رجله المقطوعة فرمى بها من ضربه فصرعه ، وجعل يقول راجزا :

«يانفس لا تراعي ان قطعوا كراعي ان معى ذراعي .»

هذه هي قصة الصورة ، أما الثانية التي تمثل الرجل الذي يضرب يسيفه الخشبي الوسادة ، فهو أن معاوية بن أبى سفيان أرسل بشر بن أرطاة ، وهو رجل قاسي القلب جافي الطبع من قريش ، الى بلاد العرب ، وأوصاه أن يقسو على أهل البادية من شيعة على بن أبى طالب ، حتى يملأ قلوبهم ذعرا . فأنفذ أمر معاوية مسرفا الى أقسى غايات الاسراف ، حتى ذبح ابنى عبد الله بن عباس ، وكانا صبيين ! ولما تقدمت به السن جن فجعل يهذي بالسيف لا يطمئن الا اذا أعمله فأكثر ، فاتخذوا له سيفا من خشب ووسائد يقربونها اليه ..

ويضيف الشيخ علاوة ضاحكا : هذا هو «دون كيشوط» العرب ، ولكنه حقيقي . ان كل ما ترونه عند الغرب أخذوه عنا !

فوق مقعد البنات علقت صورة تمثل سيدي عبد الرحمن الثعالبي والى جانبه سبع ! وكل هذه الصور الأسطورية من الرسم الجزائري القديم .

ان الشيخ علاوة يفضل هذه الصور على اللوحات الزيتية المعتبرة . لأنها كما يقول ، مستوحاة من ماضينا !

والواقع أنها في هذا الصالون وجدت مكانها الصحيح . فلم تبد ناشزة ولا سخيفة . وكان الذي صنع أطرها الخشبية المنقوشة هو : صالح أبو نعيمة المجاهد نقشها عندما كان مولعا بهذا الفن قبل ثورة نوفمبر .

قبالة الباب علق مصحف حائطي ، بينما بثت في أماكن من الصّالون تحف وآيات وطرر .

باختصار ، كان ما بهذا الصالون منسجما مع غيره وهو مادعا رضا للكتابة على بابه : متحف !

ان الشيخ علاوة وكذلك الى حد ما عجوزه ، كانا يريان في تأثيث الصالون بهذه النماذج الفنية العربية في أغلبها تجسيما رمزيا لبعض معالم الماضي . أما الأولاد فكانوا يرون فيها ندرة وسذاجة لا تخلو من فن . باستثناء رضا الذي يرى في الصالون متحفا بلا تحف ، ودليلة التي لا يهمها اطلاقا في الطريقة التي تؤثث بها الغرف والصالون ، مادامت تجد مكانا للجلوس أو النوم . وباستثناء زبيدة كذلك التي التي كان طول مكثها بالبيت جعل كل شيء فيه بالنسبة اليها يمثل « سجنا » .

جلس الشيخ علاوة في مكانه من الصالون بلباسه «الرسمي» كعادته . هو بغرفته فقط الذي يسمح لنفسه أن يلبس اللباس الخفيف الداخلي : عباءة وعرقية من كتان . أما بغير هذا المكان فهو دائما في حالة رسمية ! والصالون في نظره لا يختلف عن الأماكن الرسمية الأخرى ولا سيما أنه يعتقد أن السيطرة على أولاده تستلزم هذا النوع من المظاهر. أليست المظاهر في النهاية هي الوجه الخارجي للحياة !

هكذا يتساءل دائما عندما يتكلم عن المظاهر بحضوره . انه يعز من بين سائر أبنائه عمر لأنه أيضا رجل مظاهر . ويقول : انه في المحافظة على المظاهر مثلي ، أما في الارادة فمراد هو الذي يشبهني . واذا سئل عن رضا فيجيب : ما الشجرة التي لا يجوح بعض ثمرها ؟

ولباس الشيخ علاوة الرسمي يتمثل في بدلة عربية مطروزة من النوع الرفيع الثمين لما يقتضيه التطريز من وقت وخبرة . وله عدة بدلات للشتاء وللصيف ، وعمامة صفراء حريرية يشدها على طربوش ، على طريقة لباس علماء الدين الجزائريين ، وعباءة حريرية أو «قمراية» أو من قماش جيد على كل حال . والعباءة التي يلبسها الليلة هي قمراية تونسية من النوع الجيد .

طبعا لم يكن أحد يدري بحاله اليوم ، ولا ما جرى له . حتى زوجته العجوز قرر أن لا يخبرها بقضية الرسالة المرسلة الى نعيمة . فضل أن يتريث وينظر في الموضوع بفكره ، لا بعاطفته ، فهو في نظره من أخطر المشاكل التي واجهته لحد الآن . لو علم أخوه المجاهد بما وقع ، لما سلك الى الحل ألف طريق ، لكان الطريق الوحيد هو قتل نعيمة بعد أن يعرف الجاني ليقتله بدوره . .

هكذا يتصور الشيخ علاوة على كل حال رد فعل أخيه . ومعنى هذا في نهاية الأمر أن أخاه العزيز سيصبح في نظر القانون مجرما ومسجونا ، وستصبح عائلة بن خليل كلها ملطخة بالعار ، عار الزنا ، وعار السجن ! اذن لابد من التريث حتى يتضح الطريق السوى الذى يؤدي الى حل المشكلة ، دون مساس بشرف العائلة .

ولم يغب عن أفراد أسرته حاله المتجهم . اذ من عادته أن يتحدث ويضحك وينتقد . بكلمة ، هو المنشط الدائم للسمر العائلي .

كانت يداه تعبثان بمسبحة ، تعدان حباتها عدا عشوائيا ، يود أن يتكلم ولكن لا يدري بماذا يبدأ .

مضت فترة من الصمت جعلت البعض من أبنائه يفكرون في الانصراف من الصالون ، واذا به يتكلم مخاطبا زوجته :

— مع من تذهبين بعد غد الى داربن عبد الجليل ؟
— هل دعونا حتى تسألني هذا السؤال ؟
— تسألين هل دعونا وأنا أخبرتك منذ أسبوع !
— أخبرتني منذ أسبوع ! متى ؟
— هل نسيت ، أم جرى لك ما أنساك ؟
— لم تخبرني ولم أنس . ولم يجرلي شيء ! أنت الذي لست في حالك ... التقيت بالعروس وأهلها وعمتها ، واستحييت بنفسي كيف أفعل ؟ لو كنت تحممت لخرجت في الحين ولما عرضت نفسي للتساؤل ... سألتني عمة العروس اذا أحضر « التصديرة » فأجبتها بالتردد !

ـــ أخبرتك منذ أسبوع بأن بنت سي عبد الكبير ستزف عروسا يوم الأحد المقبل ، وأن حفلة تقديم جهازها للمدعوات يتم يوم السبت بعد الظهر . واليوم فقط كلمني سي عبد الكبير بنفسه ليدعوني الى حضور حفل غدا ، يقيمه خصيصا لاصدقائه . منى علي علم بذلك .

ـــ قلت لك ، لم تخبرني والسلام .

ـــ أتكذبينني ؟

ـــ لا أكذبك ، ولكنك نسيت ...

تدخل عمر ليفك الخصومة التي نشبت بين أبويه :

ـــ المهم الآن ، ماذا تقررون ؟ لا متى قال لك ... انه أخبرك هل تذهبين ؟ ومع من ؟

ـــ لو قال لي من قبل لأعددت نفسي . النساء لا يذهبن الى حفلات الزفاف هكذا ...

فرد الشيخ علاوة بحدة :

ـــ وكيف يذهبن ؟ هل أنت ذاهبة الى الحج ؟ انك ذاهبة الى القبة ...

ـــ النّاس ليسوا سواء . هذه عائلة معروفة لها مدعون من كل الجهات .. اليوم في الحمام فقط جرى حفل لم تعرفه الحمامات منذ كم من سنة !

فكرت برهة من الوقت ثم سألت :

ـــ ماذا أحمل لهم في يدي ؟

ـــ لم يجبها أحد ، ثم تكلم الطبيب :

ـــ خذي لهم باقة من الورد والسلام .

يكتب رضا كلمة مزاح الى نعيمة ويعطيها لزبيدة لتقدمها لها ، فتقرأها : انتبهي جيدا الى ما يجري ، إنه أكثر من الاجتماع الذي كنا فيه ..

يبدي رأيه الشيخ علاوة :

— الزهور لا تكفي ، يلزم شيء آخر.. خبزة حلواء مثلا ..
— ليذهب غدا منكم أحد يوصي أحد الخبازين على اعداد خبزة خاصة . لا آخذ الحلواء الجاهزة .

فأجاب الشيخ علاوة :

— هو ذاك . دار بن عبد الجليل ليسوا كسائر الناس .

فاستكثر عمر الزهور والحلواء معا ، فأعرب قائلا :

— الورد والحلواء معا ، أليس هذا كثيراً ؟

فأجاب الشيخ علاوة :

ليس كثيرا ، كان الواجب يقتضينا أن نشتري هدية للعروس ...

فأنكرت العجوز كلثوم الفكرة :

— لماذا نشتري هدية للعروس ؟ ليس بيننا وبينهم لحد الآن نسب ولا تواصل حقيقي . فرد الشيخ علاوة :
— أبوها صديقي ، من أخلص وأنصح الاصدقاء . ولولا ذلك لما دعاني مع خاصة الخاصة لحضور الامسية التي يقيمها غدا !

فأراد رضا أن يكهرب الجو بمزاحه الجاد :

— دعاك لتقرأ الفاتحة ، لا لصداقتك .

فرد عليه الشيخ علاوة بعنف وغضب :

— أنت لا تتكلم ، لا أريد أن أسمع صوتك ... أنت بدأت أعرف من أنت ... ويومك ليس ببعيد !

سكت رضا ولم يرد بحرف واحد . هو لا يعني الكلام بقدر مايريد كهربة الجوليس الا . وقد حصل ما أراد .

وعاد الصمت من جديد ، لكن العجوز كلثوم لم تعبر بعد عن كل رأيها في الموضوع فقالت وقد حمدت لرضا سكوته بقدر ما تضايقت من تدخله :

— صداقة الرجال لا تستلزم الاهداء في مثل هذه الأمور. النساءهن اللواتي يتهادين .

فقال عمر :

— يتقارضن !

فردت أمه :

— يتقارضن أو يتهادين ، تلك هي العوائد . اليوم تأخذ وغدا ترد ... آخذلهم الزهور والحلواء .

وسألها الشيخ علاوة :

— أنت ومن تذهبين ؟

— أذهب أنا وزبيدة .

فتكلمت زبيدة كالمحتجة :

— أذهب الى العرس بدون حتى أن أذهب الى الحلاقة وبفستان القرون الوسطى !

فتساءل الشيخ علاوة في دهشة وتعجب :

فستان القرون الوسطى ؟ هل عندك فستان واحد ؟ ما لديك من ملابس لا يحملها بعير !

فكر رضا وهو يسمع لفظة «بعير» انا اباه يعيش حقيقة بعقل ولغة العصور الماضية . أما نعيمة فأضحكتها عبارة عمها . بينما زبيدة راحت غير هيابة ، تحاجج أباها :

— ملابسى تليق للمسرح ، لا لأذهب بها الى الأعراس !

فاجابها الشيخ علاوة وهو متعجب منها :

— أنت أيضا تعلمت اللجاج ؟ لماذا اذن لا تذهبين تصفقين مع أولئك اللائي يهرجن في حلبات الميثاق ؟

فتكلمت العجوز تؤيد بنتها :

— لها الحق ، إن الموضة كل يوم تتغير . لباس المرأة ليس كلباس الرجل ... وهي ليست عجوزا لتلبس أي فستان ! إن العجائز أنفسهن صرن لا يلبسن اللباس التقليدي ، أو الفساتين التي لبسنها في مناسبات سابقة !

فرد الشيخ علاوة وهو يزداد عجبا كما لو أنه يكتشف أفراد أسرته لأول مرة :

— ماذا جرى في هذا البيت ؟ أنت أيضا ... لعلك تريدين أن أكتب الى احدى دور الموضات ليفصلن لكن فساتين ؟ ماذا جرى في هذا البيت !

فأجابته العجوز كلثوم :

— ماذا جرى لك انت الليلة ؟ أتريد ان تحرم علينا النطق ؟ اذا كان كذلك فلماذا نحن جالسون هنا معك ؟ اذا كنت أنت لا تعرف ما يجرى في الدنيا ، فالناس ليسوا مثلك ! تعيرنا بالتفصيل لنا في دار من دور الموضة ... ولم لا ؟ اذا كنت تريد مخالطة بن عبد الجليل وأمثاله عليك أن تكون مثلهم في كل شيء ! .

اتريد أن أخبرك : إن بنتهم هذه التي تزوجت لا يعزها ابوها مثل أختيها فتيحة ووهيبة ومع ذلك فصلوا لها فساتينها في دار من أكبر دور الموضة الفرنسية في باريس ... نعم ، بنتك غدا اذا ذهبت معي الى العرس ماذا تلبس ؟

فتعجب الشيخ علاوة مما يسمع ، ولكنه أحسّ بانه في مستوى اقل من صديقه عبد الكبير ، لما أخبرته زوجته عن تفصيل جهاز العروس في باريس ! لوكان هو لما فكر في ذلك . إن هذه الحياة التي يطمح اليها لا يعرف حتى مستلزماتها ! زوجته التي لا تقرأ تفكر أحسن منه ! وقال متمتما : لا حول ولا قوة الا بالله ! ثم سأل بنته كما لو انه يريد بذلك أن يعتذر لها عن جهله بما يجرى في هذه الدنيا التي يريدها ولا يعرف من أين يصل اليها :

— وفستان السنة الماضية الذي اشتريته لك بألف وخمسمائة دينار ، أين هو؟ .
— فستان السنة الماضية أذهب به الى العرس هذه السنة ؟
— ولم لا ؟
— أنت لا تعرف هذه الأمور...
— اسمعوا ، انها تجهلني ! أنا لا أعرف ! اننا حقا في آخر الزمان ...

فأجابه رضا في نفسه : انك في لا زمان !

تدخل عمر مرة أخرى لفض المشكل ، واقترح :

— خذي فستانا من فساتين منى !

فردت زبيدة بقوة :

— أمشي عارية ولا ألبس لباس غيرى !

فتكلمت منى تحتج بدورها على زوجها :

— من أين لى الفساتين التي تصلح للعرس ؟ هل اشتريت لى فستانا واحدا له قيمة منذ زواجي ؟

— جاء دورك أنت أيضا ! والفستان الذي اشتريته لك من باريس ؟

— بدراهمي اشتريته لي . وهولا يصلح حتى للحمام !

غاظ العجوز كلثوم أن تتحدث الكنة بحضورها وحضور أولادها ، فأخذتها بشيء من العنف :

— ألا تستحين ، تتكلمين هذا الكلام ؟ نهيتك من قبل ، وحذرتك من اللجاج مع زوجك بحضورنا !

— ماذا قلت ؟

ماذا قلت ؟ ألست في عقلك ؟ ثم ماذا تعنين بقولك أن الفستان الذي اشتراه لك لا يصلح حتى للحمام ؟ اذا لم يعجبك قولي لأهلك يشترون لك !

— لوكنت عند أهلي لما احتجت لأحد .

— ماذا فعل لك أهلك عندما كنت عندهم ؟ أنسيت ما أتيت به معك يوم أن دخلت عروسا ؟

غضب الشيخ علاوة ، وغضب عمر وغضب حتى مراد ... وتدخلوا جميعا لنهى العجوزكلثوم عن هذا التجريح الذي لا يليق أصلا. وصاح عمر في زوجته آمرا لها أن تذهب الى غرفتها واولادها :

— قلت لك كم من مرة لا تتركي أولادك وتاتي الى هنا !

فأجابته محتجة :

— اذا كنت أجنبية فلم أبقى في هذا البيت ؟

تدخل الشيخ علاوة من جديد راجيا منها أن لا تعير أي انتباه لما يقال : .

— انهم يهذون ، هل تعاندين الهاذي ؟ اسكتي ابنتى حفظك الله !

والتفت الى الآخرين :

— لها الحق في هذا البيت أكثر منكم جميعا . البيت بيتي أنا وأنا الذي أتصرف فيه .

وساد الصمت من جديد . وكان رضا يفكر في أن سهرات أهله تروح عن النفس أكثر من أي سيرك مهما كانت برامجه ! انها مهزلة تجرى كل ليلة في هذا الصالون ... وخطر بباله : ماذا لو ارتفعت فجأة السقوف والجدران ، وأضيء الحي اضاءة الملاعب الرياضية وكان أمام كل متكلم في هذا الصالون ميكروفون متصل بمكبر صوت ! لو وقع ذلك لجاءت الجزائر كلها تشاهد هذه الكوميديا بدون مقابل ، كوميديا لأسرة لا تعرف أين تقع بالنسبة للطبقات الاجتماعية الموجودة أوالتي هي في طريق التكوين ! .

أما نعيمة فكانت تقول في نفسها ، لو تزوجت لما قبلت أن أعيش الا مع زوجي فقط !

ولعل الشخص الذي أقسم في نفسه أن لا يبقى مع أهله بمجرد الحصول على سكن ، هومراد الطبيب .

كان يردد في نفسه : أبدا ، أبدا ، لن أبقى معهم ، أبدا .

وأراد الشيخ علاوة أن يعود من جديد الى الموضوع ، فأشار على زوجته أن تذهب وحدها أومع دليلة ، فقالت له :

— دليلة تذهب الى العرس ؟ متى كان ذلك ؟

وكأن الشيخ علاوة تذكرها فجأة :

— وأين هي ؟

— ذهبت مع صديقتها .

— ومن آذن لها في الذهاب الى بيوت الناس ؟

— أنا .

— ومتى صرت تأذنين أنت ؟

— فقام مراد محتجا :

— هل لا تستطيعون أن تتكلموا بدون أن تتخاصموا ؟ أليس هذا كثيرا في ليلة واحدة ؟ أنا لا أبقى هنا .

فأجابه الشيخ علاوة ، وكان يقول في نفسه : لو تدري ما وقع يابني لعذرت أباك ... لوتعرف أنك أنت أيضا منغمس الى أذنيك ، وأن علائقك مع أجنبية أساءت الينا جميعا ... وصرح له :

— لاتنصرف . إننا نتحدث في أمور تهمنا جميعا . إن أمك لا حق لها أن تفعل ما فعلت : تدع امرأة تبيت عند الناس !

فردت العجوز كلثوم كاذبة :

— لولم أعرف البنت وأهلـها لما تركتها .

وفي الواقع هي لا تعرف لا البنت ولا أهلها . انما كأم رأت من الضروري أن تغطي على بناتها ، ولولم يستشرنها . فسألها الشيخ علاوة :

— أين تعرفين هذه العائلة ؟

— هل ضروري أن تعرف أنت معارفي أنا ؟

فقال لها وهويفكر في نعيمة ، ولكن بصوت منخفض لئلا يغضب مرة أخرى مرادا :

— إن الوقت تبدل يا امرأة ، تبدل ! لو تعرفين ما يجري في هذه الدنيا ...

— دعنا الآن من هذا الكلام ، البنت في الأمان والضمان ... ماذا نفعل ، هل أذهب وحدى ؟

تكلمت هالة :

— أنا يوم السبت عشية ليس لي دروس ، اذهب معك .

— أنت لا !

— أنا اذا ذهبت معك أذهب في ملابس المدرسة !

أمر الشيخ علاوة هالة أن تسكت أوتخرج :

— أنت أيضا ! ماذا جرى الليلة ؟ إن تكلمت مرة أخرى خرجت !

فعادت العجوز كلثوم من جديد الى الكلام ملمحة الى أنها تنتظر من حضورها هذا العرس أشياء هامة :

— أنا لولا أنه صديقك ، ولولا أننى التقيت مع عمة العروس ، وتحدثنا في مواضيع تهمنا وتهمهم ، لماذهبت !

فهم الشيخ علاوة أنها تعنى خطبة وهيبة لمراد ، فقال :

— الحضور لابد منه . انها أسرة محترمة ، وسعيد هو من ارتبطت أسبابه بأسبابها !

فالتفتت العجوز الى زبيدة تشير عليها :

انت تذهبين معي ، لا بد من ذلك . ألبسي قفطانك القسنطيني . انه يسترك ، اذا لم تريدى لبس فستانك ...

— في الصيف ألبس القطيفة ؟

— القفاطين تلبس في كل وقت !

فكر مراد بالرغم من عدم معرفته لما يلبس وما لا يلبس في الجزائر : أن أمه لا ذوق لها .

وفي النهاية أذعنت زبيدة وقد اشتمت من كلام أمها ما قد يكون يعنيها هي ، وقالت :

— بعد غد أفكر فيما ألبس . لكن من يعطيني ثمن الحلاقة ؟ فسأل الشيخ علاوة ، وقد عاد اليه هدوءه وأمله في تحقيق ما كان يصبو اليه دائما من زواج الطبيب ببنت سي عبد الكبير :

— كم يلزم لهذه الحلاقة :

فقالت زبيدة .

— مائة دينار !

فتكلم عمر مستنكرا :

— منذ متى صار ثمن الحلاقة في الجزائر بمائة دينار؟

فردت عليه زبيدة :

— منذ أن صار الأمر لا يهمك !

أراد عمر أن يشتمها على سوء أدبها ، لكن الشيخ علاوة منعه وهو يقول :

— لست أنت الذي يدفع ، كلنا نعرف أنك لا تملك مصروف جيبك! (هازئا)

لم يدر عمر بالضبط ماذا يعنى أبوه ، وفكر أن يسكت اولى . فسالت العجوز :

— من يمشى معنا منكم يوم السبت ؟

فاقترح الشيخ علاوة أن يذهب مراد لكن هذا زعم انه على موعد ، وقال :

— أنا أرجعكما للبيت عندما ينتهى الحفل اذا شيئتما ، أما الذهاب معكما فلا يمكن ، لأنى على موعد ...

فقال الشيخ علاوة :

— عمريوصلكما .

— عشية السبت لى اجتماع بالوزارة .

— بالوزارة ؟ لكن عشية السبت لا يشتغل أحد !

— لي اجتماع مع الأمين العام .

تساءل الشيخ علاوة في نفسه : لا شك انه اجتماع يتصل بالمؤسسة التي يديرها ؟ كان عمر ذات مرة أشار الى أنه طرد أعضاء الفرع النقابي بالمؤسسة ، واستولى على مكاتبهم . لأنهم في زعمه مشوشون . وخطرت بذهن الشيخ علاوة مرة أخرى رسالة البنك ، فخشى أن يكون الاجتماع يتصل باختلاس أو تحويل لبعض أموال المؤسسة وتؤول الأمور الى وخيم العواقب .

وسأله :

— لاشك لأمر مستعجل ؟

فأجاب عمر بلا مبالاة واعتداد بالنفس :

— حول العمال بالمؤسسة . يهددون بشن اضراب يوم الاثنين ، ولكنهم لن يضربواهم أجبن من أن ينفذوا تهديداتهم .

واذا أضربوا ؟

— سأصدر قرارا بتجنيدهم في عملهم . فاذا لم يستجيبوا أستدعى الشرطة ... لا أقبل في مؤسستى أي مشوش !

لاحظ رضا كيف نسب عمر المؤسسة اليه ، كما لو أنها ملكه ! وفكر أن لا يتدخل أفضل . لأن الكلام في مثل هذه المواضيع مع أفراد أسرته لا ينتهى الى نتـيجــة . .

لكنه اندهش من غباء أخيه الذي لم يدرك خطورة موقفه مع العمال ! وكان يعلم أن عمال هذه المؤسسة مصممون على المطالبة بتغيير الادارة مهما كلفهم ذلك . يؤيدهم في مسعاهم كل من الفرع النقابي وخلية قدماء المجاهدين بالمؤسسة .

وأحب الشيخ علاوة أن يغرى مراد بالذهاب الى دار بن عبد الجليل ، فقال يخاطبه :

— لو ذهبت أنت معهم ، مادام أخوك لا يستطيع ... إن هذه العائلة من العائلات العريقة في الجزائر . سي عبد الكبير هذا رجل معروف في كل الأوساط ، لا لثرائه فقط ، بل لقيمته وكريم محتده . وله ابن مهذب رقيق الشمائل ، وبنات أصيلات مثقفات . فأضافت الأم تؤيد زوجها :

— وهيبة أجمل فتاة في الجزائر بلا مبالغة !

اشتم رضا من هذا الكلام أن أبويه يمهدان لخطبة بنت عبد الجليل الى مراد . ولاحظت نعيمة وكذلك زبيدة من جهتهما ما يرمي اليه الشيخ والعجوز.

اقترح مراد أن يوصلهما عمر قبل أن يذهب الى الاجتماع ، ويذهب هو لارجاعهما في المساء . وهو نفس الاقتراح الأول . فقال عمر:

— قلت لك أنا لي اجتماع .

— أعرف . توصلها قبل الذهاب ...

— طيب . لكن على الساعة الثانية والنصف . لا قبل ولا بعد !

فقالت العجوز :

كنا نفضل أن نذهب على الساعة الثالثة . لكن لابأس ، نذهب على الثانية والنصف .

وكان عمر طوال السهرة لا ينفك يلاحق نعيمة بنظراته المبتسمة أحيانا ، الى درجة أن أثار انتباه مني ورضى . وكان يعتقد أن رتبته في العائلة من حيث السن تجعله بمنأى عن كل ظنة . وسأل أمه ليعطي لنظراته نحو نعيمة محتوى معينا ، فقال :

— من عادتك لا تذهبين يوم الخميس للحمام ؟

— لم أكن أنوي الذهاب . انما نعيمة ألحت على أن أرافقها ، لأنها اليوم لا دروس لها .

— آ ... ذهبت مع نعيمة !

— ذهبت أنا ونعيمة وزبيدة .

— لو أخبرتني لجئت أنتظركن عند الخروج . لأن العودة من الحمام في الغالب تعرض صاحبها الى البرد أو الزكام اذا لم يق نفسه جيدا ، ولا سيما نعيمة ... التي ربما أنها ليست متعودة ...

أدارت نعيمة رأسها الى جهة معاكسة لجهته ، معربة بذلك عن تذمرها من انشغاله بها . وكان فعلا لا يفتأ يضايقها بكل الوسائل المتاحة له ، بالنظر ، باللمس المفتعل فيه عدم الانتباه ، بالزاحمة في ممرات البيت ... الى درجة أنها صارت تتجنبه بسبب وبدون سبب !

لاحظ رضا من جهته تضايق نعيمة واستمرار أخيه في ملاحقتها بالنظرات الفاجرة ، والتلويحات المعربة عما كان فيه من هوس .

أما الشيخ علاوة فقد كاد يقفز على ذكر اسم نعيمة . إنه يود أن ينساها ، حتى يتفرغ لقضيتها . لكنه سيطر على انفعاله . وراح ينظر اليها بنصف عين متمنيا لها أي مصيبة مفاجئة تريحه منها .

واصل عمر حديثه عن الحمام ، مضيفا اشارات أخرى الى ما سبق ... لكي تفهم نعيمة جيدا أنه يعنيها هي . لم يفكر في اخوانه ، لأنه يعتقد أنه لا يمكن أن يكون محل شك من أحد . وقال :

— حمام العرب جيد للذي يتحمل الحرارة ، والدلك ، والجو الثقيل

تضايقت زوجته من ذلك أكثر من نعيمة وقالت له :

— اذا كان الحمام يعجبك فلماذا لا تذهب اليه ؟

فهم ما تعنيه ، ولكنه فضل أن لا يعير أهمية لمقالها ، ورد عليها مبتسما وهو يود لو سحقها .

— تظنين أنني مثلك ، أعمل ما أريد في الوقت الذي أريد ؟ إن حياتي موزعة بين العمال ومشاكلهم والاجتماعات ، اجتماع لتحضير مشروع الميزانية ، اجتماع عن الميثاق ، الاجتماع الأسبوعي مع المسؤولين بالمؤسسة ...

لكن رضا أدرك محاولة تخلصه من المأزق فأراد أن يرجعه اليه ، ولم يكن يحترمه قيد أنملة :

— لوطلبتك أمي بالمجيئ الى الحمام ، عن أي اجتماع كنت تعتذر؟

غضب عمر غضبا شديدا ، ولكنه افتعل الهدوء ، لينتقم كما يريد وكان حينئذ الشيخ علاوة يستعد للتدخل ، لأن كلام رضا يغضبه دائما ، سواء كان على حق أم على باطل . وكان تدخل رضا هذه المرة غير موفق . من عادته التأني والاصابة في المرمى ... لكن هذه المرة لسبب ما ، تعجل في الكلام ، وأتاح الفرصة للنيل منه بدون مبرر . فقال عمر محاولا اثارة أبيه عليه :

— أتظن أن هذا العبث يجديك ؟ أم تعتقد أنك دائما صغير ؟ أخذت البكالوريا في التاسعة عشرة بدل الثامنة عشرة ، لعبثك . فقلنا مازال صغيرا . ثم أخذت ليسانس الأدب في خمس سنوات بدل ثلاث ، لأنك انتقلت من العبث الى عبث أشد ، تنظم التطوع للثورة الزراعية . فقلنا عندما يتكشف الحقائق ويعرف ما يجرى في البلاد يرعوى . وأنت الآن تزعم لنا اعداد ديبلوم الدراسات المعمقة في الأدب ! ولست أدرى ما معنى الدراسات المعمقة في الأدب ؟ ولك أكثر من ثلاث سنوات ... وصرت ، كما قيل لي ، زعيما للتخريب في الجامعة مع المخربين ، باسم التقدمية والماركسية والفوضوية ... ألا تعتقد أنه حان الوقت لأن تفيق ؟ انك دنست عرض عائلة شريفة ، أنت الى الآن عالة عليها ! .

كان رد فعل أفراد العائلة من سماع هذا الخطاب مختلفا . فراد طأطأ رأسه الى الأرض كمن يود أن يشغل نفسه بشيء الى أن ينتهي التنابز . نعيمة كانت تشعر بحنق على عمر ، وتود لو استطاعت

أن تفضحه أمام الجميع . فتقول لهم : هذا الذي تعتقدون أنه رجل عاقل . يأتي في الدرجة الثانية بعد عمي ، انه لا ينفك يعترض طريقي بشتى الوسائل . لا يستحي من عمره ولا من أولاده ولا من زوجته ولا من أي شيء ... ولكنها لا تستطيع ! متى كانت تحتقره ، ولكنها لا مناص لها من الاذعان لما يقول ويريد ، لأن أولادها أربعة وهم الحقيقة الزوجية الوحيدة التي تحس بها ... العجوزكلثوم ، لاتبحث عن الظالم من بين أولادها . هي تود الوئام قبل كل شيء . لكن ما قاله عمر لم يلاق رضاها . هي تعرف أن رضا لا يحبه أبوه ولا إخوته ... زبيدة تكره عمر سواء كان على حق أم على غيره ، لأنها منذ الطفولة وجدته محظوظا مع والديه أكثر منها ، لا لسبب ، الا لأنها بنت ! أما الشيخ علاوة فهوينصره بالحق وبالباطل . وخاصة اذا كان النزاع بينه وبين رضا ، أو احدى البنات . ولذلك اغتنم الفرصة ليحذر رضا ونعيمة في نفس الوقت ، ولوبصورة غير مباشرة ، فقال :

— في نهاية هذه السنة الدراسية ، ولربما قبل ، أطهر هذا البيت من كل دنس ... لم يفهم أحد ما يعني . وسكت لحظة ليرى تأثير مقاله على نعيمة بالخصوص . لكن هذه ، كما لاحظ ، لم يبد عليها كبير اهتمام لما قال . فأضاف :

— أطهر هذا البيت من كل دنس ، ومن كل انحراف عن الجادة . هذا بيت لا يظل سقفه ملحدا ومؤمنا ، ولا طاهرا ومدنسا ، المرأة والرجل في ذلك سيان ! فأجابه رضا مبتسما في شيء من الأسف :

— أثر عليك ، أليس كذلك ؟ المؤسف أنك لا تعرف أبناءك ! فرد الشيخ علاوة بسرعة ، كما لو خشي تلاشي الدفعة الانفعالية التي كان فيها . !

— أعرفكم ... أعرفكم جيدا . لست شيخا يفكر في موته كما تتوهمون . أفكر في كل شيء وأعرف كل شيء ، ولن أموت ! لا ينبغى أن ينتظر أحد وفاتي عما قريب ! لا تخفى علي في هذا البيت خافية . أعرف كل مايجرى فيه وخارجه من ساكنيه .... ليكن مفهوما أننى لا أتسامح ...

فتكلم مراد وقد أضجره الى درجة كبيرة ما يجرى في هذا الليلة بالصالون فقال :

— لو نتكلم في موضوع آخر ، أليس أليق ؟

لكن زبيدة لم ترد تضييع الفرصة للتنديد بعمر ، فقالت :

— عمر يريد أن يكون لنا أب وأبونا حي !

فرد عليها بعنف :

— اخرسى أنت !

نصحتها أمها بالسكوت وعدم التدخل ، بين الرجال .

وكانت نعيمة طوال هذه السهرة تحاول تصنيف عائلة عمها ، فوجدت أن رضا بمفرده الذي يشكل الجانب المشرق فيها ، الذي ينظر الى المستقبل أكثر مما ينظر الى شيء آخر . ولعل دليلة أيضا قد تتبعه في طريقه . لكن دليلة تشكل بمفردها قضية ، لاتعرف عنها نعيمة شيئا ... أما زبيدة فثورتها سلبية هي نوع من الحقد على عنوسها . وأما الباقى من أفراد الأسرة فهم في نهاية المطاف يتلاقون في النظرة الوراثية للامور التي يسببها الخوف من التطور ، والخوف من تضييع عاجل المصالح !

وبالنسبة لعمر فلم تكن تجد في نفسها له سوى المقت المقيت . انها تود لو استطاعت لوقفت جهارا الليلة الى جانب رضا .

إن ما كان يحز في نفسها في حقيقة الأمر ، ولو أنه لم يتبلور بدرجة كافية ، هو أنها لم تحاول طوال هذه المدة التي قضتها في هذه الدار التعرف على رضا . لو لم يحك لها أحد زملائها عن تفتح رضا للفكر المستقبلي لعاملته بالأقل في نفسها كما تعامل أبناء عمها الآخرين هي علمت منذ مدة أنه أحد الذين يسهرون على تنظيم التطوع الطلابي ، ولكنها خشيت أن يكون ذلك منه رياء ، أو أنه لا يفتح نفسه بسهولة للحديث اليها ... ثم إن طبيعة الأسرة لا تسمح بأن تكون لها به صلة ... كل الصلات بين المرأة والرجل لدى العجوز كلثوم ولدى الشيخ علاوة ، ولدى منى ، ولدى حتى زبيدة ، لاتفسر الا مشبوهة هم كلهم أظناء ! إن خروجها معه هذه الليلة لحضور اجتماع الميثاق لم يمر بدون تعليق نفسي لدى النساء . أما لو سمع به عمر أو الشيخ علاوة لكان هوموضوع اجتماع الصالون ...

بعد فترة الصمت التي سادت من جديد دق في هذه المرة جرس الهاتف ليعيد الحيوية الى الأسرة .

ذهبت زبيدة لترد ، ونادت مرادا :

— اليامنة تريد أن تكلمك — ابنها مريض !

— وماذا أفعل لها أنا ؟

فألحت عليه الأم :

— قم يامراد كلم أختك ، قم . إن ابنها مريض .

قام مراد الى الهاتف كالمكره وسأل :

— ماذا وقع له ؟

فأجابه صوت اليامنة :

— لست أدري ، عنده الحمى ، وكرشه جارية ... لم يصب باسهال أبدا قبل اليوم ! لست أدري ماذا أفعل له ؟

— كم بلغت درجة الحمى عنده ؟

— تقرب من تسع وثلاثين ! انه في حالة خطرة !

— تسع وثلاثون بالنسبة للصبيان ليست شيئا كبيرا . لعله ينبت ؟

— منبت الثنايا منتفخ ، ولكن لاأظن كل هذا الاسهال وهذه الحمى بسبب ذلك !

— لاشك أن ما به الانبات .

— وماذا أفعل له يا مراد ؟

— وماذا تفعلين له ... أنا لست طبيب أطفال ، لا أعرف شيئا في أمراض الأطفال

فقالت له أمه من بعيد :

— مراد ! تقول لأختك هذا الكلام ؟

— وماذا أقول لها ؟ لا ، لست معك أنت . أتكلم مع أمى . اسمعي ، اليامنة اسمعي الي ... خففي من ملابسه وبردى رأسه بالماء أو الخل . هل عندك شميعات لحمى الأطفال ؟

— لا .

— من الطبيب الذي يتابعه ؟

— يتبدلون ، كل مرة واحد ...

— في « بارني » أليس كذلك ؟

— نعم ، في عيادة الأطفال .

— سمعت أن متباعة الأطفال هناك جيدة . غدا احمليه الى الطبيب. هل له دفتر المتابعة ؟

— نعم .

— أذن خذيه غدا صباحا للطبيب يفحصه . على كل حال لا تتحيرى .

— كيف لا أتحيريا مراد !

— اسمعي ، خففي ملابسه ، وأعطيه الماء يشرب في كل وقت .

— لكنه مريض ، مريض ...

— زوجك أين هو؟

— هنا بالبيت .

— لماذا لا تنقلوه اذن الى قسم الاستعجالات للأطفال ... انكم لا تسكنون بعيدا عن المستشفى .

— نذهب الى المستشفى وحدنا ونبقى ننتظر الى الصباح ...

— لماذا تنتظرون الى الصباح ؟ تنتظرون دوركم والسلام .

فقالت الأم مترجية :

— لماذا لا تذهب معهم يامراد ؟ هي وزوجها لا يعرفان شيئا . والمستشفى بدون معرفة لا يقضي صاحبه أي شغل .

فقال لأخته بقوة :

— حضري نفسك اني آت .

وضع السماعة بغضب ، وقال لأمه :

— بدون معرفة ... بدون معرفة ... هذا السلوك هو الذي جعل كل شيء بالمعرفة ! الأطباء يعملون عملهم لا يهمهم الغني والفقير . تهمهم حالة المريض ...

— لكن يا بني هذه أختك ، ولو عرفت ما تفعل لما أزعجتك . ابنها مريض ... وأخوها طبيب ، ماذا تفعل ، ان لم تستشره هو أولا ؟

— أنا جراح ، لست طبيبا . فرق بين الجراح والطبيب المعالج . فرق كبير . في الصباح لما جاء رجل الاسعاف يبحث عني وقال ان اباك أوصى بأن تسهر أنت على علاج الجريح ، ذهبت . بالرغم من أن قسم الاستعجالات له أطباؤه ... الجراحة عملي ، ولو أنني لا أعمل بقسم الاستعجالات ...

فقال الشيخ علاوة وقد فهم تعريض ابنه بما يسببه له أهله من مضايقات في زعمه :

الشخص الذي أوصيت عليه لم تكن اصابته عادية . حاول أن ينقذ امرأة من نشال بالحافلة ، فطعنه بخنجر أحد هؤلاء الأشقياء الذين مرروا حياة الناس .

وكان الشيخ علاوة يشعر بالخيبة من رد فعل ابنه . وقال في نفسه لو أن التي طلبت مساعدته هي « ديدي » لما استفصح واستعقل الى هذا الحد ... فقال مراد :

— أعرف القصة ... حكوا لي كل شيء . أقصد أن التدخل والوساطة في مثل هذه الأمور ليست دائما سهلة . أتوسط اليوم لدى شخص ، غدا ينبغي أن أرد الدين .. ونصير حينئذ لا نحيا في الطب المجاني ، ولكن في طب الصداقات والوساطات . ونصير نعالج الموسوسين بدل المرضى الحقيقيين الذين ليست لهم معارف ...

خرج مراد على مضض لمرافقة أخته وابنها الى مستشفى حسين داي الجامعي وخرج رضا ذاهبا الى غرفته .

فعلق عمر على ما قاله مراد متهكما :

— هذا البيت سكانه كلهم مناضلون ! لولا الوساطات لما صار هو

نفسه طبيبا ! من ذا أعطاه الدراهم في فرنسا عندما كان يقرأ ؟ هل طبه المجاني الذي أرسل له نفقاته بالعملة الصعبة طوال اقامته بالخارج ؟

لم يتكلم الشيخ علاوة . كان يشعر بحزن جديد يضاف الى ما هو فيه ... انه لم يفكر لحظة أن مرادا سيقصر الى هذا الحد مع أقاربه . نادته أخته بالليل ، فتضايق أمام والديه ... وقال الشيخ علاوة في نفسه : « الأنبياء والمرسلون بدأوا بالأقارب ... الله قدم القريب ولو في السكن ... ماذا يعد نفسه هو؟ لوكانت اليامنة هي الطبيبة وكان هو أبو الطفل المريض وطلب مساعدتها وقالت له ما قال لها ... ماذا يقول ؟ لا . ما هكذا تَرِدُ الابل يا سعد » !

وقام من مكانه متوجها الى غرفته ، معلنا بذلك عن انتهاء السهرة . وقام الآخرون وهم غير راضين على السهرة هذه الليلة ، ما عدا العجوز كلثوم التي بقيت بالصالون تنتظر رجوع مراد والتعرف على ما تم بخصوص ابن بنتها المريض .

وقالت لزبيدة ونعيمة وهما خارجتان :

— واحدة منكما تنام مع هالة . فرفضت زبيدة .

* * * *

كانت نعيمة وهي بفراش دليلة تستعيد في نفسها يومها الحافل بالاكتشافات الجديدة عن مجتمع المدينة : عرفت الحمام الذي سمعت عنه قصصا لا تحصى . حضرت اجتماعا عموميا حول الميثاق ضم مختلف الفيئات ... لكن ما كان يلاصق نفسها أكثر من كل شيء آخر هو رضا ! انها تشعر نحوه بشيء غريب ، أكثر من الاحترام ! وازنت من حيث لا تشعر بينه وبين عمر فوجدت الفرق بينهما كبيرا .

عمر لا ينفك يضايقها وهو متزوج وهو كبير من حيث السن ، بينما رضا الأعزب الذي مازال في مرحلة الشباب . لم يبد أي حركة مثيرة طوال المدة التي كانت جالسة الى جانبه. كان بامكانه الكثير ، ومع ذلك لم يدع حتى جسمه يمس جسمها !

واكتشفت من ناحية أخرى لأول مرة أن أسرة عمها غير متجانسة لا أخلاقيا ولا فكريا . إن الصراع واضح بين أفرادها ... وخاصة بين رضا وعمر ! أما مراد فهو عنصر آخر لفق تلفيقا في جسم هذه الأسرة. حكى لها رضا عنه أنه ذات مرة سئل عن إحساسه وهو يرى « امسترونغ » يضع رجله على سطح القمر لأول مرة فقال : « ينبغي أن ننتظر عودته الى الأرض لنرى مقدار تحمل جسمه لظروف السفر في الفضاء !»

كانت نعيمة تستعيد في نفسها هذه الأفكار واذا بهالة تتكلم :

— أتعرفين لماذا لم ترد أن تنام معي زبيدة ؟

— لماذا ؟

— لأنها تكرهني .

— لماذا تكرهك ؟

— تكرهني كما تكره كل النساء .

— من قال لك انها تكره كل النساء ؟

— أنا أعرف ذلك . هي تحسب أن النساء كلهن يتزوجن قبلها !

— لا ، أنت غالطة . زبيدة لا تكرهك . انما تعودت على مكانها فلم ترد تغييره هذا كل ما في الأمر .

— وانت لماذا اذن جئت معي ، وغيّرت مكانك ؟

— أنا مكاني هنا أو مع زبيدة ، إن هو الا مؤقت .

— لا ، هي تكرهني ، أعرف ذلك . لكن أنا لن أبقى مثلها ...

أنا أتوقف عن الدراسة في الثامنة عشرة ولو لم أنجح في البكالوريا .

— ولماذا ؟

— لأتزوج .

— تتزوجين ؟ تفكرين من الآن في الزواج . وأنت ما زلت ...

— وأنا مازلت ماذا ؟ بأي شيء تفوتني النساء اللواتي يتزوجن ؟

— أقصد أن الزواج هوآخر ما ينبغي أن تفكرى فيه .

— هو أول ما أفكر فيه . أتريدين أن أبقى عانسا كزبيدة ؟ إن المرأة التي تطيل الاقامة في دار أهلها كزنبيل القمامة ! ...

— كل النساء يرغبن في الزواج في وقت من الأوقات ، لكن ليس بأيديهن ...

— لا تتزوج الا المرأة التي لا تريد الزواج .

— أنت غالطة . واذا لم يخطبك أحد ؟

— لا يخطبني أحد ! لوشئت لتزوجت من غد ! أنت لا تعرفين كم عدد الرجال الذين ينتظروننا أمام الثانوية في وقت الدخول وفي وقت الخروج ! وأولئك الذين يلاحقوننا بسياراتهم ...

— أنت تبالغين . هنالك من يأتي الى المدرسة مع أخته أو ابنته أو قريبة له ... أما أصحاب السيارات فكثيرا ما يستعملون المنبه لعرقلة أوتنبيه أحد المارة ، والنساء يعتقدن أنهن معنيات بذلك .

— أنت الغالطة ، لا تعرفين الرجال !

تعجبت نعيمة من كلام هالة ... وقالت في نفسها : إن دار عمي قائمة على بركان . ثم قالت لها هالة دون أن تضيف شيئا آخر :

— تصبحين على خير !

— فكرت نعيمة في أجزاء من كلا م هالة ، وعادت الى ذهنها كلمة :

بأي شيء تفوتني النساء اللواتي يتزوجن . فتحسست بأصابعها نهديها بدون وعي منها ، ثم نزعتها بسرعة ، كما لو أنها عملت عملا لا يليق !

ومضى بها تداعي الخواطر من واحدة الى أخرى حتى أوصلها الى النوم .

* * *

- 8 -

فتحت دليلة عينيها فوجدت النور يملأ الغرفة ، فظنت أن الصباح قد انغمس كلية في النهار . وأحست بثقل في رأسها يقرب من الصداع . نظرت الى سرير نصيرة فرأتها نائمة فانقلبت على ظهرها وأغمضت عينيها تحاول الايحاء الى وعيها بالتلاشي لتدخل في النوم من جديد . لم يكن الا نفسها يتحرك ببطء فيعلو بطنها حتى يكاد يتساوى مع صدرها ، ثم ينخفض . وكانت تبدو في غلالتها كاعبا كأنها في طور المراهقة .

لم تلبث الا لحظات في تلك الوضعية الساكنة ثم قفزت من الفراش ، واتجهت الى النافذة ففتحت مصراعيها ، واذا بها ترى الصبح في تنفسه الأول ! لقد كانت هذه الغرفة مقابلة لمطلع الشمس من وراء أفق جبال جرجراء . لا عمارة تقابلها ولا حاجزا يحول بينها وبين الأفق البعيد . موقع الدار على شفا انحدار عمودي يجعل من المستحيل انشاء بناية تعلو لمستواه .

تنفست أنساما مبللة بالرطوبة التي تضرب الرقم القياسي في هذه الجهة من المدينة .

اتكأت على درابزون النافذة الحديدي وراحت تنظر المرسى من تحتها في نهاية شمال المدينة .

كانت سفن كثيرة واقفة خارج المرسى ، ليس فيها مايدل على الحياة سوى الأدخنة التي تخرج منها في تثاقل شديد . فكرت دليلة أن هذه السفن لا شك تنتظر افراغ شحناتها . واذا بصيحة وداع تنطلق من احدى البواخر المغادرة للمرسى في اتجاه الشمال ، تلوث سكون المدينة الغافية . تساءلت :

— ترى الى أين تتجه هذه الباخرة ؟

وخطر ببالها أنها لو سافرت لما ركبت البحر ، لأن البواخر بطيئة الحركة وانما طائرة أو صاروخا يجعلها في لحظة لا تنتمي الى عالم كل من تعرفهم !

واذا بنصيرة تحييها وتقول :

— قمت بعد !

— ظننت أن الساعة هي التاسعة أو العاشرة لشدة الضوء بالغرفة . عندي أنا لما تكون الساعة العاشرة يكون الضوء مثل الآن في غرفتك ! لأن نافذة غرفتي مغطاة بأغصان شجرة زعرور ، تجعل النور لا يصل اليها الا بقدر.

— هذه الغرفة في الصيف تشتد فيها الحرارة صباحا حتى تصير في منتصف النهار جحيما . هي جميلة في العشية والليل .

— بالليل جميلة جدا ! شعرت البارحة وأنا أرى الجزائر من هنا كأني أسبح في فضاء من نور ! جميلة جدا الجزائر من هذه الغرفة ... وجميلة في الحقيقة من كل مكان ، انما فوضى السكان ...

— أتظنين ؟

— هل تشكين في ذلك ؟

— السكان كلمة عامة لا تعبر بدقة عن الواقع .
— وما هي الكلمة الدقيقة التي تعبر أحسن في نظرك ؟
— المتساكنون بالجزائر !

ابتسمت دليلة من تفكير صاحبتها وتساءلت :

— ألسنا شعبا واحدا ؟
— هذه أيضا كلمة عامة . ما معنى الشعب ؟
— الشعب هو المجموعة البشرية التي تسكن وطنا واحدا في حدود جغرافية معينة ، لها لغة واحدة وتاريخ واحد ومصير واحد ... أليس كذلك ؟
— لا . أنا أتصور غير ذلك . الشعب هو الأغلبية المسخرة لخدمة الأقلية !
— أهاه ! متى تحولت هذا التحول ؟
— لم أتحول ، تطورت ...

فكرت دليلة فترة من الوقت فيما قالته نصيرة ، وهي تتأمل في البواخر الواقفة التي تكتض بها المرسى ثم قالت :

— في الواقع أفراد أسرة واحدة يعيشون أحيانا عيشة المتساكنين الأعداء لكن أنا أرى الجزائر من زاوية أخرى ...

— من أي زاوية ؟
— أنا أرى مجتمعنا أساسا مجتمع رجال . فالنساء فيه محكوم عليهن بالوقر في بيوتهن . فاذا ما خرجن فللحمام ، أو لبعض الأسواق والدكاكين .

— صحيح ، لكن علينا تغيير هذا الواقع .

— بماذا نغيره ؟ بقتل الآباء ؟ أو الاخوة ؟ أو الأزواج ؟ أو الأحباب ؟

— ليس الرجال كلهم سواء . أعداء المرأة في أي مجتمع هم أعداء الطبقات الكادحة .

— قد يكون ذلك وقد لا يكون . المجتمعات الرأسمالية ليست حليفة للطبقات الكادحة ولكنها ليست عدوا للمرأة على كل حال .

— أستطيع أن أبين لك كيف ...

— لا ، ليس الآن . أنا أفكر في شيء آخر تماما .

— ما هو؟

— تعالى الى هنا .

قامت نصيرة والتحقت بها الى النافذة ، فلاحظت دليلة جمال جسم نصيرة وهي تبدو كالعارية في غلالتها . فقالت في نفسها : «انها جميلة»ثم قالت لها جهارا :

— لك جسم مثير !

— من أجل هذا ناديتني الى هنا ؟

— لا ، لاحظت هذا وأنت مقبلة علي ... لا تخافي ، لست أحد الكريموات !

— أيضا تفكرين فيه !

— دعينا من هذا الآن . انظري الى البواخر ...

— انني أراها واقفة ... هل ترين أنت غير ذلك ؟

— ألا تشبه شيئا ؟

— لست أدري ... لا أرى فيها أكثر من بواخر تنتظر افراغ شحناتها .

ماذا ترين فيها أنت ؟

— أنا أشبهها لنسائنا ، والحبالى منهن على الخصوص !

— ما هووجه الشبه ؟ (بابتسام)

— وجه الشبه هو افراغ الحمولة !

— لكن ...

— (تقاطعها) انتظري لحظة ... فكرت في هذا الشبه ثم قلت في نفسي ، ان البواخر يتنقلن بارادة ربابنتهن والنساء بارادة الرجال ... في مجتمعنا على الأقل ... ثم قلت في نفسي ، ان النساء هن اللائي يحبلن ، لكن بقاءهن بالبيت لا يجعلهن عرضة للنظر في كل مكان وهن حبالى . ثم قلت ، لوكان الرّجل هو الذي يحبل بدل المرأة كيف تصير الجزائر؟

ضحكت نصيرة ضحكا عاليا وقالت :

— ان لك أحيانا بعض التعابير ! ...

— لا تضحكي ... استمعي اليّ . فكري في ضيق شوارع الجزائر والتواآتها وصعودها وهبوطها ، فكري في الديموغرافية التي نحن فيها ... ثم في خضم كل ذلك تخيلي الرجال من سن الرابعة عشرة الى سن السبعين ، لأن الرجال على ما يظهر يلدون حتى في سن السبعين ! تخيليهم حابلين ، هذا في ثلاثة أشهر ، وذلك في خمسة ، والآخر في الثامن الخ ... لأن قبل ثلاثة أشهر لايظهر الحمل على ما أظن (تفكر في نفسها) ... ثم من كل ذلك ، حاولي أن تتخيلي مشهدا عاما في أي نهج أو شارع أو ساحة من الجزائر ... انك يقينا لترين مشهدا فذا لم يخطر على فكر بشر ! لأن الرجال لا يستطيعون البقاء بالبيت ! ...

— إن أفكارك غريبة ! انك ترين الحياة جد سوداء !

— هل ترينها أنت بيضاء ؟

— لكن لا الى هذا الحد !

— أقول لك شيئا آخر... نحن الآن ، أنا وأنت من الناحية البيولوجية في سن تجعلنا في حاجة الى اشباع رغباتنا الجنسية . هل نستطيع أن نبحث معا على رجل ، نشبع منه رغباتنا ثم نرميه ؟ طبعا لا . بينما الرجال يستطعون أن يشتركوا عشرة في امرأة واحدة !

— انك تخوفينني بهذه الأفكار !

— لا تخافي . أنا أتكلم . لأني أبحث عن حقيقتي ، عن أشياء لا أستطيع أن أقولها لك الآن ...

— ومع ذلك فإن حالتك غريبة !

— لأني اكتشفت أننا نعيش في سراب !

— لكن أنت لست الجزائر ، ولا الجزائريات ! لماذا هذا كله ؟

— مادمت جزائرية فأنا الجزائر وأنا كل الجزائريات ! لكن لا تتحيري كثيرا . ان غرفتك ذات موقع جميل . والجمال لا يوحي بالسرور فقط ، بل يوحي أيضا بأشياء أخرى ..

— دليلة ! ماذا جرى لك ؟

— أود أن أجامع رجلا بدون أن أخشى الحمل !

بلغت من نصيرة الدهشة أقصاها ، وهي تسمع الى دليلة وأفكارها الغامضة الغريبة . وقالت تجاريها :

— ليس الجزائريون هم الذين اكتشفوا الأدوية الواقية من الحمل ، ولا الألبسة الجنسية الواقية ، ولكن ليس ممنوعا على الجزائرية أن تستعمل الدواء ، أو تتقى الحمل بوسائله وألبسته !

فكرت دليلة أن صاحبتها على علم بالأقل بمثل هذه الامور . وقالت :

— ما أريد ليس الدواء ، ولا الواقي من أي نوع كان . أريد أن أكون كالرجل ، لا أحبل وأعمل العملية بصورتها الطبيعية !

— لا تستطيعين تغيير الجنس البشري ، ولا الكون !

— لكني أستطيع تغيير الفكر البشري !

— ذلك ممكن . لكن ينبغي ...

— أعرف الأغنية ... الكفاح الطويل . بالنسبة الى المرأة كل شيء طويل ...

— ليس للمرأة فقط ، كل الناس . المجتمعات لا تتغير بعصا سحرية يغيرها الكفاح المستمر الطويل !

— أنت تتكلمين سياسة ، وأنا كفتاة تحيا في أسرة تدعى أسرة الشيخ علاوة بن خليل ، الذي يريد أن يكون ولو في آخر حياته معتبرا كأي بورجوازي آخر ...

— (بابتسام) هل يريد أبوك أن يكون بورجوازيا ؟

— أبـي صديق لأبـــي كريمو !

— احكى لي قصتك مع كريمو. أظنه هو عالم السراب الذي تعنين !

— ربما . ولكن ليس هو العالم ، وانما هو الطريق ... أنا أتصور البشرية يتجاذبها قطبان رئيسيان ، قطب السراب وقطب الحقيقة ، أحدهما في الشمال والآخر في الجنوب .

— الأولى أن تقولي ، قطب اليمين وقطب اليسار !

— والانسانية انطلقت من قطب اليمين متجهة الى قطب اليسار في

طريق مليىء بالدماء ... لكن قطب اليمين جاذبيته عنيفة ، بحيث لا يفلت منه الا الذي قطع بينه وبين الحبل كل رابطة ، في كل خطوة يخطوها .

— الأفضل أن تقولي ، الا الذي لغم كل خطوة قطعها ...

— نعم ، تعبيرك أجمل ... أنت تدرسين العلوم الانسانية ، بل درستها ، وأنا أدرس الحقوق .

— لم أدرس كل العلوم الانسانية ، درست منها جزءا ضئيلا هو التاريخ !

— مع أنك اقترحت تلغيم كل خطوة تتصل بالماضي !

— تلغيم كل خطوة مع اليمين ، لا مع الماضي !

— أليس اليمين هو الماضي .

— لا ، ليس هو الماضي .

كأن دليلة افتكرت شيئا فجأة فسألت :

— كم الساعة الآن ؟

— تكلمي ، مازال الوقت أمامك . الساعة السابعة الا ثلثا ...

— نتكلم هذا الكلام في هذا الوقت المبكر !

— ولم لا ؟ هل للكلام أوقات معينة ؟

— قبل السابعة نتكلم عن اليمين وعن اليسار ! كما لو أن حياتنا معلقة بهما !

— معلقة بهما . أتشكين في ذلك ؟

— لست أدري . الذي يهمني الآن هو كأس ويسكي لو وجدت اليه سبيلا ، ورجل ...

— تفكرين في كأس الويسكي وفي الرجل في هذا الوقت المبكر ؟

— لست أدري ، ان افكاري مختلطة . أفكر في كل شيء ... لكن قولـي ، هل تعتقدين أن المرأة بلا ويسكي ولا «شي غيفارة» تستطيع أن تكون ثائرة ؟

— الثورة ليست سكرا ولا وسيلة الى اشباع الجنس .

— تتكلمين مثل أبـي عندما يتكلم عن الدين ! كم في عمرك ؟

— لماذا ؟ أربعة وعشرون عاما .

— تتكلمين كالمرأة التي أول رجل عرفته كان زوجها ، ثم ولدت الأولاد !

— (بابتسام) لا يمكن أن أكون أبوك ، وأكون أم أولاد في نفس الوقت ... اختاري على الأقل واحدا منهما !

— أم الأولاد التي لم تعرف الا زوجها وأبـي الذي لم يعرف الا الماضي شيء واحد !

— قلت البشرية يتجاذبها قطبان ... أي قطب يجذبك أنت ؟

— أنا ... بعدما انصرف الناس عن اليمين ، ارتميت في احضانه مغمضة العينين ! لكن تذكري ما أقوله لك الآن . سأحطم من الآن فصاعدا كل كريموات الجزائر !

تنهدت نصيرة وقالت :

— كريموات الجزائر ليسوا شيئا . ينبغي أن نحطم الظروف التي أدت الى وجودهم ..

فكرت دليلة لحظات ثم سألتها :

— قولي ، كيف وقعت في شرك كريمو مع أن تفكيرك وسلوكك وحياتك لا يمكن أن تحبب رجلا مثله اليك ؟

نظرت نصيرة اليها مليا تتفحص وجهها ونظرها . ولا حظت أن نظرات دليلة غريبة بشكل مذهل ، لم تكن تعرفها من قبل ! كأن فيها مغناطيسا ، أو أنها بعمقها وجاذبيتها تنبعث من أعماق الزمن . وسألتها بدورها :

— وأنت كيف وقعت في شركه ؟

— أنا ؟ الأمر بسيط ... كل شيء في حياتي يجعلني أميل الى هذه الطبقة . أبي منذ بدأت أعرف الدنيا وأنا أسمعه يمجد ويثني ويمدح الأثرياء . عندما نقول له عن تلك الحاجة مثلا .. أنها ليست جميلة ، يقول ، أنتم خير من فلان أو فلان ؟ كل ثرى يشكل في نظره مرجعا للسمووالتربية الحسنة ... لوجاء مثلا أبوكريموسأله أن يفرغ له دورا للسكنى معنا لفعل ! لست أدري إن كان ذلك من الحرمان الذي عاناه في صغره ، أم من ثقافته ، أم من البيئة التي عاش فيها وخالط أهلها ؟ والآن ، وبعدما اكتشفت أن ذلك كله سراب ، ها أنذي في طريقي ...

— الى القطب اليساري ... الينا ؟

— لماذا ؟ هل أنت من اليسار؟

— أنا كلي يسار . لو استطعت أن أغير اسم ذراعي ويدي اليمني لفعلت ! أنا من طبقة فقيرة عمالية . أبـي ميكانيكي ..

تنهدت دليلة وشفتاها تبتسمان ، وهي تنظر الى الأرض تحاول أن تبحث وراء الخطوط المتشابكة التي تشكلها رسوم الآجر ، عن هذه الخيوط الخفية التي تجمع بين الناس من حيث لا يشعرون .

وقالت :

— أنا أيضا لست من طبقة أثرياء .

— لكن أباك من مناضلي الرجعية الكبار . ان كان لي أن أعبر عن رأيي بصراحة !

— طبعا . تستطيعين أن تقولـي فيه أكثر . انما لا أعتقد أن الرجعي ثري بالضرورة . القضية قضية عقيدة قبل كل شيء .

— لكن الثراء ركيزة هامة للرجعية .

— أفكارك تظهرك بمظهر المرأة الزاهدة التي تكره الثراء والحياة ! ..

— أنت غالطة . أنا أكره الثراء الذي يكون على حساب الفقراء . أنا أحببت أن أحذرك ، وقد وصلنا الى هذا المستوى من التعارف ، أن لا يكون انجذابك الى اليسار بفعل الخيبة لأن الخيبة تدفع أحيانا الى آماد بعيدة ولكنها لا تصل بصاحبها الىالخيار الواضح المبنى على القناعة .

— تتكلمين كما لوأننا في اجتماع !

— لك الحق . لندع هذا الموضوع الآن . أمى تكون قامت الآن . أتريدين أن نتناول القهوة هنا ، أم معها بحجرة الأكل .

— لوكان لي الخيار لوددت أن أتناول قهوة اليوم بحي القصبة .

— لماذا بالقصبة ؟

— أحببت أن أتعرف عليها !

— ألا تعرفينها ؟

— أعرفها ، ولكن ليس بالصورة التي أريد أن أتعرف عليها الآن !

— سكانها الأصليون خرجوا منها وسكنها أخلاط من كل ناحية .

— من قال لك ذلك ؟ هل زرتها في المدة الاخيرة ؟

— لم أزرها ، ولكني أعرف انها تغيرت .

وخطر لدليلة أن تسأل نصيرة عن علاقتها بالجامعة :

— قلت انك في الرابعة والعشرين ... وماذا تفعلين في الجامعة اذن ؟ هل تعدين بعض الشهادات العالية ؟ أم ماذا ؟

— هل الجامعة محرمة على غير الدارس ؟

— ليست محرمة ولكنها لمن لاشغل له بها ليست مكانا يتردد عليه .

— أنا عاملة بمصلحة البحوث النقابية بالنقابة . وعملي يجعلني على اتصال بالجامعة وغير الجامعة .

— أتدرين ، أنني معك كالذي دخل عالما جديدا ، يتنقل فيه من اكتشاف لآخر !

— أي اكتشاف ؟

— كنت أظن أنك مازلت تدرسين بالجامعة ، وكنت أظن أنك بنت أحد الأثرياء ولذلك يناديك الطلبة نصيرة — صوناكوم ...

— الطلبة ينادونني نصيرة — صوناكوم سخرية مني . لأني ذهبت ذات يوم الى الجامعة في سيارة «رونو» القديمة «4 أحصن» فتوقفت بـي ، فأخذوا يدفعونها فأقلعت ثم توقفت عدة مرات ... هذه هي القصة . أما ثراء أهلي ، ها أنت تشاهدين حالنا ... أنذهب الى تناول القهوة ؟

— قبل تناول القهوة أريد أن أغسل وجهي !

— أنساني الحديث في ذلك تماما !

— أود أن أذهب الى دورة المياه .

— هي بجنب حجرة الاغتسال !

— أعرف ...

— تعالى .

خرجتا من الغرفة ، واذا بهما تلتقيان بأبـي نصيرة . وكانتا في غلالتيهما الخفيفتين ، فتراجعتا الى الوراء ، لكن الرجل انثنى راجعا كمن نسي شيئا ، ولم يرهما تماما .

دخلت دليلة الى دورة المياه التي كانت نظيفة ، كما لو أنها لا تستعمل فأراحها ذلك .

هي أحيانا تفضل البقاء ممسكة ... على الدخول الى دورة ملوثة .. ثم التحقت بنصيرة في حجرة الاغتسال ، فقالت لها :

— فكرت فيك وأنا بالمرحاض ...

فقاطعتها نصيرة ضاحكة :

— لم تجدى مكانا آخر للتفكير في الا هناك ؟

— أنا ، أفكاري ومشاريعى الرئيسية كلها أبت فيها وأنا بالمرحاض ولوكان قذرا ، فضلا عن مرحاض نظيف ...

— فكرت في فيماذا ؟

— هل أنت حرة في حياتك مع أهلك ؟

— كالريح ! أبـى رجل يستمد ثقافته من التجربة اليومية ...

لاحظت دليلة أن أدوات الحلاقة التي يستعملها أبو نصيرة من النوع الرخيص العادي جدا ، ليس مثل الأدوات التي يستعملها

اخوتها ، وحتى أبوها . وكانت هي أخذت معها كيس أدوات الاغتسال ، لكنها لما رأت الصابون ومعجون الأسنان اللذين تستعملهما نصيرة استحت من اخراج ما في كيسها ... كان مالديها من النوع الجيد المجلوب من الخارج .

وسألتها نصيرة :

— لماذا سألتني عن وضعي بين أهلي ؟

— لأنك مثقفة بالنسبة اليهم ، وتشتغلين في مكان محترم . قلت ربما أن ذلك يجعل أباك بالخصوص يغارمنك من حيث لا يشعر فيقيد حريتك ، أويعاملك معاملة غير لا ثقة .

— بالعكس تماما ، هويعتقد أنني في مستوي يجعلني أهلا لتسيير شؤونه هو في نفسه . ان مركبه ان كان له مركب ، هو الانقياد الكامل الي !

— هل أنت سعيدة ؟

التفتت نصيرة اليها ، وهي تسرح شعرها الذي يبدومجعدا صعب التسريح ، وقالت بلهجة حزينة شيئا ما :

— السعادة ليست شيئا نحصل عليه ثم ننتهى منه ونبقى دائما سعداء ... هي كالحرية ، كلاهما يكتسب باستمراروتجدد ، والا فقدت الحياة معناها !

لاحظت دليلة عدم توفيق نصيرة في تسريح شعرها بالصورة التي تلائم وجهها فقالت لها :

— ألا تريدين أن أساعدك في تسريح شعرك ؟ هات الفرشاة ...

وأخذت تمشط شعرها خصلة بعد أخرى ... فقالت لها نصيرة :

— وأنت مع أهلك ، هل أنت حرّة ؟ وهل أنت سعيدة ؟

كان وجه دليلة يبدو لها في المرآة كما يبدو لنصيرة مكتملا ، يشع أنوثة وحياة وارادة . وأجابت :

— أنا أحيا حياتين ، أو اذا شئت ، أحيا بشخصيتين : شخصية من تصميم أهلي ، وأبـي على الخصوص ، وشخصية من تصميمي أنا . ولست سعيدة لا با لأولى ولا بالثانية . ولست أجد نفسي لا في هذه ولا في تلك !

— حتى في الشخصية التي صممتها أنت لنفسك ؟

— صممتها تحت ظروف قهر ! أنا أشرب الدخان ، وفي غرفتي أجذب نفسا بعد آخر بنهم ، خشية أن تدخل أمي أو أحد اخواني ، فأرمي السيقارة قبل أن أنال مرادي منها ... أشرب الخمر ، واذا شربت أحاول بكل الوسائل أن أسكر لأني أعرف أنني لا يمكن أن أكون سكرى في كل مكان ومتى شئت ... واذا كانت لي علاقة جنسية برجل اضطره حتى يكره ما يسمى بالجنس في حياته .. لأني أعرف أن بعد ذلك الاتصال قد أبقى شهورا بلا اتصال ... حياتي كلها اذن مضغوطة في لحظات ... هي لحظات سعادتي وحريتي !

— تتكلمين كثيرا عن الجنس !

— المرأة التي لا تتكلم عن الجنس هي مريضة ، أو لها عقدة !

— غير صحيح انما أنت أثثت حياتك كلها بهذه الأمور...

— أثاث حياة المرأة الرئيسي هو الرجل ...

وتذكرت ما قاله لها الرجل الذي حملها بالأمس في سيارته الى بن عكنون فأضافت :

— بالأمس ركبت مع رجل في حوالى الاربعين ، قال لي شيئا أعتقده صحيحا مائة بالمائة : قال : في كل لا وعي امرأة رجل ، وفي كل لا وعي رجل امرأة ! .

— من هذا الذي ركبت معه ؟

— لا أعرفه !

— هل تركبين مع من لا تعرفينهم ؟

— وأجامع أيضا .

— انك مأخوذة يقينا ! لوسمعت أمي هذا الكلام لطردتنا !

— لماذا ؟ لأن أباك ولدك منها بالفاتحة ؟ اسمعي الي ... أنت أكبر مني ثقافة ... لأنك تشتغلين ... ولكنك مازلت فتاة في الرابعة عشرة . لوكنت رجلا لأريتك العالم بصفة أخرى !

ضحكت نصيرة وكانت قد انتهت من تسريح شعرها ومن الاغتسال ولواحقه . وسألت :

— بأي صفة تريتني العالم لوكنت رجلا ؟

— لا تدفعيني الى الكلام الذي لم تتعود عليه أذناك ! إنني جد رهيبة ...

أتمت الفتاتان اغتسالهما وذهبتا الى حجرة الأكل حيث كانت تنتظرهما أم نصيرة . بعد تبادل التحية جلسن . وكانت المائدة تدل على أنهما وحدهما اللتين لم تتناولا طعام الافطار بعد .

قالت أم نصيرة تخاطب دليلة :

— نحن شربنا القهوة . لم أرد ايقاظكما مبكرا ... لست أدري ان كنت تحبين «المعارك» ؟ على كل أنا أعددت لكما «المعارك» ، اذا أحببتما أكلها بالمعجون والزبدة فها هي أمامكما .

فقالت نصيرة لأمها :

— لعل دليلة تحب عجة بالبيض أومقبلات ؟

— لا لا ، لا أريد شيئا ، شكرا . أريد قهوة بلا لبن !

فقالت الأم :

— لابد أن تتناولـي شيئا مع القهوة . انها تضرك وحدها . المثل يقول : فطورالصباح ربح !

— شكرا ، لا أستطيع ... القهوة وحدها .

فقالت نصيرة :

أنا أعد عجة البيض وأتحداك أن تتحكمي في شهيتك وأنت تنظرين الي وأنا آكل !

— أعدى ما شئت لست متعودة على الأكل صباحا . أشرب قهوة ليس الا !

لم يرق الأم تصريح دليلة :

— اليوم يا بنيتي لا تشربـي القهوة وحدها ... عندما تكونين في بيت أهلك افعلي ما تشائين . أنا أعد لكما « مسمنات » بالعسل ...

كانت دليلة تراقب أم نصيرة في حركاتها وسكناتها بدون أن تشعر . ولاحظت أنها تختلف كل الاختلاف عن أمها ، لا في اللباس ولا في الحديث ، ولا في أسلوب المعاملة ... ان هذه المرأة حضرية بالطبيعة . تلبس سروالا من « الجيرسي » الغامق ، على قميص بلا أكمام موشى بتطريز جزائري . تشد رأسها بمنديل حريري خفيف . في رقبتها سلسلة ذهبية . وفي أذنيها قرطين على شكل هلالين . تجر قبقابا مزخرفا من النمط العتيق . بيضاء الجسم الى درجة تكاد تجعل بياضه اصطناعيا مع اللباس ! فمها صغير ، اذا تكلمت ابتسمت وارتسمت حول عينيها خيوط متوازية مقوصة رقيقة ، تعطي لنظرها بعدا زمانيا ممتازا ! في حديثها ، في لباسها ، في هيأتها العامة ، في ملامح وجهها تبدو امرأة رصينة حيية متواضعة ! بينما أم دليلة شيء آخر ... هي عبارة عن تأليف لخصال ومميزات العظمة الريفية مع تمدن !

أكلت دليلة من عجة نصيرة و «مسمنات» ومعارك أمها بالرغم منها . وكانت العجة جيدة ، أضافت نصيرة الى البيض شيئا من المعدنوس والبصل الرقيق . كما كانت المعارك والمسمنات لذيذة خفيفة ، بالرغم من الزبدة والعسل والمعجون ... ثم قدمت الأم بعض الحلويات التي أعدتها من قبل ، وأرغمت دليلة على الأكل منها « للبركة » فأكلت دليلة ما يلزم ليومها ذاك والذي بعده !

لكن الشيء الذي أثر على دليلة أكثر من الكرم والحظوة هو عدم الفضول والتطلع لم يسألها أحد من هي ولا لماذا جاءت ولا ماذا تفعل ؟ ان سلوكا مثل هذا غريب في الجزائر ، ولا سيا بين النساء .

عادت الفتاتان الى الغرفة بعد تناول طعام الافطار . وسألت دليلة صاحبتها وهما تلبسان أثوابهما :

— واليوم ماذا تفعلين ؟

— أنا حرة الى نهاية الشهر . لي خمسة عشر يوما من عطلة السنة الماضية أخذتها الآن .

— هل ترافقيني الى القصبة ؟

— لا أستطيع ، لي أعمال منزلية مع أمي . لكن اذا شئت أوصلك الى ساحة الشهداء .

— تعلمين جميلا .

— وماذا تفعلين في القصبة ؟

— أحببت أن أزورها . سأقول لك في المستقبل لماذا !

— كما تشائين . تريدين أن نذهب الآن ؟ لعل الوقت غير مناسب ؟ ان الساعة الآن الثامنة والنصف .

— لماذا غير مناسب ؟ أذهب الآن لأعود للبيت قبل منتصف النهار .

— أليس لك دروس اليوم ؟

— لي درس واحد ، لا أذهب اليه .

— بما أنك لا تذهبين الى الدرس ، ابقي معي هذا الصباح نتناول طعام الغداء معا ، ثم بعد الظهر نذهب الى القصبة ، ومنها أوصلك الى دارك إذا شئت .

— شكرا ، لا أستطيع . ينبغي أن أعود للبيت قبل منتصف النهار .

لبست نصيرة سروالا أزرق من « الجين » على قميص أبيض بأكمام فسألتها دليلة :

— اشتريته من هنا ؟ (تشير الى السروال) .

— ومن أين أشتريته ، ان لم يكن من هنا ؟

— قلت ربما من فرنسا ...

— أنا ليس لي من يشتري لي من فرنسا . أعيش في الجزائر وألبس ما في الجزائر !

— ألا تسافرين الى الخارج في نطاق العمل الذي تقومين به في النقابة ؟

— أحيانا .

— وتعودين الى الجزائر ؟

— ولم لا أعود ؟ أتعقدين أن الحياة في بلدان الناس سهلة ؟ انه غلط ...

— ليست المسألة مسألة سهولة أوصعوبة ...

— مسألة ماذا اذن ؟

— مسألة جو !

— غلط ... لم يكن الهروب في يوم من الأيام حلا لأي قضية . علينا أن نغير نحن الجو الذي نحيا فيه اذا لم يكن صالحا ، لا أن نهرب منه !

— هذا كلام يقال !

— وهو عين المنطق !

— متى تلاقى المنطق وحياة المرأة بالجزائر ؟ تتكلمين أحيانا كمعلمى المدارس !

— وأنت تتكلمين مثل ماذا ؟

— أنا أتكلم كلام المرأة الجزائرية ، المرأة التي تحيا في مجتمع السراب .

— في المرة السابقة قلت ، مجتمع الرجال ، والآن صار مجتمع السراب!

— لك ذاكرة جيدة ... لا يغضبك كلامي على كل حال ، أليس كذلك ؟

— لو أغضبني لما بقيت معك هكذا ! لكنك تميلين الى العدوان والهجوم ...

— مزاجي كذلك . ثم اني أسمي الأشياء بأسمائها ليس الا . أنذهب الآن ؟

— اذا شئت . انتظري لحظة أسأل أميّ اذا كانت تحتاج الى شيء من الخارج ، وأعود اليك .

— افعلي .

تغيبت نصيرة برهة وجيزة ثم عادت الى دليلة وخرجتا بعد أن ودعت دليلة أم نصيرة ، وقالت لها ضاحكة ، ربما سأعود ذات يوم أسكن معكم ولو شهرا ، ان موقع سكناكم جميل . فرحبت أم نصيرة بذلك . وقالت لها : لك أن تأتي في الوقت الذي تريدين .

أقلعت سيارة « الأوستين » وانحدرت الى شارع الشهداء مع هذا الزقاق الضيق الملتوي . أعجبت دليلة بمهارة نصيرة في السياقة ، فقالت لها :

— لوأحسن السياقة لا شتريت مثلها !

— تستطيعين أن تتعلمي ، أما شراء سيارة مثلها فلا أنصحك .

— لماذا ؟

— لأن قطع الغيار مفقودة . والميكانيكيون الذين يصلحون هذا النوع من السيارات قليلون جدا .

— وماذا يهمني ان كانوا قليلين أوكثيرين ؟ أصلحها أين تصلحين سيارتك والسلام !

— أصبت . لكن قطع الغيار مفقودة ...

— أضحك معك فقط . لن أستطيع شراء دراجة . قولي ، لو طلبت العمل معك في مركز الدراسات النقابية هل أقبل ؟

— لا أدري . اذا أردت آسأل عن ذلك .

— أود أن أشتغل .

— هل يدعك والدك تشتغلين ؟

— يدعني أو لا يدع ليس مهما ذلك . المهم هو أنني قررت ان أبحث عن عمل بعد رجوعي من التطوع الطلابـــي .

تعجبت نصيرة مما تسمع ... دليلةبنت الشيخ علاوة ، عدو الثورة الزراعية تتطوع مع الطلاب ! وقالت :

— أنت تتطوعين !

— ولم لا ؟ أتطوع وأعمل وأغادر دار أبـــي في هذا الصيف ، أو ربما في هذه الأيام . الأمر موقوف على السكن . لو أجد غرفة أو شقة صغيرة لا كتريتها .

— اذن من أجل هذا أنت ذاهبة الى القصبة ؟

— نعم . قيل لي ان هناك غرفة للايجار ... لورافقتني لرأيناها معا ، ثم من هناك نذهب الى دارنا .

— لا أذهب الى داركم .

— لماذا لا تذهبين الى دارنا ؟ وانا لماذا جئت اذن معك ؟

— لا أقول لك في هذه المرة .

— لا بد أن تقولي الآن وإلاّ نزلت في الحال .

— لا أحب أن أتلاقى مع شخص في داركم ...

— مع شخص في دارنا ! من هو؟ رضا أوأبـي ؟
— عمر..

اندهشت دليلة وصفرت ، ثم قالت سائلة بتعجب :
— وأين تعرفين عمر أنت ؟

فكرت دليلة أنها لو تعرفه لعرفته البارحة في موقف تافورة ... فأجابت نصيرة :
— لا أعرفه جيدا ، انما التقينا في اجتماع بين ادارة المؤسسة التي يديرها والفرع النقابـي بها ، وأسمعني كلاما بذيئا . كلام رجل يعيش في عصر « القياد » لا في عهد التسيير الاشتراكي للمؤسسات !

هل تعلمين أن عمال تلك المؤسسة قرروا القيام باضراب لانهائي حتى يقال من منصبه ، ابتداء من يوم الاثنين المقبل ؟ سيطرد يقينا من المؤسسة ...
— وماذا يهمني أن يطرد أويقعد ؟
— أتعرفين ماذا عمل للفرع النقابـي بالمؤسسة ؟ استولى على مكاتب الفرع ليلا ، ووضع كل الملفات والوثائق في أكياس ورماها بفناء المؤسسة !

لم تجبها دليلة بشيء ، ففكرت أنها ربما آذتها بهذا الحديث ، فقالت مستدركة :

— كان من حقي أن لا أقول لك كل هذا ... عفوا !
— بالعكس ، أحسنت الي أكثر مما أسأت .
— أخبرتك بكل ذلك لتعرفي لماذا لا أستطيع أن أذهب معك الى داركم .

— لا تتحرجـي ، انك بالنسبة الي الآن أكثر من أخت !
— أنت طيبة !

ساد الصمت بين الفتاتين ، ولم يبق الا محرك الأوستين ومحركات السيارات الأخرى بشارع الشهداء ترسل الشخير والنفير. قالت نصيرة وكانتا قد وصلتا الى دار الاذاعة والتلفزيون :

— هذه هي الاذاعة ... هل تعرفينها ؟
— أنا أسميها دار «كولبو»
— ليس فيها غير ذلك على كل حال ...
— أعرف وانما أسخر.
— ممن تسخرين ؟
— أردت أن أقول أمزح ، قلت أسخر ! أتحاسبينني على هذا ؟
— لا أحاسبك ولا أراقبك إننا في شهر الميثاق !
— شهر الانفجار !
— شهر الانفجار لو تواصلت الحياة عندنا بهذا الشكل !
— دعينا من السياسة الآن. انظري الى هذا السائق الذي أمامك ...
كان حينئذ سائق يغازل امرأة ماشية على الرصيف.
— اغتنم شدة الزحام ...
— أحسن من أن يضيع وقته في لا شيء !

كان ضغط حركة المرور بساحة «أديس أبابا» ، خنق المرور ، وتوقفت السيارات في خطوط لانهاية لها ، كما تبدو من سيارة نصيرة. وأضافت دليلة :
— الجزائريون مرضى بالجنس !

— العالم كله مريض بالجنس !

— لكن بالجزائر الكبت هو الذي جعل الناس هكذا ... يسيرون بلا منطق . لو هجمت النساء على الرجال لفر الرجال أمامهن كالاغنام ، ولما رأيت رجلا واحدا ينظر الى المرأة بدون أن يخفض جفنيه !

ضحكت نصيرة ، ولم ترد على رفيقتها ، لقد أعطيت الاشارة للخط الذي هي فيه لأن ينطلق . وتمكنت نصيرة من أن تجتاز بضعة سيارات كانت تعرقلها وانقطع الحديث بينهما ليصير حديثا نفسيا منفردا ، ممزوجا بضجيج السيارات والشوارع والحياة .

* * *

- 9 -

اجتمعت ثلة من أثرياء المدينة لدى بن عبد الجليل . لقد رآى أن يدعو بعض معارفه الأشد ثراء أو نفوذا لأمسية خاصة ، سماها «أمسية أندلسية» بمناسبة زفاف ابنته دنيا ، قبيل الحفل الرسمي المعين ليوم السبت . ان المناسبات التي من هذا النوع جديرة بأن لا تضيع . فالقضايا الهامة لا تعالج بنجاح الا في غير اطارها ، أو بين كأسين كما يقول الفرنسيون !

وأعد لها كل مالذ وطاب وأمتع . واختار مكانا لهذه الأمسية باحة بالبستان أعدت خصيصا لمثل هذه اللقآات . بها فسقية تتوسطها فوارة ذات ثقوب عديدة يتدفق منها الماء الى أعلى ثم ينثني على نفسه في خيوط فضية لألاءة .

جدار الدار الذي أقيمت قربه هذه الباحة زخرف بفيسفاء قديمة ، في وسطها لوحة أثرية رومانية ، بها صور عربات تجرها أبقار ، تناسقت ألوانها وتجانست الأشكال . في كلا الجانبين للباحة تقوم أعمدة من رخام . جيىء بها من أحد المدن الأثرية الرومانية التي تمتلىء بها أرض الجزائر . نصبت فوق الأعمدة قضبان حديدية تربطها أسلاك لتكون مهدا لورود وزهور وياسمين . فتشابكت الأغصان بالأغصان وتعانقت عناقا في غير حذر ، أمكن للفرع هنا أن يتدلى ، وللغصن

هناك أن ينزل وتكّون من ذلك سقف زهري متجانس يظل ويمتع ويتضوع عطرا كريما !

بلطت قاعة الباحة بآجر ، تزاوجت بيض مربعاته بالسود ، فشكلت سجادة مترامية الأطراف .

في صدر الباحة ، قرب الفسقية جلس المغني ذو الصوت الرخيم ... والى جانبه فرقته الموسيقية المتركبة من فنانين هم عماد ما تبقى من خيرة عازفي الموسيقى الأندلسية بالجزائر . هذا يمسك عودا وهذا قويترة ، وذاك ربابا والأخر كمنجة بينما الذي بجانبه أمسك بطارٍ حساس ، أقل نقرة تثيره فيهتز كالمحموم ! صاحب الطبلتين الصغيرتين يمسك بعودين رقيقين رشيقين ، على أهبة للنقر بهما على الطبلتين اللتين تتحدثان عن ذكريات ماض سحيق ...

المدعون اتخذوا مجالس لهم على طول وعرض القاعة ودورانها بالفسقية . باقات الزهور التي جاء بها المدعوون اتخذت أماكنها كالنجوم ، أو كالفواصل بين جمل غرامية ملتهبة . الجو كله روعة وكله شاعرية وكله امتاع .

انتظر الناس المغني وتساءلوا ترى ماذا سيفتتح به ، وماذا سيغني ؟ أخذ كمنجته وأشار الى عازف العود ، واذا باستخبار رقيق ينطلق من الأوتار موتورا حائرا . لكن بعض من لهم خبرة بالموسيقى الأندلسية الجزائرية لم يتحيروا كثيرا في ادراك المقطوعة الشعرية التي ستتبع بعد لحظات هذه الأنغام . فحيوا برؤوسهم مرحبين بما اختارهم المغني ...

فيبدأ هذا بلحن هو العذوبة في أصفى معانيها ، ومع اللحن تتركب الكلمات الشعرية شيئا فشيئا ... ويفهم من لا يعرف الأغنية أنها :

كم بعثنــا مــع النسيـم سلاما للحبيب الجميـل حيث أقامـا
وسمعنا الطيور في الروض تشـــدو فنقلنـا عــن الطيــور كلامـا

في طبع الزيدان .

ظن الحضور أن المغني سيستمر في الزيدان ، ولكنه فاجأهم ... لقد انتقل الى نوبة الذيل ، وراح يقدم لهم بصوته العذب من الألحان ما ألبس عليهم أمرهم ! كان ينظر الى الأرض في خشوع وتبتل الى ألحانه . أصابعه تتحرك على أوتار الكمنجة بحنان ولطف ، تداعب عنقها ، بينما كان القوس الصغير يغدو ويروح ثملا على خصرها ومن كل ذلك تتألف الألحان العذاب الرقاق التي جعلت الشيخ علاوة يشعر بنشوة ووجد صوفي غريب !

والتقى الحضور في تلك السماوات العلى من الفن الأندلسي بالماضي روحا لروح كما تصوره لهم أخيلتهم . وجالسوا في تلك اللحظات القصار الخارجة عن الزمن ملوك الأندلس في أبهاء قصورهم ، حيث الحور العين تتثنى بين أيديهم في رشاقة وخفة . يضاحكنهم ويداعبنهم بالكلمات الحلوة تنسى الهزائم وتنسى الدسائس التي أخذت تنخر ملكهم . ويقدمن لهم بين الكلمات كؤوسا داهقات ... أنسِـي الحضور في أنفسهم وفي دنياهم ، وحلقوا في ملكوت نوبة الذيل في نشوة بحيث أنه لما انتهى المغني من الأداء ساد الصمت فترة . ثم قال أحد هواة الموسيقى الأندلسية الى الشيخ علاوة :

— لكل قوم « تنتنتهم » يا الشيخ !

(في آخر الأغنية مكان يزوق فيه المغني بصوته كلمات الأغنية ، يسميها أهل العاصمة بالتنتنة) .

فأجاب الشيخ علاوة بتنهد :

— هذا عالم محرم على الأشقياء ...

وأضاف سرا : « لا يعكر صفو من فيه لا ميثاق ولا اشتراكية ! »
لكن عبد الكبير لاحظ بابتسام :

— نحن لانحرم على أحد أن يدخل هذه الرحاب . انما هم الذين حرموا على أنفسهم ماليس بالحرام ...

فقال الشيخ علاوة :

— حرم عليهم شقاؤهم هذه النعمة .

والتفت الى المغني مادحا :

— انك أتحفتنا ، نقلتنا الى ماض مجيد ...

وراح يناقشه في بعض التحريفات التي لحقت بنص القطعة .

وكان حينئذ كريمو متنقلا بين المدعوين سائلا هذا مستمعا الى الآخر ، متقمصا دور الفتى المهذب الحيي ! وأحياناً يناديه أبوه ليقدم له بعض معارفه الذين لا يعرفهم أو الذين تغيرت حالتهم الاجتماعية ولم يكن عالما بها .

وأخذ الحديث ينعقد بين المتجالسين ، جماعات ، جماعات ...
هذا اغتنم الفرصة ليتوسط له في الحصول على عطلة مرضية بالخارج وهذا يود أن يوصي على ابنه الذي التحق بالقضاء ، وهذا يبحث عن الحصول على بعض الأطنان من الاسمنت ليتم البناء « المتوقف » ...
وكان الاسمنت من المواضيع التي ترددت أكثر !

في حين كان الشيخ علاوة غارقا في ميدان آخر ، كان يحكي بتعديل وقائع بعض الاجتماعات التي حضرها عن الميثاق الوطني . فقال :

— قلت لهم ان الاسلام هو دين محمد ، والاشتراكية هي دين أحد المشردين اليهود ... لو عاش ماركس في عهد دولة اسرائيل لكان أحد روكفيلرات العالم اليوم !

فهون عليه محدثه الأمر :

— لا تتحير يا الشيخ ، الميثاق لا يخيفنا . الحكومة تنوي به الخير للشعب والشعب لا يصوت عليه كما هو... والسلام !

— الشعب يصوت على كل شيء ...

— اذا صوت عليه ، فنحن في العالم الثالث ... كم رأينا من ميثاق !

فقال الشيخ علاوة معربا عن اخلاصه للوطن :

— نحن نسعى لبناء جزائر لا يلعن ماضيها حاضرها . والغريب ، أن شباب اليوم يعتقدون أننا جئنا للحياة هكذا طفرة ، بلا طفولة ولا شباب! اننا نقول ما نقول عن تجربة وعلم . العرب أصحاب كبرياء لا يبيعون دينهم بأي دين ... ! ما معني أن يذهب الطلبة للحقول ؟ والفلاحون ما يعملون ؟

فأجابه الرجل ضاحكا :

— يأتون للجامعات !

علا الضحك وراق الجو فرقت القلوب وتواددت وترقرقت دموع التفاهم والتحالف في المآقي ... وبرد الشيخ علاوة غلته وغليله . فقال

كل ما لم يهتد الى قوله في اجتماعات الميثاق . وأنسى في قضية الرسائل ، ولو الى حين . وفي الحقيقة كانت هي النقطة السوداء التي غطت ما سواها ، وجعلت للحياة مذاقا حزينا لديه ، انه يتنهد أحيانا دون أن يشعر !

وأقبل عبد الكبير صاحب الوليمة فقال للشيخ علاوة :

— الشيخ ، من تقاليد عائلتنا ، أن يقرأ المفتى بصفة رمزية خطبة النكاح ، ونحن اليوم أنت مفتينا وأنت الامام . هذا صديقنا سي بوبكر القهواجي أبو العريس ، وهذا صهرنا السيد حسن نائب وكيل الجمهورية ...

ونادي لابنه : كريمو ، تعال !

أقبل كريمو في أدب جم ، وصافح من التف حول أبيه من جديد . وقال عبد الكبير :

— الشيخ ، العقد مكتوب ، والطرفان متراضيان ، وما نعمله الآن هو رمز لتمسكنا بتقاليدنا . لكن اذا أردت أن أنادي البنت ناديتها ! أنت صاحب الأمر .

فرد الشيخ علاوة بلهجة المذعن لما يؤمر به :

— لا لا . حاش لله : حضورك أنت هو المهم . أنت الولـي .

فطلب اليه عبد الكبير أن يتوسط المجلس الذي أعد لهذا الغرض :

— الشيخ ، تفضل .

اتخذ الشيخ علاوة مكانه بالمجلس المعين له ، وطفق يقرأ خطبة النكاح المشهورة التي قيلت في خطبة خديجة للرسول . ثم رفع كفيه تاليا الفاتحة وتمنى في النهاية الخير والرفاء والبنين .

ولما انتهي من كل ذلك أطلقت طلقات نارية من بعض أقارب العريس وتبودلت التهاني وانطلق صوت المغني وفرقته بأغنية تقليدية تغني في مثل هذه المناسبات . بينما ارتفعت ولولات النساء بالبيت وعلى الباب الخارجي حيث وقفت مجموعة كبيرة يشاهدن من بعيد هذا الطقس . وصب الماء بالسكر للحاضرين ، ورشوا بماء الورد ... وشاعت الغبطة وعم الانشراح .

وبعد أن انتهى المغني من الاغنية التقليدية اقترح عليه بعض الحاضرين أن يغني مقطوعة مشهورة في الموسيقي الاندلسية ، عنوانها :

تحيا بكم كل أرض تنزلون بهـــا   كأنكـم في بقاع الارض أمطار .

وهي قطعة تنسب الى الشاعر الاندلسي ابن خفاجة .

واقترح الشيخ علاوة أن تغني في طبع الزيدان ، فاستحسن ذلك منه . وقال أحد هواة هذه الموسيقى :

طبع الزيدان هو الذي اقتبس منه الموسيقار الفرنسي الكبير « سان سانص » قطعة لبـاليـة المشهور : « شمسون ودليـلـة » .

هام المغني بصوته في عالم الزيدان الذي يتطلب من النفس أن يطول مهما طال . فأمتع سامعيه الذين كانوا معه في تجاوب كامل

في نهاية الأمسية أخلى جانب من الباحة ، وضرب سماط يتكون من عدد من الطاولات مفروشة بالحشائش والزهور وأوراق الكروم ، وجيىء بالبصل الطري والخبز والمناشف . ثم أقبل حملة الخراف المشوية في موكب تشبثت به الابصار ! كانت الخراف سبعة ، شويت خصيصا لهؤلاء الخلان . ومثلها قدم للنساء ... وضع بأفواهها ورق الخس ، ونصبت على الخوان كالقطيع المتتابع .

تقدم المدعوون بابتهاج اليها :

في الجانب الأقصى للباحة ، وقف ساق تحت شجرة تغطي بخمائلها المكان تحتها عين جارية في حوض صغير . وضعت حواليه صناديق النبيذ ، بعيدا عن الأعين التي تتأذي من شرب الخمر . بين الفينة والاخرى يتسلل الى هناك أحد المدعوين !

اللياقة تقتضي أن لا يعصى الله جهارا في بيت من بيوت الأكابر !

* * *

- 10 -

لو لم يكن الشيخ علاوة منغصا ، بل محطما من الرسالة التي جاءت إلى نعيمة لحكى الليلة الغرائب عن الأمسية الأندلسية التي حضرها ، والتي كان فيها محل التبجيل والتعظيم من طرف المدعوين ومن طرف بن عبد الجليل لكن الرسالة اللعينة تذكره كلما حاول أن يبتسم بأن عليه أن يتجهم ، وأن حياته لم تعد ابتساما وانما هما وحسرة .

انه يتعجب من حالة نعيمة الوادعة المطمئنة ! ها هي ذي تجلس الى جانب دليلة بالصالون ، تهامسها وتضحك ! وتساءل في نفسه : « ترى ما يضحكها ؟ » وفكر أنه لوكان له أن يصرح أمام أفراد أسرته ، أن هذه البنت التي تجلس بينكم لعينة ، تحمل في جوفها لقيطا ، لقاموا نساء ورجالا ورجموها ! لكنه لا يستطيع أن يصرح لأحد . ونعيمة لا تدري ، والكل لا يدري . وسألت العجوز كلثوم الشيخ علاوة :

— لماذا دعاكم هذه العشية وتصدير العروس غدا ؟

كان الشيخ علاوة بصدد عد حبات مسبحته فتوقف ليجيب بشيء من الانكار :

— انها دار بن عبد الجليل ، ليست دار أحد من الناس ! هل

تريدين أن يدعو خاصته من أعيان البلد مع أي كان ؟ هل أقبل أنا أن أحضر أي حفل ومع أي مدعو؟

— سألتك لأن العادة ليست هكذا .

— من أين تعرفين أنت العوائد ؟ انها اسرة من الاسر التي تسطر للناس عوائدهم !

فكرت دليلة أن أباها «يعشق» أسرة بن عبد الجليل . وسألته تهكما :

— ماذا يعمل بن عبد الجليل ؟

فأجابها في امتعاض :

— ماذا يعمل ... هل هو في حاجة الى عمل ؟ انها أعرق أسرة في الجزائر !

— لماذا ، هل الأسر العريقة لا تعمل ؟

— يعمل الفقراء أمثالنا ! أما بن عبد الجليل لا يعمل . الناس يخدمون عليه ، الحكومة نفسها تخدم عليه !

لم يرق رضا كلام أبيه ولا سهرة الليلة بالصالون كلية فخرج . وكانت نعيمة تود في أعماقها لو بقي ، لأنها تشعر أن حضوره كالدفء للمقرور !

وطفق الشيخ علاوة يثني على بن عبد الجليل وابنه كما لو أنهما مثال الأخلاق المستقيمة وقال :

— عندما طلب لي لأقرأ خطبة النكاح ، قال ، «انها التقاليد ، نريد المحافظة عليها ... وبما أننا في الجزائر لا مفتي لنا فأنت المفتي وأنت الامام ! » .

فقال له مراد مستغربا :

— ولكن أنت لست قاضيا ولا مفتيا ، لماذا تقرأ له خطبة النكاح أو غيرها ؟

— أنت ياولدي طبيب ، لا تعرف هذه الأمور. انه تبجيل لي أمام الناس ولو شاء لأتي بمفتى من مصر لقراءة خطبة النكاح ! لو تعرف الرجل لغيرت رأيك فيه !

فقال مراد كالمتبرى :

— أنا لا رأي لي فيه ولا في غيره .

— ومع أن الواجب يقتضي أن تتعرف على أعيان الناس ... ان هذه العائلة يسعى الناس بمختلف الوسائل لربط صلاتهم بها .

فكر عمر أن يؤيد أباه فقال :

— هو الذي رفض مصاهرة أحد الوزراء السابقين !

فأكد الشيخ علاوة بسرور قول ابنه :

— ابنته الكبرى ... رفض رفضا قاطعا أن يصهر لرجل لا ينتمي الى أسرة عريقة ولو أن الظروف جعلته وزيرا !

قامت دليلة فغادرت الصالون وكذلك نعيمة . فلم يريا فائدة في السهر على مدح سخيف ...

وواصل الأب حديثه محاولا التأثير على مراد :

— غدا عندما تذهب لا زجاع أمّك وأختك سترى حال هذه الأسرة بنفسك . كل حديث عنها لا يفي بمحامدها .

— وماذا يهمني فيها أن تكون عظيمة أو حقيرة ؟

— قد يهمك من حيث لا تدري . الحياة فيها كل شيء ، ولا يخسر المرء عندما يتعرف على الأخبار .

أدرك عمر أن أباه ينوي شيئا ما . وأن ثناءه هذا مرتبط بغاية يسعى اليها بصفة غير مباشرة ، فقال :

كم له من بنت سي بن عبد الجليل ؟

نظرت مني اليه بكل عينيها ! وتساءلت بحنق . : « لماذا يسأل كم من بنت لهذا الرجل ؟ » .

فأجابت الأم بسرعة :

— له ثلاث بنات . الوسطى هي التي تزوجت ، وبقيت الكبرى والصغرى . لكن وهيبة هي أجملهن .

فسأل عمر :

— وهيبة ؟

— البنت الصغرى . انها أجمل فتاة في الجزائر .
فسأل مراد :

— ماذا تعمل ؟

فأجابه الشيخ علاوة ضاحكا :

— يارجل ! الناس لا يسألون عن بنات سي عبد الكبير ما يعملن ؟ انهن الجزائر ! ا

فقال الطبيب بشيء من البلاهة :

— ولماذا لا ؟ هل الجزائر لا تعمل ؟

ضحك عمر وضحك الشيخ علاوة وقال :

— من الجزائر التي تسأل عنها ؟ جزائر الطب المجاني ، أوجزائر العظماء ؟ الجزائر الحقيقية لا تعمل !

لكن العجوز كلثوم رأت أن الوقت مناسب لا خبار شيخها وأولادها بما دار من حديث بينها وبين أخت عبد الكبير بالحمام أمس ، فقالت :

تكلمت أنا وعمتها ... وفهمت من حديثها أنهم لا يرفضون لنا طلبا لو تقدمنا الى خطبتهم .

فسأل الشيخ علاوة باهتمام ليتأكد :

— قالت لك ذلك ، أم أنت التي توهمت ؟ ...

— قالت لي أنها ستحدث أخاها وزوجته في الموضوع اذا عزمنا نحن ...

— انها فرصة عظيمة ، علينا أن لا نضيعها .

وخاطب مرادا :

— اذا أردت الحسب والنسب والتربية الحسنة وكل شيء فانك لا تجد بالجزائر ولا بغير الجزائر عائلة أعظم .

فرد مراد بدهشة :

ـــ وماذا يهمني أنا في عظمة هؤلاء الناس ؟ أنا لا أفكر في الزواج !
فأجابه الشيخ علاوة في سره بغضب : «أنت تهملك ديدي ! » .

لكن عمر أراد أن يظهر لأبيه مشاطرته رأيه ، ولو أنه لا يهمه أصاهر مراد بن عبد الجليل أم لا . فقال :

ـــ الزواج لرجل مثلك أتم دراسته وهو الآن يتحمل مسؤولياته الاجتماعية أمر مهم . والبنت كما قالت أمي صالحة (يريد أن يقول جميلة ...) .

فقالت الأم :

ـــ البنت أعرفها ، هي أجمل فتاة رأيتها في حياتي . كل الناس يتحدثون عليها ! لكن مراد بقي متحيرا من هذا «الهجوم» المشترك بين أبويه وأخيه ، واندهش أن يكون تفكير هم في زواجه مستوليا على نفوسهم الى هذا الحد ! وقال :

ـــ لكن قضية الزواج لا تهم أحداً غيرى . ثم كيف يمكن أن أفكر في الزواج من امرأة لا أعرفها ؟

قدر عمر أن الفكرة أخذت طريقها في نفس أخيه ، ولو لم يشعر . فقال :

ـــ اننا في مجتمع مازال يحترم التقاليد بالرغم من كل التحريفات التي طرأت عليه والتعرف على بنات الأصول مباشرة نادر . نحن لا نحاول التأثير عليك ولا ارغامك على الزواج بإ مرأة لا تعرفها . لو فرضنا أنك أحببت الزواج سواء من هذه البنت أو من بنت أخرى ، فلا بد من تعرفك عليها قبل كل شيء . فلا ينبغي أن تفكر مطلقا فيما لم نفكر

فيه ! الزواج يهم صاحبه بالدرجة الأولى . لكننا نتحدث عن الزواج ونتحدث عن غيره هذا شأن الأسر .

أعجب الشيخ علاوة بلباقة ابنه الأكبر وقال مؤكدا :

— نحن كل ما نفعل ، هو الفات نظرك لما قد لا تعرفه . أنت كطبيب لا يمكن لك أن تعرف ما يجري في مجتمع كمجتمعنا يتحول كل يوم .

وأضافت الأم بصراحة :

— أنت ولدنا قبل أن تكون طبيبا ، وقبل أن تكون رجلا . هذه البنت لن تجد غيرها في الدنيا ، والزواج لابد منه ، ان لم يكن اليوم فغدا . لماذا لا تغتنم الفرصة ؟ اذا أردت أن تتعرف على الفتاة هذا أمر سهل ومشروع ! ... .

فقال الشيخ علاوة قبل أن يتمكن مراد من الكلام :

— هذا كلام وجيه . أمك لا ترضى لك سوى الخير !

لم يدر مراد ما يقول ، والتفت الى زبيدة محاولا أن يبدى عجبه من أهله لها لعلها لا تشاركهم في رأيهم . لكن زبيدة لم تتدخل في الموضوع ، ولم ترد أن تناصر أو تعارض ...

فقال كالمتأسف :

— أنتم تتكلمون على الزواج ولا تعرفون ما يترتب عليه ...

فسأل الشيخ علاوة :

— في أي باب ؟ من الناحية المالية نتعاون ، من ناحية السكن نفرغ لك حجرتين ...

فرد مراد ضاحكا :

— تعتقد أنني عندما أتزوج أبقى هنا ؟ لا ، لن يكون . أتزوج عندما تكون لي بيت ، وأكون قادرا على كل شيء . تظنون أن الناس يقبلون مصاهرة رجل يسكن عند أهله ؟

فقال الشيخ علاوة في شيء من الخيبة :

— نحن لا نتكلم لغة واحدة ... نحن نرى أن بنتا مثل هذه لن يمكن الحصول عليها كل يوم ، أنت تتكلم على البيت ! اذا أردت أن تبني دورا ثالثا لك وحدك من يمنعك ؟

— يمنعني مالا أستطيع أن أعبر لك عنه ... أنا في حاجة الى سكن بعيد عن اهلي ، لأبقى دائما أعزهم . أتعتقد أن سكنانا هذا لوكنا جميعا متزوجين يصلح ؟ .

فقالت الأم بنفس الخيبة ، لكن بذكاء :

— نحن لا نتكلم عن سكناك أين ، نتكلم عن الزواج ... نتكلم عن فتاة لن تجدها من بعد اذا ضيعت الفرصة ... أما السكنى أنت حر.

— أنا حر لوكانت لي سكنى !

فنصح عمر للجميع :

— دعوه يفكر في الموضوع . القضية تحتاج الى تفكير والى وقت .

فتساءلت الأم :

— وأنا غدا كيف يكون موقفي ؟

فهون عليها عمر الأمر :

— أنت غدا لست خاطبة ... أنت مدعوة لحفل زفاف !

تكلمت منى مبدية تحرزها من هذه الدعوة لمخالفتها للتقاليد الجارية بالعاصمة :

— لم أعرف في حياتي دعوة بهذه الصورة ! المعمول به في الجزائر هو أن الرجال يدعون الرجال ، والنساء النساء . لوكنت أنا لما ذهبت لزفاف مثل هذا .

فرد عليها عمر :

— أنت لا يعنيك الأمر ولا نريد أن نسمع رأيك !

لكن العجوز كلثوم استدركت :

— ما قالته صحيح . لكننا نحن أيضا لنا تقاليدنا . وكل معارفنا يعرفون أن الدعوة عندنا توجه الى الرجال وتشمل النساء والرجال ... ثم ان لي مصالح خاصة في حضور هذا الحفل !

فسأل الشيخ علاوة :

— هل أوصيتم على الحلواء ؟

فقالت العجوز كلثوم :

— من أوصى ؟ أنت الذي كان من المفروض أن يتصل بالحلواني ؟

— نسيت تماما . وكيف العمل ؟

فقال عمر :

— أنا أتصل غدا صباحا بالحلواني . لا داعي للقلق .

— لكن المفروض أن يعدها لنا خصيصا !

— ما الفرق ؟ القضية قضية ثمن ليس الا . أنا أعرف حلواني وهو يعد لي خبزة لائقة .

قام مراد مغادرا الصالون وتبعته زبيدة وكذلك منى . وبقي عمر والشيخ علاوة والعجوز كلثوم لمواصلة الحديث بينهم عن قضية خطبة بنت عبد الجليل . وكان عمر قد ارتأى أن أحسن طريقة لاخراج اخوانه من البيت هي الزواج . لم يفكر فيها من قبل ، ولكنه في الحديث مع مراد أدرك أنها أقوم سبيل !

* * *

- 11 -

نزعت زبيدة ملابسها العادية وارتدت ملابس الزينة التي كانت عبارة عن فستان حريري خالص ، أسود اللون ، بورود طويلة السوق ، قائمة من أسفل على خطوط رقيقة أفقية ، سمقت في عناق الى مستوى الفخذين . ألوانها مركبة من الأحمر القاني والأبيض المائل الى الدكنة والأخضر المصفر . وحوالـي كل وردة ضخمة مدت أغصان رقيقة بحبيبات تشبه حبات اللوز قبل الادراك .

أعجبت نعيمة بالفستان وبذوق الرسام الذي رسم الورود على هذا اللون الأسود الذي تزاوج مع بياض بشرة زبيدة وشعرها الأسود الفاحم .

لم تكن زبيدة بالرقيقة الهزيلة ، ولا بالبادنة . كانت بين بين . لبست سلسلة من ذهب ثخينة عريضة ، هي الى العقد أقرب منها الى السلسلة ، وسوارا وقرطين وخاتما محلى بفاروزات . فأضافت للألوان الأولى توشية جد جميلة . .

فكرت نعيمة أن هذه المصوغات تشكل طاقما واحدا . وأنها في مكانها من جسم زبيدة تشكل كلا متكاملا . أعطى لها جاذبية لم تكن تعرفها لها !

ثم تجملت تجميلا خفيفا لم يتجاوز الحد ، الامر الذي دفع نعيمة إلى ابداء ملاحظتها علانية :

— أنت على الأقل لا تتجملين بقناطير من الأصباغ كما تفعل بعض النساء في مثل هذه المناسبات !

— قبل اليوم كنت مثلهن أتجمل بقناطير من الأصباغ كما تقولين ، ولم أكن أدري أن الجمال هو في احتشام الألوان وانسجامها مع الكل..

— انك هكذا فعلا جذابة !

فأجابت زبيدة بضحك ينطوي على نغم حزين :

— من أجذب ؟ فات الحال ...

— لم يفت ، لست عجوزا .

— أتعتقدين ؟ لو قدر لي أن أتزوج لما تزوجت الا برجل عجوز.

— لماذا ؟

— من يخطبني في هذه السن ؟ أنا لا أخرج . اذا خطبت أخطب من طرف الأمهات والأخوات وهي يقلبن المرأة كما يقلبن الخضر والفواكه بالأسواق !

جاءت ذات يوم تخطبني امرأة ، وكنت حينئذ نحيلة فجستني كما تجس الشاة وقالت : يا بنيتي ، الرجل الذي يتزوجك لا يجد فيك شيئا !

— هكذا ؟

— أقسم لك !

أقبلت الأم تستعجل ابنتها قائلة :

— الساعة الثانية وخمس وعشرون دقيقة . اذا تأخرنا دقيقة واحدة أخوك يتركنا . عجلي !

— أنا جاهزة .

لاحظت نعيمة أن ملابس زوجة عمها أظهرتها كامرأة بادن أكثر مما هي عليه في الحقيقة .

أخذت زبيدة شالا فوضعته على كتفيها العاريين ورفعت حقيبتها اليدوية واذا ببوق سيارة عمر ينطلق بتصفيرات تستعجلهما . فتنزلان ، وتذهب نعيمة الى الشرفة المطلة على النهج لتراهما من هناك . فتجد عمر يصيح على أخته لأنها لم تتلحف . وأمه تستعطفه وتهون عليه الأمر . بينما زبيدة تستعد للعودة الى البيت ! وأخيرا تنتهي الخصومة فتركب المرأتان . وتقلع السيارة اقلاعا غاضبا ، جعل المحرك ينفجر بصوت مزمجر بسرعته الأولى حتى أزعج بعض السكان . فانفتحت نافذة في الجهة المقابلة ، على شاب لا يرتدي الا تبان سباحة ، راح يتابع السيارة المنطلقة التي عرجت الى اليمين سالكة النهج المقاطع ، حتى غابت عن النظر ثم نظر الى نعيمة وهو يبتسم ويشير بأصبعه الى رأسه ، معبرا لها عن جنون سائق السيارة .

دخلت نعيمة وأغلقت النافذة وصعدت الى غرفة دليلة فوجدتها نائمة فعادت الى غرفتها لا تدري ماذا تفعل . وحانت منها التفاتة الى الملابس التي نزعتها زبيدة فرأتها وسخة ، وكذلك أزر الفراش فقررت أن تغسلها بدل البقاء بلا عمل .

في المغسل وجدت مرجلا نحاسيا ممتلئا بالثياب ، تركت في الماء والصابون الدقيق ليسهل غسلها . فرأت أن تغسلها كلها .

كان الغسيل خليطا من أثواب الرجال والنساء . فشرعت تغسل على مغسلة عالية ، وهي واقفة ، تفكر في الحديث الذي جرى بينها وبين زبيدة حول زواجها ، ثم في خصامها مع أخيها لأنها لم تتلحف .. وفي حياتها هذه الجديدة بدار عمها التي ستنتهي مع انتهاء السنة الدراسية ، وفي مسائل أخرى ترد على ذهنها تباعا . ومضى عليها وهي كذلك حوالى نصف ساعة ، واذا بصوت يقول لها هامسا :

«أنت طيبة ، تغسلين تباني ...» ثم يمسكها من كاضنتيها ، فتقفز ، وتجد الرجل قد احتضنها وهو يبتسم مشيرا لها أن لا تخاف وأن لا ترفع صوتها . فتذهل ! انه عمر ... فدفعته عنها بقوة . وحذرته بصوت أبح :

«ابتعد عني والا صرخت ! » فلم يستجب ، وظنها لا تلبث أن تذعن وقال لها : « لاتخافي ، أنا أحبك . لا أريد الآن منك أكثر من قبلة » وحاول من جديد ضمها اليه فدفعته مرة أخرى بكل مافيها من قوة . وفي تلك اللحظة بالضبط نزلت منى من الدور الثاني ، لأنها سمعت سيارة زوجها ، وداهمها الشك أنه بصدد عمل ما . ولم يكذبها حدسها ، فقد وجدته في محاولته الآثمة مع نعيمة . وما إن رآها واقفة بالممر حتى غير الدور ، وصفع نعيمة ، كما لو أنها هي التي اعتدت عليه ، وهو يقول بقوة :

— أيتها اللئيمة ... وصل بك التهور الى هذا الحد !

وصفعها ثانية وثالثة ، بحيث لم يدر ماذا يفعل سوى الصفع ، ولسانه يردد :

— أعلمك أن لا تعودي لمثل هذا أبدا . أنا أخوك لوكنت تستحين .

خلصت نعيمة نفسها منه بعسر ، واندفعت جارية في الممر ، ويداها مبللتان بالصابون ، وتنورتها معقودة في حزامها ، بحيث كان قميصها الداخلي باديا ، وهي كالمشدوهة ، لم تدر بماذا ابتليت !

فاعترضتها مني شاتمة ساخطة ، تقول بأعلى صوتها :

— عرفت منذ مدة أنكما تتعاشقان . أيتها اللعينة ! احتضناك كالأفعى ! لن أقبل بك هنا دقيقة واحدة ، والا غادرت أنا هذا البيت !

فردت عليها نعيمة والغصة تخنقها :

— لست أنا ، أقسم لك ... اعتدى علي ! انظري الي ...

لكن منى لم ترد أن تسمع شيئا ، وراحت تكيل لها الشتائم . وبالرغم من تأكدها بأن زوجها هو المعتدي ، الا أنها رات أن وجود نعيمة بالبيت هو الذي أثاره . ثم انها لا تستطيع أن تيتم أبناءها بسبب حادث مثل هذا ... واقتربت من باب غرفة الشيخ علاوة وهي تقول لنعيمة :

— ظننتنا نائمين ! حسبت أن الجو خلالك ... أنت لئيمة تعشقين زوج غيرك لن أقبلك هنا أبدا !

حاول عمر أن يهدئها قائلا :

— عودي الآن الى غرفتك . أؤكد لك ، لن تبقى معنا في هذا البيت . عودي الى غرفتك واسكتي .

خرج الشيخ علاوة من غرفته منزعجا ، لا يدري ماذا وقع :

— ماذا جرى ، ماذا وقع لكم ؟ ماهذا الصراخ ؟

فقالت له منى متباكية :

— اسأل ابنة أخيك . أسألها ماذا عملت . جاءت الينا لتخرب بيتنا ... انها ارتمت في احضان ابنك !

حاول عمر عبثا أن يمنعها من هذا التصريح ... فدفعته وهي تقول :

— لا ، لن أستحي . هي أو أنا . اذا أردت أن تتزوج بها طلقني !

لم تقو نعيمة على البقاء بالممر ، دخلت الى غرفتها في أقصى حالات الفزع والاضطراب والخجل من عمها .

لكن الشيخ علاوة لم يفهم فهما واضحا ما وقع . خيل اليه أن الأمر يتعلق بنعيمة وعمر ، ولكنه لم يدر ماذا بالضبط ؟ وسأل من جديد ، وهوينظر الى ابنه مرة وأخرى الى منى :

— ماذا وقع ؟ قولـي أنت ؟ ماذا وقع ؟

فأجابه عمر :

تلك اللعينة التي اعتبرناها كأخت بيننا تعدت كل الحدود . لم تحترم لي أخوة ولا سنا . انها جنت ... لا أقدر أن أقول لك أكثر من هذا . ذهبت لأغسل يدي بالمغسل ، لأن حجرة الاغتسال كانت مغلقة ، فوجدتها هناك ... انها جنت ! لم أكن أدري أننا آوينا بنتا مازالت في مستوى العجماوات ... وقالت منى :

— وجدتهما متعانقين !

— صفعها عمر ، وقال بعنف :

— أنت أيضا جننت ؟ عودي حالا الى غرفتك !

— لن أعود . هي أو أنا ...

أدرك الشيخ علاوة مضمون الخصومة ، فاشتط غضبا ، وتأكد لديه أن الرسالة التي جاءتها ليست عبثا . وقال يطيب نفس منى ونفس ولده :

— بالله العظيم ، ونبيه الكريم ، لن أدعها في هذا البيت . الآن أكلم أباها يأتي اليها . عودي الى أولادك ، بنيتي . أنت عزيزة علينا ! عودي ... لن أدع هذه المتوحشة بيننا . لتحي في غابتها أو لتذهب الى الشيطان !

سمعت دليلة الهرج فنزلت . وقد سمعت قسم أبيها ، فسألت منى فدفعها عمر :

— هذا أمر لا يهمك . امشي في حالك !

لكن دليلة كررت سؤالها ولم تعبأ بما قال أخوها :

— ماذا وقع ! منى ؟ قولـي !

فأجابتها متباكية :

— أسألي ابنة عمك !

فردت دليلة بقوة :

— كذب ! تكذبون عليها !

ونظرت بغضب الى أخيها . فهددها بالضرب :

اغربـي من أمامي والا أفسدت وجهك !

لكن دليلة لم يخفها تهديده ، وخاطبت أباها :

— يكذبان عليها ، يا أبـــي !

هجم عليها عمر وصفعها . فتدخل الشيخ علاوة ليفك بينهما . وقالت دليلة تحذر أخاها :

— أياك أن تعود الى هذا أبدا ! سأفضحك أمام زوجتك !

حاول عمر مرة أخرى أن يهجم عليها ، لكن الشيخ علاوة رجاه بالحاح أن يدع له الأمر . وصاح على دليلة :

— أيتها اللعينة ! أتصل بك الوقاحة الى تهديد أخيك . اذهبـي من أمامي عليك اللعنة !

تركتهم دليلة وذهبت الى نعيمة ، فوجدتها منبطحة على السرير تبكي بكاء مرا ، وتنورتها ما تزال مشدودة في حزامها . فأدركت دليلة أنها لوكانت لها يد فيما اتهمت به لما بقيت في هذا الوضع ! وتأكدت من أن أخاها اعتدى عليها وهي منهمكة في عملها . جلست على السرير ازاءها تربت على كتفها . لكن نعيمة كانت في لوعة مرة . لقد شعرت أن الدنيا أطبقت عليها ! لم تكن تظن أن تهور ابن عمها يتجاوز المغازلة بالايماء والتلويح الى الفعل . وقض نفسها أن تكون محل الفضيحة أمام عمها وزجة ابن عمها وكل أفراد العائلة الذين سيعلمون الواحد بعد الآخر بدون أن تكون لها يد في الموضوع لا من قريب ولا من بعيد . انها تعرف أن براءتها مهما كانت فلن تصل بالآخرين الى تصديقها وتكذيبه هو الذي يعتبر في المقام الأول بعد عمها في السلم العائلي . طبعا ، هي لا تعرف أن دليلة اكتشفت جرائره ، وأنها كيفما

كان الحال ستقف الى جانبها ، وكذلك رضا الذي علم بسلوك أخيه الآثم مع بعض الكاتبات ... ومع ذلك فلم تكن مخطئة في تقديرها كل الخطأ . الفضيحة وقعت ، وهي طرف فيها أحبت أم كرهت . عمها لن يكذب ابنه الأكبر المتزوج ويصدقها هي ، ولو رأي عيانا ما وقع .

زوجة عمها ستكون أشد وأقسى عليها من عمها ... لاتقبل مطلقا أن يتهم أبناؤها من أي كان . ثم ماذا يقول أبوها عندما يطلع على هذه الفضيحة أيصدقها ويكذب الآخرين ؟ ولماذا يكذبهم ؟ أليسوا هم الذين قبلوا أن تقيم بينهم بالترحاب والسرور؟ أليس عمها هو الذي أقنع أباها أن تأتي الى الجزائر لمواصلة دراستها بالجامعة ؟ أبوها كان يعتزم ادخالها الى المعهد التكنولوجي للتربية بتيزي وزو. ماذا تقول اذن لأبيها ؟ سيقتلها ظالمة أو مظلومة سوف يجد تأويلا لسلوك عمر ، اذا وصل به الأمر الى الشك فيه وهو أمر مستبعد .

— ان حياتها تقوضت من الأساس . أمها توفيت . زوجة أبيها مهما كانت رحيمة لا تستطيع التأثير على أبيها مثل الأم .

قالت لها دليلة تهدئها :

— نعيمة يكفي من البكاء !

فأجابت بتلعثم والعبرات تخنقها :

— اني بريئة . أقسم أني بريئة !

— أعرف أنك بريئة . أنا متأكدة من ذلك ، ولو شهد الناس كلهم ضدك .

— أنا بريئة ، كنت أغسل الثياب ، واذا به يأتي الى المغسل ويحتضنني ... وأرجعَ في النهاية كل شيء علي حتى عمه صدقه ! ... أنا بريئة ...

وقفت الكلمات في حلقها ، وطوقها اليأس من جميع أقطارها . فقالت لها دليلة وقد ترغرغت عيناها بالدموع ، تواسيها في حزن :

— هوني عليك يا نعيمة . أعرف أنك بريئة . الأبرياءهم الضحايا دائما . إننا نعيش في مجتمع الرجال .

فأعربت نعيمة ببكاء وألم :

— كل مستقبلي أصبح سرابا ...

— لا تبكي يا نعيمة ! لا تبكي يا أختي . ان اللعنة التي نزلت علينا لن تزول بالبكاء . يجب أن نواجه حياتنا بشجاعة . فهمت ؟

— لكنى لم أفعل شيئا لأستحق هذا المصير المفجع ! لم أفعل شيئا ...

— أعرف أنك لم تفعلي شيئا . ثبتى جأشك يا نعيمة . لا تدعي الذعر يفسد عليك رأيك . ينبغي أن تواجهي هذه الكارثة بذكاء وصمود .

— وماذا أفعل ؟

— كوني قوية . ان ضعفك يجرمك لا يبرئك . كوني متيقنة أنى سأقف الى جانبك مهما كانت الظروف ، وكذلك رضا ... لن يدعك .

لمع اسم رضا كالشعاع في قلبها . كان معها في الاجتماع جنبا الى جنب ، كأي رجل مع زوجته ، ولم تبد منه طوال الاجتماع أي حركة مريبة !

وأضافت دليلة :

— سنقف جنبك كلنا ، أنا ، رضا ، هالة ، زبيدة ... كلنا . اني أعرف عنه أشياء لا يعلمها أحد . ان لزم الأمر فضحته . أنا لا أخشى أحدا ، ولا سيما الآن وأنا ....

لم تتم جملتها وأمسكت عن الكلام . كانت تريد أن تقول وأنا حبلى . لكنها عدلت عن ذلك . لا ينبغي أن تشكو حالها لأحد . لم تسأل الناس رأيهم عندما انزلقت في إثمها . كان الويسكي والغريزة وتمثيل كريمو دور العاشق الولهان ، كل أولئك تضافروا عليها في وقت من أوقات الضعف فدفعوا بها الى الرذيلة . لا تشكو لأحد ولا تطلب من أحد عونا عن مصير كتبت بنفسها خطوطه الأولى .

استمرت نعيمة في بكائها ، واختلطت في ذهنا السبل ، فلم تعد تدري ما تفعل سوى البكاء . فأخذتها دليلة بحزم :

— يكفي من البكاء . لماذا لا يبكي هو؟ مظلومة وتبكين ؟ إنك في العشرين من العمر ، ومثقفة ، فماذا تخشين ؟ أباك ؟ هو رجل كالرجال لا تتوهمي أنه بطل الأبطال لأنه شارك في حرب التحرير . الجزائر كلها شاركت ، حتى النساء . لا يخيفنك ما يحكي عن نفسه من بطولات . قولـي له بدون حياء أو تلعثم ما وقع فإن لم يصدقك ، أخذت أبوته ورميت بها وجهه ! انك قانونيا في سن الرشد ، فلا هو ولا غيره يستطيع السيطرة عليك . آباؤنا نحترمهم في حدود احترامهم لنا . لا ينبغي أن نخافهم . انهم الماضي ، ونحن المستقبل . كفي عن البكاء . تعالي الى المطبخ نعد قهوة .

ثم أخرجت علبة السقائر وقالت لها :

— اذا شئت أعطيتك سيقارة ، وخرجنا بهما موقدتين يملأ دخانهما ممرات البيت ! لنتحدكل واحد ! قومي .

قامت نعيمة ، وأحست كأن خيطا من نور أخذ يضيء الأجزاء التي أظلمها اليأس !

جرتها دليلة من يدها جرا وقالت لها وقد دخلتا المطبخ :

— ماذا تريدين أن نشرب ، شايا أم قهوة ؟

— أنا لا أريد شيئا . بودي أن أنام .

— بودك أن تهربي مما أنت فيه ، والهروب لا يفيدك ! اشربي القهوة ، وفكري بمنطق في الخروج من هذه الورطة ، بأقل كلفة ممكنة .

— لا أظن أني أستطيع الخروج . لا عمى يتفهم ، ولا أمك ولا أبي . أنه (عمر) في نظرهم المثل الذي يقتدي به . كل ليلة بالصالون يعاكسني ويضايقني .

— كنت تكشفينه . كان عليك أن لا تتسامحي معه . رجل له أربعة أولاد لا ينبغي له الا الصفع .

— من أدراني سأصل الى ما وصلت اليه .

— لي اقتراح ، اذا شئت عرضته عليك ؟

— ما هو؟

— ينبغي أن يبقى سرا بيننا . اكتريت غرفة بدار عربية بالقصبة . ودفعت ثلاثة أشهر مسبقا ... اذا أحببت ، تستطيعين أن تسكني معي .

— أسكن معك ، وأبـي ؟

— أأنت في حاجة اليه طول حياتك ؟ أم في حاجة الى الموت في العشرين ؟

— لا ، لا أستطيع أن أهرب ولو قتلت .

— لا تهربين ، وانما تستقلين بحياتك ليس الا .

— كل شيء ولا هذا ... لن أفارق الدار بهذه الصورة ولو قتلني .

فكرت دليلة أن مواصلة الحديث معها في هذا الموضوع لا طائل من ورائه . وسألتها :

— هل كنت هنا عندما رجع عمر من العمل ؟

— نعم .

— هل فتح صندوق البريد ؟

— لم أره . لكني رأيت ساعي البريد عندما مر ، كنت بالنافذة ، لم يأتي بأي رسالة .

كانت دليلة واقفة أمام الموقد الغازي تتأمل ألسنة النار الملتهبة حول المغلاة . أما نعيمة فكانت جالسة قرب طاولة ، يدها اليسري على خدها ، وقد افتقد وجهها كل ما كان يشع فيه من سحر وجاذبية وابتسام .

عاد الشيخ علاوة الى غرفته بعد أن هدّأ من غضب كنته وابنه . ان سلوك نعيمة أقنطه نهائيا ، ولم يعد يرجو لها خيرا . انها في نظره لا تستحق شفقة ولا عفوا . عندما قرأ الرسالة ، بالرغم من انذهاله

وتصدع فكره لهول « الإثم المقترف » تريث حتى تفوت فورة الغضب ، ليرى ماذا يفعل . وخيل اليه أنها لو أقدمت على الاجهاض لحلت المشكلة على الأقل بالنسبة اليه ... أما الآن فقد تطور الموضوع تطورا خطيرا . انه يمسه مباشرة ...

قام الى الخزانة فأخرج الرسالة وقرأها من جديد ... وتيقن يقينا لا يشوبه شك أنها تحمل في أحشائها لقيطا : نعيمة جاءت الى الجزائر رابطة شعرها في غديرة أرسلتها الى الوراء ، تشد رأسها بمنديل « تحضرت » ! ويا له من تحضر ! وقال في نفسه : « اللعينة ! تريد تلطيخ عمر بلقيطها . ولم لا ؟ كل شيء ممكن في نظرها ما دام أنها استباحت الحرام ؟ تظن أنها بهذه الوسيلة يجد لها أبوها عذرا ، ويرد سخطه علي وعلى عمر . لو اتهمت رضا لوجدت لها عذرا ... تريد تدنيس عمر ! ثم بعد أشهر تبدأ المساومة ، اما أن يتزوجها ويطلق مني أو تكشفه ، تكشف أنها حبلى منه ! هذا هو برنامجها بالضبط . لكنها نسيت شخصا آخر لم تأخذه بعين الاعتبار . نسيت الشيخ علاوة الذي لا تخفى عليه خافية . » .

« هي لا تدري أن الرسالة التي أرسلت اليها أنها بين يدي ! سوف أريها أيّ رجل هو هذا العم ! » .

وفكر أن ينزل الى الصالون ، حيث الهاتف ليبعث الى أخيه بالمجيء الى الجزائر .

لم يكن بالصالون أحد . أخذ الهاتف وكلم تاجرا يعرفه ، أوصى لأخيه أن يأتي للجزائر متى أمكنه القدوم .

وخرج عائدا الى غرفته ، فالتقى برضا داخلا . لم يكلم أحدهما الآخر.

فكر الشيخ علاوة بسخط أن داره كالفندق الذي يسكن فيه الزبون على نفقة الحكومة ... هذا رضا يسكن في بيته ويأكل من طعامه يمر عليه ولا يكلمه حتى الكلام كأنه لا يعرفه !

جلس في مكانه المعتاد بالغرفة ، قبالة خزانة كتبه ، وأخذ مسبحته ومضى يعد حباتها عدا رتيبا منتظما ، لا يحصي عبادات وأذكارا ولا أموالا ، انما يستعيد بها ذكريات ، تشكل رؤوس مراحل بكاملها ... رأي نفسه مع أخيه صالح المجاهد في « المسيرة الطويلة » ، كما يسميها عندما يتحدث عن ذهابه الى تونس أثناء الثورة المسلحة . كانت الدوائر الاستعمارية تعد لالقاء القبض عليه وعلى كل المثقفين « المشبوهين » ولم تكن أمام الشيخ علاوة من طريق الى مغادرة الجزائر سوى طريق الجبل ، يسلكها الى تونس . لم يكن يقدر على المشي ، ولا يتحمل مشاق الأوعار والغابات والظلام ، ولربما الموت . كانت مغامرة جريئة بالنسبة اليه . ولكنها كانت على كل حال أهون من السجن أو النفي الى بعض محتشدات الجنوب . وكان يقول بعد أن نجحت مغامرته واجتاز الأيام السوداء : « ينبغي للعاقل ان يستنزف كل ذكائه وخيالة للهروب من سجن المستعمر . السجن حقيقة عمل وطني عظيم بنتائجه ، لكن الهروب منه للمناضل أفيد للوطن ! » .

لم تكن الأرض التي سلكها هي جبال وغابات وأحراش الجزائر . انما كانت كابوسا رهيبا مظلما ، يتربص الموت فيه صاحبه في كل

خطوة يخطوها . كان بالليل المسير وبالنهار الاختفاء في المغارات والأدغال . لم يكن حينئذ في الجزائر مكان للعقول أن تفكر ، كانت المدافع والرشاشات هي العقول المفكرة . وفي السماء كانت الطائرات .

استمرت هذه « المسيرة » ثلاثة أشهر . وانتهت بانتصار الشيخ علاوة ، بفضل مساعدة أخيه المجاهد . انتصر على الخوف !

كان عندما يمزح يقول « أنا مسيرتي الى تونس أثناء حرب التحرير هي تأشيرة حريتي وضريبتها في نفس الوقت » !

ويضيف معترفا : « لكن انتصاري يعود الفضل فيه الى صالح ! » صالح الذي أوصى اليه منذ دقائق أن يأتي ليرد اليه خيره ...

هو في أفكاره تلك والحزن يقطع نفسه تقطيعا واذا به يسمع صلصلة الهاتف ، ينزل مسرعا فيجد أخاه ، يسأله لماذا طلب مجيئه ، فيخبره بأن الأمر يتعلق بنعيمة وانه لا يمكن أن يقول له أكثر من ذلك في الهاتف . فيخبره صالح بأنه آت من الغد .

ويعود من جديد الى غرفته ، ولكنه في هذه المرة يحس بالانهيار الكامل .

* * *

توقع رضا منذ مدة حدوث هذه الكارثة بنعيمة . طبعا هو لم يكن يتصورها بالعمق الذي تتصوره بها هي . كان يظن أنها تتعرض الى ما يتعرض اليه كل من يريد أن يتحول من وضع الى آخر بنزاهة وطهارة ضمير .

كان فكر مليا فيها منذ تطوعها للثورة الزراعية ، وقدر في نفسه أن تحولها هذا السريع من فتاة ريفية ساذجة ، لا تعرف حياة المدينة ولا ما فيها من صراعات ايديولوجية ، الى مثقفة واعية تتجه الى طريق الثورة بتلك النزاهة وبذلك الطهر..

سيعرضها الى نكبات قلما يصمد لها من لم تحنكه التجربة .

ولما رجع الى البيت بعد الظهر أخبرته دليلة بكل ما وقع ، وسمع أباه يتحدث مع أخيه في الهاتف فأحس أن النكبة جد مؤلمة بالنسبة لها . فكر أن يقوم بشيء يخفف عليها وطأة المصيبة ، بشيء لا يقدر في تلك الظروف على أكثر منه . وطلب الى دليلة أن تنزل معه الى غرفة نعيمة .

وجدها جالسة الى طاولة كتابة . تشد رأسها بين يديها ، وجهها فقد رواءه واتخذ شكلا حزينا لم يعرفه لها أحد من قبل .

قال لها :

— أنت غالطة تدعين نفسك تنهارين بهذه السهولة . ينبغي أن تقاومي . ستعودين غدا أو بعد غد ، أو بعد شهر الى القرية . لكن الرجوع الى القرية لا يعني توقف الحياة . لا أستطيع أن أكون أبا آخر لك ، ولا تفيدك « أبوتي » بشيء . لذلك فكرت أن أهدي اليك قصة شعرية رمزية ، أوأسطورة ... التسمية لا تهم . أقرأها عليك ، وأعطيك أياها بعد ذلك . اجلسي دليلة .

عنوان هذه القصة الشعرية : « زهرة الحقل » .

وأخذ يقرأ القصة ، وكان ذا صوت جد رخيم وجد مؤثر فقال :

كان بأحد الحقول زهرة ،

لا تخشى الحر ،

لا تخشى الرياح ،

لا تخشى العواصف .

كانت عروقها متمكنة في الأرض .

وكانت سعيدة !

عندما تقوم كل صباح تبتسم ،

للعشب حولها ،

للأنسام .

تشرب من الندى أصفى قطراته ،

ومن النور أجمل شعاع .

تقضي يومها في استقبال الفراشات ،

والحشرات ،

وكل صغير يطير !

الكل يحبها ،

والكل يغازلها ،

والكل منها في هيام .

وكانت بذلك سعيدة !

لم تكن تصل اليها حشرات الحضر ،
ولا الفراشات .
ولا حي صغير يطر ،
من الحضر !
عالمها حقلها ،
والعشب الملتف بها أمنها .
غذاؤها الانسام ،
والندى ،
والنور.
وشغلها ،
غرام من حولها بها .
وهي بذلك في دلال ،
وسعادة حال .

ذات يوم ،
أفاقت من النوم ،
فوجدت نحلة ،
وصلت اليها في غفلة ،
من العيون !
قالت لها الزهرة :
أيتها النحلة !

من جاء بك الى حقل أمين .
بمنأى عن كل عين ؟
أجابت النحلة :
سرت وراء شعاع ،
فاختلط بالسحب وضاع .
وعصفت بـي الرياح ،
مثخنة بالجراح ،
لا أمل لي في رواح .
هذه قصتي .
فهل لي من عون ؟
لي صغار مقبلون ،
ورفاق ينتظرون .
فقالت لها الزهرة .
وهي من أمرها في حيرة :
خذي ما يكفيك من رحيق ،
واذهبي قبلما الجند يفيق ،
تموتين بعيدا عن الأهل والصديق .
شكرتها النحلة ،
وغنت لها أعذب الألحان .
فأعجبت الزهرة بهذه الأغاني الحسان ،
وسألتها من أي مكان ؟

فقالت النحلة :

هذه أغاني حضر ،

لا تعرفها الحقول ولا القمر !

فيها من كل لون ألوان .

مرة تحكي البكاء والحرمان ،

مرة تشكوجور السلطان ،

مرة تعيد الى الأذهان ،

قصة الثورة على الطغيان !

فازدادت الزهرة طربا وعجبا ،

وسألت سؤال المتعطش اللهفان :

أكل ما تذكرين يوجد في هذا الزمان ؟

فقالت النحلة :

لا أغني قصص الماضي .

أنا ابنة زمان ومكان .

من بحث فيه عما كان .

فقد زمانه والمكان !

بكت الزهرة وتحسرت

وسألت :

أتوجد زهور ،

ألوانها من نور ،

في رقة ما غنيت من الحان !

أجابت النحلة :

عندنا الزهور
تسكن القصور
مع الحور
تشرب الماء والنور.

عندنا زهور،
للبساتين دثور،
للعيون حبور،
وللنفس أنس.

عندنا زهور،
عطرها بخور
وسرور.
وألوانها للغريب أنس

تعدين ريش الطير،
ولا ألوانها.
تعدين النجوم،
ولا أجناسها.
تعدين حبات المطر،
ولا أشكالها.
زهور حضر،
عشاقها في السماء،

نجوم وقمر.
وفي الأرض ،
عرائس وأوانس ،
وأنسام من البحر.
الأغاني تملأ الأكوان بذكرها ،
أبد الدهر!
يغنيها ،
تمجيدا لها ،
انسان من البشر
لا الحيوانات الاخر!

. . .

بكت الزهرة ،
تخيلت نفسها في حفرة ،
بين جبال وشجر ،
لا قيمة لها ولا ذكر.
عشاقها فراشات ،
وحشرات ،
لا قيمة لها بين البشر!

سألتها النحلة :
ما يبكيك ؟
بكل علمي أفديك .
قالت الزهرة :

أبكاني علمي ، أنا في حيرة .
كنت بجهلي في غمرة ،
ظننت الشمس تشرق لي ،
ومن أجلي يطلع القمر !

. . .

فكرت النحلة ،
وهي من أمر الزهرة
في حيرة ،
ومن كرمها في عرفان
لا ينكره إلاّ الانسان .
وبزغت في رأسها فكرة ،
فيها للزهرة سلوان ،
وأمل ،
لسعادة بلا جهل ...
قالت والشهد يقطر من فيها :
أيتها الزهرة الحرة ،
رحيقك صار شهدا ،
وعونك ديناوودا ،
هل لك في الاغتراب ،
عن العشاق والأحباب ،
عن الحقل والأعشاب ؟

فرحت الزهرة واستبشرت ،
وقبلت فورا وأخبرت :

أنا لحياة الحضر والقصور ،
أسمح في الفراشات والطيور
والنجوم والبدور !

بنت النحلة حولها ،
بيتا للفراخ وللعسل ،
لا صطياد صائد العسل !

الزهرة تشرب ما استطاعت من قطر ،
من ندوة الليل والسحر ،
من حبات المطر.
لتصنع الرحيق للنحلة الصديق .

النحلة تبني كل يوم ،
بذاك الرحيق ،
شهدا شهيا ثمن الطريق .

ذات يوم جاء صياد العسل
أبعد النحل واصطاد العسل
ورأى قرب البيت زهرة ،
تملأ النفس مسرة .

فاقتلعها بالتراب ،
وبما التفت بها من أعشاب .
وأتى المدينة يبتسم ،
أولاده المرضى
لن يشكو ألم ،
هم منذ اليوم في نعم !

. . .

مشى في الحي ، في حبور ،
في حيــى القصور :
يامن يشتهي الرحيق !
والزهر للصديق !
معي شهد أنقى من القمر ،
معي زهرة لم يلمسها بشر !
هي هدية العمر !

جاء شيخ يساوم ،
ثم غاب .
ثم شاب ،
لم يكن بالزهر عالم .
وعجوز ،
عجمت كل الرموز ،
تبغي الشهد وحيدا .
رفض الصياد رفضا شديدا :

الشهد بلا زهور ،
ليس من تقاليد القصور !
ثم ولت .
واذا ببنت أطلت ،
لا تساوم .
دفعت للصياد نقدا ،
ثم قالت :
هذه الزهرة فذة ،
هي لي أحلى ملذة !

. . .

عاشت الزهرة عمرا ،
لا تبكي حرا لا قرا .
لا تخاف عصف ريح ،
لا مطر .
حياة القصر غوتها
وأنستها الحقول ،
وأنستها الفراشات ،
وأنستها الشمس
وأنستها القمر !

. . .

ذات صبح وهي في الشباك تنظر ،
فرأت زهرة سوق ،
ألقيت في قمامة !

فاشمأزت وقالت :
انني لا أطيق شم ريحك .
أبعدى عن هوائي ،
ريح موتك .
أنا زهرة حقل ،
لست مثلك !

ضحكت زهرة السوق بحزن ،
وهي للأنفاس تلفظ :
كنت مثلك ...
جئت من حقل بعيد ،
لحياة القصر أرنو ،
عشقتني فتاة ،
زرعت مني حديقة .
كنت زهرة
فأصبحت زهورا .
كنت أحيا في قصر ،
أصبح القصر قصورا !
ثم بعت وجئت ،
الى السوق لأهدي مثل غيري .
وذبلت !
فقلت :
غرور ،
كل قصر غرور !

زهرة الحقل اشمأزت ،
وقالت :
أنا ان مت ...
لكن لا أموت !
اذهبي عني بعيدا .
ان ريحك ،
أبعد الأنسام عني .
لا أريدك !

كان للحسناء خل
أخبرت ذات يوم ،
أنه بهواه يرنو
لسواها .
رمت المحبس سخطا ،
فتكسر !
والتراب الذي فيه تبعثر !
واذا الزهرة تهوى وتعثر !
واذا الأرجل تمشي لا تنظر ،
فتموت وهي تنظر !

جاءت النحلة تغني
تسأل الأزهارعنها ،
أخبرت أنها ماتت ،

ميتة الزهر الغريب ،
وحيدة !
فبكت عنها وطارت ،
للشعاع البعيد تلاحق .
ثم حطت في مكان ،
كله زهر جديد
كله صلب عتيد !
سألته :
أيها الزهر الجديد ،
من تكون ؟
فأجاب الزهر بصوت ،
هو للقوة لحن :
نحن زهر الحقل أحبينا القصور
دهكتنا اذ ذبلنا الأرجل .
فحلفنا : لا نموت !
من نبات صرنا سمادا ،
وبذورا لا تموت !
عدنا للحقل نغني ،
للفراشات ،
للأعشاب ،
للأنسام ،
نملأ الدنيا عطورا ،
لا نموت !

كان رضا يقرأ ونعيمة تبكي ودليلة تدخن سيقارة وراء الأخرى أمامه لأول مرة ، ولما انتهى قدم اليها القصة وربت على كتفها ، ثم خرج بدون أن ينبس بكلمة .

وكانت نعيمة تقول له في نفسها : رضا ، أحزنك حالي ... أحسست ذلك في نبرات صوتك ، وأنت تقرأ لي القصة . أتعرف ، إن صوتك كان ينفذ الى أبعد ذرات الوعي في روحي ؟ نعم ، في كل وقفة ، وددت أن أقاطعك وأقول لك : رضا ! رضا ! ... ثم أنظر اليك ، الى طيبة نفسك ، الى رقة أحاسيسك الى ... أنا لا أحسن الكلام . لا أستطيع أن أصور لك إحساسي . لأنك كلٌّ والكلمات تجزئى . لا أعرف الحب ، لذلك لا أدري بماذا أصور ما أجده في قلبي نحوك . ذكرك يملأ قلبي عطرا ونورا وسرورا . عندما دخلت عرقتي غمرتني نشوة ، لم أعرف في حياتي مثلها . وأحسست كل ذرات نفسي هبت لتحتضنك ، بكل ما فيها من حنان ، بكل ما تتسع له من ود . نسيت همي ، نسيت عمي ، نسيت هذه الأيام السوداء التي أقبلت عليّ في غير انتظار . رضا ، لماذا قرأت القصة بصوتك ؟ ألتبقى في نفسي متصلة بحضورك ؟ أعاهدك لن أنساها . أعاهدك ، لن أنساك ! الآن لا أخاف الموت . ألست أنا البذرة ؟ لن أموت !

وشهقت شهقات عالية أفزعت دليلة التي كانت غاضبة على نفسها وعلى الزمان والمكان ، فقالت لها :

— لا تبكي ! كأنك لم تفقهي شيئا ؟ لا ينبغي أن نبكي .

وقامت وقد فرغت علبة سقائرها وقالت لنعيمة :

— أذهب الى غرفتي لأرى ماذا كانت هناك علبة سقائر وأعود .

أحست نعيمة أن دموعا غزيرة منعتها من مواصلة حديثها النفسي الى رضا . وفكرت أن الناس كلهم لهم أمهاتهم ، وهي لا أم لها .

حاولت أن تتذكر أو ترى في ذهنها صورة أمها ، لكن ذاكرتها لم تعرض عليها صورة واضحة ، ولا أثارت في نفسها شعورا بفقد كائن تحبه . إنما أثارت احساسا بالفراغ ، كما لو أنها وجدت نفسها بغتة وحدها . هي لا تعرف أمها بالمعنى العاطفي ولذلك فهي لا تحسها بقدر ما تحس عدمها . فالأم بالنسبة اليها هو الكائن الذي تفتقده لا الذي تعرفه وفُقِد .

كفلتها عمتها في حوالى الثالثة من العمر . لم تعرف أن لها أبا حقيقيا الا ذات يوم من أيام مايو ، مثل مايو الذي هي فيه الآن . كان ذلك عندما دخل رجل على عمتها ، يلبس لباس جندي من جيش التحرير فنظرت اليه عمتها وهي مشدوهة لا تصدق عينيها . ثم ولولت ثلاث مرات واحتضنته وهي تبكي بلا دموع ، وتقول : « أخي ! أخي العزيز ابن أمي ... عدت الي حيا ! عدت الي أنا ونعيمة ! عدت ... كم أنا سعيدة ! كم هو سعيد هذا اليوم ! » .

تتذكر نعيمة كيف حملها ذلك الجندي في ذراعه وقال لها : « هل تعرفين من أنا ؟ أنا أبوك ! » من ذلك اليوم عرفت ما هو الأب هو رجل يدخل الدار فجأة ، يلبس لباس جندي يحملها في ذراعه ويقول لها : انا أبوك .

ثم أقبل الجيران رجالا ونساء يهنون ويحمدون له الرجوع سالما . بين ولولات النساء وضحكهن الذي لا ينقطع .

في ذلك اليوم ذبحت عمتها المعزة الوحيدة التي تملكها وتحبها هي ... السرور لا يمشي وحده ، يرافقه الحزن غالبا ! كانت تلك المعزة حواء ، في جبينها غرة بيضاء ... تتذكر صورتها نعيمة بحضور غريب ! قررت عمتها ذبحها بمناسبة عودة ذلك الجندي الذي حملها في ذراعها وقال لها : « أنا أبوك ! » .

بهذه المناسبة أيضا عرفت أن لها أما ، لا كالأمهات ، ولكن عبارة عن قبر مستطيل نصبت فوقه ثلاثة شواهد ...

ذهبت هي وعمتها والجندي الذي قال لها أنا أبوك الى المقبرة . وقفوا على قبر قالت عمتها هو قبر أمها . لم يكن يمتاز بشيء من بين القبور الأخرى . لم تحس نحوه بأي عاطفة . كان بامكانها أن تقف أمام أي قبر...

من هذه الذكرى الى ذكريات الحرب . وذكريات الحرب ليست كثيرة لدى نعيمة . كل حرب التحرير تمثلها في نفسها صورة واحدة متكررة : تأتي الشاحنات معبأة بالعساكر ، يخرجون من بالقرية من رجال ونساء وأطفال من بيوتهم ، يأمرونهم بالوقوف الى الحائط ، يفتشون ، ثم يعودن من حيث أتوا . في بعض الأحيان يأخذون معهم رجلا أو اثنين ...

وهناك صورة أخرى تتذكرها دائما بسرور : صورة عسكري ، لباسه أنظف من لباس الآخرين ، يأتي دائما في سيارة مكشوفة (جيب) مع القائد أو « الشامبيط » . ينزل من السيارة . يصافح الناس . لا يأمرهم بالوقوف الى الحائط . يتحدث معهم ، مع الاطفال ، ...

حتى معها هي ! يسمى السكان هذا الضابط الفرنسي : « لاصاص » (S.A.S) لكنها هي تسميه رجل الشيكولاطة !

يسألها سؤا لا واحدا أبوك جاء أم لا ؟ فتجيبه : لا . يربت على كتفها ويعطي لها الشكولاطة ، وينصرف !

نهتها عمتها عن الحديث مع الضابط ، نهتها عن أخذ الشيكولاطة منه . لكنها تحب الشيكولاطة ... طبعا عندما تقدم بها العمر الى مستوى ادراك مثل هذه الأمور فهمت كل شيء ، ولكنها مع ذلك لا تجد في نفسها أي كره نحو ذلك الضابط !

ثم عرفت الحرب ووقائعها من حكايات أبيها ، تسمعها كل ليلة ، حتى حفظتها كما تحفظ القطع الأدبية في المدرسة ...

ثم تحدث أبوها وعمتها عن مغادرة القرية الى المدينة . وتحدثا عن البقاء بالقرية أيضا ... واستمر الحديث شهورا ! ثم قرر البقاء في القرية بمفرده . المدينة لا تعطي له شيئا . عليه أن يبحث عن السكن عن العمل ، عن الأصدقاء ... وهو له كل هذا في القرية ! قرر البقاء . قال ذلك لعمتها ذات ليلة : « نبقى هنا بالقرية ! كلمة واحدة ! كلمة واحدة هي التي جعلت العائلة تبقى بالقرية . لو قال كلمة أخرى بدلها لنتج عنها شيء آخر ... أدركت نعيمة أن أهلها بقوا في القرية لأن أباها قال : « نبقى هنا بالقرية ! » .

لكن العمة الرؤوم توافيها المنية ! إنه يوم مظلم حقا في حياة نعيمة ! لأن عمتها شيء آخر . كانت بالنسبة اليها هي كل شيء . ثم ماتت بسرعة ! لم تمرض كثيرا ، أياما وليالي ، ثم ذهبت الى الأبد . كانت عندئذ نعيمة في التاسعة من العمر .

ذكرى أخرى تعود الى ذهن نعيمة في هذه الرجوعات الى الوراء : زواج أبيها ... ذكرى لم تكن ذات أهمية كبرى من الناحية العاطفية ، لأن هذا الزواج جاء في وقت كان البيت في حاجة الى امرأة تقوم على شؤونه . فكان انقاذا لها من الأعمال المنزلية المرهقة التي وليتها أياما ...

ثم جاء العم ذات يوم لحضور الحفل الذي أقامه أبوها عليها بمناسبة نجاحها في البكالوريا . وتحدث الأب والعم ، وانتهي الحديث بقرار فتح الحياة أمام نعيمة ، حياة الحلم والنور والمستقبل الوضاء !

دخلت دليلة فوجدتها في نفس الجلسة المحطمة ونفس الحزن الممض ، فقالت لها :

— الى متى تبقين هكذا ؟ ينبغي أن تجابهي الشر بالشر . لا يخيفك عمر ولا أبـي ولا ينبغي أن يخيفك أبوك . عندما تعود أمي ، ربما تتفهم الوضع وتحاول الاصلاح ولكن ذلك لن يجديك ، لأن عمر لن يقبل ببقائك . واذا قبل هو فلن تقبل مني .

— أتعتقدين أني أفكر في البقاء ؟ الآن انتهى كل شيء بالنسبة الي . هذا البيت سأغادره حية أو ميتة عندما يأتي أبـي . ولن يراني بعد ذلك أبدا .

— ميتة ! لماذا ميتة ؟ لا تفكري هكذا . أبوك أو شخص آخر سواء . لا تقبلي الأغلال من أحد . ليس يفيدك أن تكوني « سمادا » كما قال رضا ... مع الجلادين لا تبادري بتقديم نفسك ضحية . علينا أن نحطم مجتمع الرجال !

— بالكلام !

— اذا واصلت التفكير بهذا المنطق أقطع معك كل صلة .

— هي مقطوعة ، ولو أحببت وصلها . أنا غدا سأعود الى قريتي . لن تسمعي بــي أنت ولا يسمع بــي غيرك .

— أنا أيضا سأغادر هذه الدار ، ربما قبلك ... هذه الدار ينبغي أن تنفجر لتدع المكان الى قيام دار آخرى أكثر ملأمة للحياة .

— تنفجر بالكلام ... ستبقى هكذا .

— أنا أفجرها !

— الكلمات ليست جميلة عندما لا تكون أفعالا ، أو شعرا ...

— أنت لا تعرفين كل شيء .

— بالنسبة الي كل شيء صار واضحا .

— أنت تعتقدين أننا نبقى ساكتين هكذا دائما في هذه الثكنة ؟ لا . لن نسكت .

لم تجبها نعيمة بشيء ، كأنها صارت من عالم آخر ، لا يهمها مطلقا ما يجري في هذا العالم . كانت تحس بارهاق وصداع . سألتها دليلة :

— ألا تريدين أن نخرج ؟

— أريد أن أنام . لو استطعت لأغمضت عيني حتى عن النور.

— لا يفيدك شيئا اغماض عينيك . على كل أنا خارجة . لأني لو أبقى هنا الى المساء أنفجر .

- 12 -

استقبل مراد من طرف آل بن عبد الجليل استقبالا كله حفاوة وتبجيل . وأجلس مع ثلة من أصدقاء العائلة ، حيث أقيمت في اليوم السابق الأمسية الأندلسية . كانت موسيقى «الجاز» تنقلها الى باحة الحديقة مكبرات صوت . وبالرغم من صبغتها الصاخبة فلم تكن تنطلق إلا بالقدر الذي يضفى على الجو أنسا وبهجة .

اندهش مراد من ثراء أسرة بن عبد الجليل ، البادى في «الفيلا» الفخمة ، في الحديقة الغناء ، في الباحة ، في لوحتها الأثرية الرومانية ، في الفيسفاء المحيطة بها ، في الأواني الفضية والخزفية الممتازة التي قدمت فيها المشروبات والحلواء . في الملابس الرفيعة التي تلبسها نساء هذه العائلة اللائى كن يتنقلن بين المدعوين والمدعوات ، بلا حجاب ولا تحرز.

عادت الى ذاكرة مراد ماقالته زبيدة بالصالون ، عندما أخبرت بالذهاب الى هذا العرس ... وتأكد لديه أنها كانت على حق . كيف تستطيع أن تقف باعتزاز أمام هؤلاء النساء ؟ لكن الشيء الذي أثار اعجابه أكثر من غيره هو هذه الحرية التي تتمتع بها النساء ، بنات وأمهات ... صافحته فتيحة بحرارة وقالت له :

— قيل لي أنك طبيب جراح ، وأنا أنوي اجراء عملية جراحية ... فأعطته فرصته للحديث والتعبير عن قيمته بلباقة ـ فسألها باهتمام :

— عملية جراحية ؟

— عندي المرارة ...

فعلق أخوها كريمو ضاحكا :

— كلنا عندنا مرارات !

فقالت بدون تلعثم :

— لكن مرارتي أنا ذات أهمية ، لأنها مكتضة بالحجارة !

فقال لها مراد مطمئنا :

— عملية استئصال المرارة ليست صعبة . في الجزائر قل من لا يشكو من هذا الداء . على كل في اليوم الذي تقررين فيه اجراء العملية اتصلي بـي .

وكان يظن أنه بعرضه ذاك وضع نفسه مرة واحدة ، في مستوى أعلى ! ابتسم عبد الكبير من عرض مراد ، وقال لا بنته ساخرا :

— ها أنت ذى اطمأننت نهائيا على العملية ... سي مراد يتولى القضية أحسن لك من نصائح الأستاذ منور !

على ذكر منور الذي هو أكبر أساتذة الجراحة ، فهم مراد أنه تسرع في ابداء أهميته . وقال :

- الأستاذ منور هو أستاذ الجميع !

فسأله عبد الكبير ضاحكا :

— هل تعرفه ؟

— ومن ذا لا يعرفه ؟ انه أستاذ كل الجراحين !

— انه تأخر ، سيتعشى معنا الليلة .

لم يـدر مراد بما يواصل الحديث . ولا حظ كريمو تحرجـه واستصغاره لنفسه فأراد أن يخفف عليه ، ويكسب وده ، بدون أن يدري لماذا ؟ فقال ؟

— لا تعتقد أن كل أخواتي مرضى !

فأجاب مراد مبتسما :

— بالعكس ، بالعكس .

وكان يود في أعماقه لو تعرف على وهيبة ، البنت التي رفعتها أمه عن كل مثل فسأله كريمو :

— هل تعرف وهيبة ؟

خفق قلب مراد ، وأجاب بتلعثم ، لأنه كان يفكر فيها في تلك اللحظة :

— لا ... لم يكن لي شرف ...

فقاطعه كريمو قائلا :

— بلا شرف ولا يحزنون ... هي تلك الجالسة هناك .

وأشار الى فتاة كانت تتحدث مع رجل مسن يلبس نظارات ويدخن سيقارا ضخما . فالتفت مراد الى المكان الذي أشار اليه كريمو فرأى فتاة صهباء ، كان لاحظها منذ وصوله ، لكنه لم يدر أنها وهيبة . كانت في غاية الجمال ، وجها وجسما وقامة قال في نفسه : « لم تبالغ أمي ... انها حقا جميلة ! » .

ناداها كريمو فأتت وقدم لها مراداً قائلا :

— هذا سي مراد بن خليل . انه جراح :

— أهلا بك ومرحبا .

مدت اليه يدها مصافحة وأضافت :

— تكلمت أنا وأمك عنك . لك أم رائعة !

شعر مراد بالخجل من وهيبة ، انها بجمالها وطلاقتها وبساطتها في الحديث جعلته لا يدري ما يقول ولا ما يفعل . وقال لها :

— أنا متشرف جدا ...

فقاطعه كريمو :

— قلت لك لا « تتشرف » ... انها جد قاسية ، فاذا اشتمت منك ضعفا ازدادت قسوة عليك !

فقالت هي :

— أرأيت ياسي مراد أخا يغار من أخته مثل كريمو؟ يريد أن يجعلني في أعين الناس قاسية ، وانا لا أعرف معنى لما يسمى بالقساوة !

وتواصل الحديث في جو كله مرح ومتعة .

اقترب كريمو من مراد وأسر له أن هناك مشروبات كحولية بالقرب من الحوض الصغير في صورة ما اذا أراد ذلك ، فاعتذر مراد شاكرا .

وبعد فترة من الوقت جد ممتعة وجد مفيدة ، مع وهيبة أعرب عن نيته في مغادرة مستضيفيه ، لأن أمه وأخته ينبغي أن تعودا الى البيت . فلم يطلق سراحه ولا سراح أمه وأخته .

دعوا الى تناول طعام العشاء الذي أذهله لما قدم فيه من ألوان وأصناف مما لم يعرف مثله في حياته . وأحس نفسه يصغر أمام هؤلاء

الناس ، وتحقق لأول مرة أن الجزائر التي يحيا فيها في هذه الليلة لا يعرفها أكثر الناس .

بعد ذلك وضعت موسيقى راقصة ، أخذ بعض الشبان من أصدقاء كريمو يرقصون وجرَّ مراد الى الرقص مع وهيبة ...

بإختصار ، لم يعد مراد الى البيت بأمه وأخته وحدهما . عاد بكلمات كلها لطف ورقة من وهيبة ، وكلها تقرب وتودد من عبد الكبير ، وكلها امتنان من كريمو الذي صار صديقه ! عاد بحلم ومشاريع مستقبلية هي أعز أحلام الشيخ علاوة !

أما العجوز كلثوم فليست الحظوة التي لقيتها من أفراد أسرة بن عبد الجليل وحدها التي امتنت لها ، امتنت كذلك لرجوعها الى دارها بزوج لزبيدة ... لقد أعجبت عجوز من المدعوات بزبيدة ، ووجدت فيها ضالتها المنشودة لابنها الذي يبلغ الثامنة والأربعين . هو مدير ثانوية فقد زوجته منذ ثلاث سنوات . تركت له ولدين أحدهما في الرابعة عشرة والثاني في العاشرة . في هذه السن لا يكلف وجودهما زبيدة لا تعبا ولا مشاكل . دعيت أم هذا الأرمل لعرس بنت بن عبد الجليل ، لأن أبناء بن عبد الجليل قرأوا في الثانوية التي يديرها .

والفضل في هذا الترابط بين أم المدير الأرمل والعجوز كلثوم يعود الى عمة العروس . فهي التي مهدت للتعارف وسهلت الوصول الى الخطبة والاتفاق المبدئي بين المرأتين . كما مهدت من جهة أخرى لا مكانية زواج مراد بوهيبة . .

أما زبيدة فلم تسر بهذا الزواج المقبل كما كانت تتمنى ، لكنها أحست على كل حال بأفق جديد يفتح أمامها . هو من غير شك أفضل لها

ألف مرة من جو الحياة الأبوية الخانقة الذي تحيا فيه والذي كاد أن يصير حياة أبدية لها !

في الطريق أشارت العجوز كلثوم الى اغتباطها بالمجيئي للحفل ، وأثنت على آل العروس ، لكنها لم تشر الى ما جرى حول زواج مراد بوهيبة ، ولا الى خطبة زبيدة المقبلة ...

فضلت أن تتحدث عن ذلك بالصالون في اطار عام . لتظهر لزوجها الشيخ علاوة مدى النجاح الذي أحرزت عليه بمفردها . وبذلك تخفف من زعمه الدائم بأنه الأساس في كل شيء ولكل شيء !

تخلف مراد ليدخل السيارة الى المستودع ودخلت العجوز كلثوم وزبيدة الى البيت ، فاذا الظلام المظلم مخيم على الصالون وعلى الممرات ! هذه أول مرة كما فكرت العجوز كلثوم ، يغلق فيها الصالون في هذا الوقت المبكر ! وقالت لزبيدة :

— ماذا وقع ؟ أليسوا هنا ؟ والشيخ ... كيف لم ينتظرنا ؟
— لاشك أن رضا أو دليلة تخاصم أحدهما مع أبـــي أوعمـر !
— ممكن ، ممكن جدا . عندما لا أكون بالبيت يطغي شيبة الخصومة ! سوف أريه عاقبة طغيانه ! افتحي الصالون .
— أنا أذهب أولا الى غرفتي لتغيير ملابسي .
— أنا أفتحه اذن ، واذهب لا يقاظه من نومه (الشيخ علاوة) وايقاظهم كلهم ... يريد أن ننام الليلة !

كانت تعتقد فعلا أن هذه الليلة من الليالي المشهودة التي ينبغي أن يطرد فيها النوم طردا . فلأول مرة منذ أكثر من اثنى عشرة سنة تبدي امرأة خاطبة لزبيدة جدية ولياقة خالية من التهريـــج والثرثرة .

لم تكذب ، لم تفخر ، لم تتظاهر بأي مظهر يجعل من تتحدث اليها تتضايق منها . سألت عن عمر البنت ، عن تعليمها ، عن عدد اخوانها وأخواتها ، عن أعمالهم ، عن زبيدة لماذا لم تتزوج الى الآن . تحدثت عن ابنها ، عن انتكابه بفقد زوجته ، عن عمله ، عن حالته المادية ، عن ما ينتظر من المرأة التي يتزوج بها أن تقوم به . وكل ما قالته لا يخرج عن المتعارف بين الناس . وذكرت أنها ، اذا تم كل شيء كما ترتئي ، لن تقيم حفلا كبيرا ، وانما تدعو من الأحباب الأشد التصاقا بالعائلتين ، مع الأقارب . وكل هذا أيضا معقول قالت كذلك ، انها ترجو أن يتم كل شيء دفعة واحدة ، ربحا للوقت وللنفقات التي لا مبرر لها . وانها ستأتي خاطبة هي وابنها وبعض أقاربهم بعد الانتخابات مباشرة . كما ترجو أن يتم الزفاف في منتصف شهر جويلية . وكل ذلك أسر العجوز كلثوم ولقي منها رضا وموافقة .

وفيما يتعلق بوهيبة ومراد فإن آل بن عبد الجليل ، كما ذكرت أم البنت ، اذا أعطوا بنتهم لمن ترتضيه زوجا لها ، فان الزفاف لن يكون الا في السنة المقبلة ، أو التي تليها . لأن فتيحة تروج اشاعة بخصوص زواجها مع ضابط في الطيران . فاذا تحقق ذلك فإن زواجها يتقدم زواج وهيبة حتما .

هذه هي الأشياء الهامة التي عادت بها من هذا العرس . فكيف إذن تسمح لأي كان أن يجعل هذه الليلة الميمونة مظلمة ؟

أشعلت أضواء الممرات والدروج ، ونادت وهي صاعدة الى الدور الأول :

— منى ! يا منى !

لم يجبها أحد . خرجت زبيدة مسرعة ، قبل اتمام تغيير ملابسها تقول لها :

— لا تنادي عليها . اسكتي .
— لماذا أسكت ؟ ماذا وقع ؟
— انها تخاصمت مع نعيمة .
— لماذا تتخاصم مع نعيمة ، هل جاءتها ضرة ؟
— لا تقولي هذا الكلام ، خفضي صوتك .
— لماذا أخفض صوتي ؟ ماذا وقع يا طفلة ؟ قولـي ، أسرعي !

دخلت العجوز كلثوم الى غرفة زبيدة فوجدت نعيمة في حالة سيئة للغاية . صار وجهها أخضر داكنا يشبه وجوه المحتضرين ! سألتها وهي تجلس بالقرب منها :

— قولـي يا بنيتي ، ماذا جرى لك ؟ قولـي كل شيء .

لم تجبها نعيمة . فكررت سؤالها بالحاح :

— تكلمي ، قولـي ماذا جرى لك ؟ ماذا وقع بينكما ؟ أعرفها اللعينة ، تريد اخراجنا من البيت كلنا لتبقي فيه هي وأمها . سوف أريها الكلبة ... لولا أولادها لما قبلتها تزيد هنا ليلة واحدة . لم تستح ، لم تقل أن حماتي غائبة فلا أثير نزاعا في غيابها ! اللعينة ... على ماذا خاصمتك ؟ على اعداد العشاء أم على ماذا ؟

لم تجب نعيمة واستمرت في صمتها . فقالت لها زبيدة :

— تكلمي ، لماذا هذا الصمت ؟ هل أنت في دار أبيها ؟ إنكِ في دار عمك في دارك . هي الأجنبية لا أنت . تكلمي . لا شك أنها

افترت عليك بعض الفريات التي تحسنها ... اتهمتك بالجرى وراء زوجها !

غضبت الأم وهي تسمع ابنتها تتكلم كلاما لا يخطر على بال عاقل :

— اسكتي ياطفلة ! استحي ! من يجرؤ على ذكر هذا الكلام وأنا حية ؟

— اذن مالها ؟ قولـي ، مالك يا نعيمة ؟

لاذت نعيمة بالصمت ، لم تنظر لأحد ولا فاهت بكلمة ، كأن ماهما فيه لا يعنيها كلية .

فقالت العجوز كلثوم :

— قولـي ، ماذا وقع بينكما ؟ والا لن أحدثك منذ اليوم !

فأجابت نعيمة بلهجة محايدة :

— غدا أعود الى أهلي ، لن تحدثيني لا أنت ولا غيرك ...

— تعودين الى اهلك ؟ ما معنى هذا الكلام ؟

وقالت لها زبيدة :

— لن تعودي ، تبقين معنا ، وليخرج قلبها (منى) .

لاذت نعيمة بالصمت من جديد . رأت العجوز كلثوم أن لا فائدة في سؤالها ما دامت لا تجيب . قامت وذهبت الى غرفة الشيخ علاوة الذي كان ينتظرها . والتقت بمراد في طريقها ، فسألها :

— ماذا جرى الليلة ؟ لا أحد بالصالون ...

— لست أدري . أظن أن نعيمة تخاصمت هي ومنى .

— نعيمة أيضا ؟ ولماذا تخاصمها ؟

— حدِّثْ أنت امرأة ذات شناءة ، وقل لها لماذا تخاصمين فتاة مسكينة !

دخل مراد الى غرفته ممتعضا ، يقول في نفسه : ان دار أهله لم تعد تلائمه . ودخلت العجوز الى غرفة الشيخ علاوة فوجدته جالسا ، فسألته :

— لماذا أنت هنا ؟

— وأين تريدين أن أكون ؟

— لماذا لم تقعد في الصالون كعادتك ؟

— مع من أقعد في الصالون ، وحدي ؟

— لماذا تقعد وحدك ؟ أخلي البيت ؟ ماذا وقع ؟ أين أبناؤك ؟

— اذهبي غيري ملابسك أولا ، ولنا الوقت للحديث .

— اذن ، انزل الى الصالون . أنا آتية ... الكل ينزلون . لن أدع أحداً ينام !

. . .

كانت العجوز كلثوم تعني بقولها : لن أدع أحداً ينام ، أن ما حملته من أنباء يكفي لاطلاع النهار . ولم تكن تعلم أن ما وقع وراءها من الخطورة بحيث يجعلها هي لا تنام ليالي عديدة ...

لكن منى ما ان سمعت برجوع حماتها حتى أثارت ضجة . حاول زوجها اسكاتها فأقسمت بكل الأيمان أنها لن تدع الموضوع ينام ، بل تثيره من جديد أمام حماتها وأسلافها وكل من لم يعلم . لن

تسكت ، لن تعفو :

— لا أدع أفعى تتربص حركاتي لتنهشني من الوراء !

توسل لها زوجها بكل ما استطاع أن تسكت ، وقال لها هامسا :

— ليس الآن ، ليس الآن . غدا ينتهي كل شيء . أبوها يأتي اليها والسلام . لا تقيمي علينا القيامة . الجيران يسمعون . هذا ليل ... الصوت مسموع في الليل ! ادخلي .

— لن أدخل . اقتلني اذا شئت وتزوج بها ، لن أدخل . أخبر أمك الآن هي أستطيع أن أقول لها كل شيء ...

سمعت العجوز كلثوم ضجة في الدور الثاني ، وخرج رضا ، دليلة ، هالة ... وصاحت العجوز تخاطب كنتها بعنف :

— جننت الليلة ؟ غبت عنك عشية قلبت الدنيا من ورائي ... أربعة أولاد ومازلت في شؤمك ؟ عيب عليك ، عيب . لن يقبلك أحد !

حققت مني الخطوة الأولى . وأجابت حماتها وهي هابطة :

— لن يقبلني أحد ، لن يقبلني أحد ... اذن كلكم متفقون ! قوليها جهارا ، قولـي ، إننا لا نريدك ، نريد ابنة أخينا لا بنتا !

فردت عليها العجوز كلثوم بغضب وحنق :

— اخرسي لا أوصلك الله الى ما تأملين !

خرجت زبيدة بدورها تساعد أمها على زوجة أخيها :

— تريدين أن نفرغ لك البيت ، لتعملي فيها ما تشائين ! لن يكون ذلك . نبقى جميعا هنا . اخرجي أنت .

اشتد اللجاج والشتائم فخرج الشيخ علاوة ، وأمسك بيد زوجته يجرها الى غرفته وهويقول :

— لا تعرفي ما وقع . اغلقي فمك ، ادخلي الغرفة . وأنت أيتها اللئيمة (زبيدة) اغربـي من أمامي ، وعودي الى حجرتك .

وحاول في نفس الوفت تهدئة منى فقال لها مؤاخذا :

— لِـمَ أثرت علينا هذه الضجة يا بنيتي ، والجيران يسمعون ؟ أقسم لك أنها لن تبقى هنا . إنني كلمت أباها وهو آت غدا ليأخذها . عودي الى بيتك وأولادك أنظري لشيبـي . إنني لا أقبل لك مضرة من أحد مهما كان . أنت أم الاحفاد .

تغلب الشيخ علاوة على حسم النزاع الذي نشب بين الحماة والكنة . وأعاد الجو الى هدوئه الجنائزي .

وقفت العجوز كلثوم بباب الغرفة تنتظره أن ينتهي مع كنته . وأذهلها ما سمعته يقول : غدا يأتي أخوه لأخذ ابنته ! أقسم لكنته بذلك ... اذن القضية خطيرة ، اذا كان الشيخ علاوة نفسه يرضي بطرد ابنته أخيه الذي يدافع عنها أكثر من كل أحد !

قال لها وهو يدخل الغرفة :

— تحبين اللجاج وأنت لا تعرفين الظالم من المظلوم .

دخلت الى الغرفة ، وهي كلها تساءل وحيرة ، وقالت :

— وماذا وقع ؟ قل لي . هل كنت أنت هنا ؟

جلس متهالكا في مقعده قبالة خزانة الكتب وقال يجيب زوجته بصوت أراده أن يكون هادئا وعميقا ، بحثا عن التأثير :

— وقعت كارثة عظمى ! في الحقيقة هذه الكارثة لم تقع اليوم ، وقعت منذ مدة واليوم كملت مرحلتها الأخيرة بالنسبة لنا ... اجلسي ، اجلسي !

— أفصح يا رجل ! لا تتكلم بالألغاز . قل لي ماذا وقع ؟

— ما وقع اليوم هو أن مني أمسكت بتلك العقرب السوداء التي آويناها ، أمسكتها متلبسة بالاثم .

— أي اثم ؟ ومع من ؟

— مع من ، تسألين مع من ؟ كأن الموضوع يحتاج الى سؤال ؟

— مع عمر ؟ هذا كذب ! تكذب عليها اللئيمة . تريد أن يبقى لها البيت وحدها . نعيمة مسكينة لا تقدم على هذه الجريمة !

— مسكينة ... لو لم أكن أعرف عنها ما أعرف قبل اليوم لقلت مثلك : مسكينة ! انها مجرمة ليست ضحية . انها فاجرة ... ما قالته عنها مني أقل من الحقيقة بكثير !

— تكلم يا رجل بوضوح . لم أفهم ما تقول . ماذا تعرف عنها قبل اليوم ؟ ولماذا لم تقل لنا ؟ لماذا قبلتها في بيتك اذن ؟ اخز الشيطان ، إنها بنت أخيك ، ويتيمة . لست أنت الذي تتهمها بتهم لا يقرفها مثلها !

— هي الآثمة ومنى على حق .

— كيف عرفت ذلك ؟

— انها حبلى . نعم ، حبلى تلك التي تقولين عنها مسكينة !

— حبلى ... ماذا تقول ؟ انك خرفت ! نعيمة حبلى ! ممن ؟ من بشر أو من ملك ؟

— قلت لك انها حبلى ، افتعلت هذه المؤامرة اليوم لتغطي بذلك

جريمتها . تشبثت بعمر ، ظنته يرق لها أو يقع في فخها ... ولما رأت منى مقبلة حاولت أن تظهر بمظهر المعتدي عليها ... زعمت اللعينة أن عمر اعتدى عليها ، فهي تدفعه عنها !

— لكن عمر كان في اجتماع ؟ متى جاء الى البيت ؟

— لم أسأله . على كل حال هذا موضوع آخر .

— أنا أستبعد أن يكون عمر اعتدى عليها . وأستبعد كذلك أن تكون نعيمة فعلت ما تقول ! انها منى دبرت هذه المؤامرة الخسيسة لتنسف بيتنا وسمعتنا . هي اللئيمة !

قلت لك انها ضحية ! اسمعي الي أنا على علم بأشياء كثيرة ...

أخرج لها ملف الرسائل ، وقرأ عليها رسائل أولاده . ثم الرسالة التي جاءت الى نعيمة ، فانقلبت بها الأرض ، وأحست كأن كماشات من حديد أخذت تقتلع أمعاءها وكل ما في بطنها . وشعرت بقواها تفارقها . لم تكن تنتظر من هذه الليلة أن تخبئ لها هذه الكارثة . حاولت أن تعيد في نفسها ما سمعت فلم تستطع . ديدي ... مراد ... ليس بأمر هام . ملايين عمر المخفية ، لا تحزن . لكن الكارثة هي نعيمة وما يتصل بنعيمة !

أفهمها الشيخ علاوة بدقة برنامج نعيمة كما صوره له خيالهُ : بما أنها في مأزق خطير لا مخرج لها منه الا بالموت . فكرت أن تستهوى عمر . هي جميلة في مقتبل العمر بالمقارنة مع منى اليوم ... فاذا وقع في شركها فهو الذي يجد لها الحل . واذا لم يقع أثارت حوله الشبهة . وبذلك تصير في أعيننا وفي أعين أبيها ضحية ... ضحية ابن عم نزق ! ... ضحية عمر !

كانت كلمات الشيخ علاوة وهو يوضح في «مخطط» نعيمة، بمثابة شحذ لطاقة العجوز كلثوم. ولما انتهى من كلامه، أحست بموجة عنيفة من الغضب تغمرها، وتظلم الأشياء في عينيها. خرجت مشمرة عن لسانها، لتقول لنعيمة ما لم يعرفه جيلها من شتائم واقذاعات.

لا دليلة، لا زبيدة، لا رضا، لا حتى مراد، استطاعوا اسكاتها وادخالها الى غرفتها. انطلقت تزمجر، تدمدم، تقذف بحمم لعناتها المستقبحة على نعيمة. لم تترك لها جانبا لم تثلبه. رمتها بالفجور، بالنفاق، بالنذالة، بالتأخر، بالجشع، بالوسخ (عاملة الحمام تذمرت من وسخها وقالت لم تر مثلها في حياتها). وسمتها بالجهل، بالغباء بالاعوجاج. اذا نامت نومها غطيط. اذا مشت كالسلحفاة. اذا أكلت أقدام مساجين في وحل. اذا شربت فقرقرة قوارير. اذا ضحكت قهقهت. لباسها لباس غجريات...

لكن نعيمة أمام كل ذلك لم تحرك ساكنا، ولا تحركت من مكانها. لم تنبس بكلمة واحدة. كأنها لا تسمعها ولا تحيا في عالمها بالمرة!

حاولت، بعد أن لم تر رد الفعل من نعيمة، أن تطردها من الغرفة الى حيث لا تراها عيناها. منعتها زبيدة ودليلة ورضا. أما مراد فدخل غرفته وأغلق الباب.

أدرك أن المؤامرة التي حيكت ضد نعيمة هي من التعقيد بدرجة لم يكن يتوقعها. تيقن أن هناك امرا آخر أكثر وأخطر من زعم عمر ومنى. لكنه لم يتوصل الى جواب مقنع. لعل الشيء الذي كان ملازما لظنه أكثر من غيره هو ما يلاحظ من تحول نعيمة السياسي... ظن أن

تطوعها للثورة الزراعية ، ثم مشاركتها في بعض اجتماعات الميثاق هي التي سببت لها مع الشيخ علاوة هذه القساوة وهذا التصلب .

عاد كل واحد الى غرفته . حاولت زبيدة من جهتها أن تخفف من وطأة ما قالته أمها لنعيمة . فذكرت لها أن أمها تقول أشياء لا تفكر فيها أصلا . وأنها دائما في فورة غضبها تفرغ كبتها . وألحت عليها أن تنام بدون أن تعطي أدنى أهمية لما وقع . لكن نعيمة لم تكن تفكر فيما نالها تلك الليلة من سباب وشتائم ، بل أخذت تتساءل في نفسها : من الذي دبر لها هذه المكيدة مع عمها ؟ انه كان قبل اليوم هو الحامي لها ، بيد أنه صار الآن هو ألد من يعاديها ويحفظ القلوب عليها !

فكر رضا أن تلك آخر ليلة لنعيمة معهم . وأنه لا يليق أن تقضيها في هذا الجو السجني . قام فلبس ثيابه وذهب الى غرفة دليلة ، فوجدها تستعد للدخول في الفراش ، وهالة تطالع في احدى القصص الجزائرية الحديثة . فأخبر دليلة بفكرته :

— لا ينبغي أن ندعها تقضي آخر ليلة وحدها .

— وماذا نفعل ؟

— لست أدري ، نسهر معها في غرفة زبيدة مثلا ؟

— أنا عندي فكرة أحسن : نأخذها ونخرج نتجول ، أو نذهب الى أحد الأمكنة في المدينة .

— لا ، نسهر معها هنا بالبيت .

— غرفة زبيدة بين غرفة أمي ومراد ، ولا نستطيع أن نتكلم حتى الكلام . انا أفضل أن ننزل الى المطبخ . لاسيما ونحن لم نتعش .

— فكرة . نذهب الى المطبخ اذن ، ونعد العشاء معاً لنسرى عنها ، ونتعشى ونسهر كما نريد . في المطبخ لا يسمعنا أحد .

وضعت هالة الرواية على منضدة السرير واستوت جالسة وقالت :

— أنا أيضا أنزل معكما .

فأرادت أن تمنعها دليلة ، فقال لها رضا :

— بالعكس ، الافضل ان تنزل معنا . لا شيء ككثرة العدد لسهرة من هذا النوع ...

نزل الجميع غرفة زبيدة . دق رضا دقات خفيفة على الباب ، ففتحت زبيدة وكانت نائمة . اندهشت من وجودهم بالباب فسألت :

— ماذا وقع ؟

دفها رضا دفعا خفيفا الى الداخل ، مشيرا لها أن لا تتكلم . وأخبرها بالمشروع . فبدا على وجهها التضايق . كانت متعبة من العرس . لكنها لم تجد بدا من الموافقة . رأت أن فكرة رضا معقولة لا خراج نعيمة من هذا النفق المظلم الذي أغلقت على نفسها فيه .

كانت نعيمة في فراشها على جنبها الايمن . ظهرها الى جهة زبيدة ووجهها الى الحائط .

هزتها دليلة وهمست لها .

— نعيمة . قومي ننزل الى المطبخ .
— لا أنزل ، أبقى هنا أحسن .
— قلت لك قومي !

جذبتها من ذراعها بقوة حتى كادت تخرجها من السرير . كانت نائمة في الملابس التي تسافر فيها . حقيبتها مع رزمة قرب السرير ، كأنها في احدى محطات السكة الحديدية تنتظر أول قطار !

لم تستطع أن تعارض ما اتفق عليه الجميع . أشار لهن رضا أن لا يحدثن أي ضجيج . فتحت دليلة المطبخ وقالت :

— الآن ينبغي أن نعد العشاء ، نتعاون كلنا حتى أنت يا رضا .

تعجبت زبيدة وسألت :

— ألم تتعشوا ؟

فأجابت دليلة :

— لا . لم نتعش . أبوك قرر أن لا نتعشى .
— أبـي ؟ ولماذا ؟ ما دخله في هذا ؟
— لأنه هو صاحب الثكنة ، هو الجنرال !

لما رأت زبيدة دليلة أخذت تشوش ترتيب الأواني والمواد ، دعتها أن تبتعد وتدع لها الأمر. فرفضت دليلة :

— لا ، لابد أن نتعاون كلنا ، بما في ذلك رضا ونعيمة !

فأعرب رضا عن موافقته ، وقال لنعيمة :

— تقدمي أنت . كلنا نتعاون ...

فتمتمت بصوت لا يكاد يبين :

— معذرة ، لا أستطيع أن أعمل أي شيء .
فألح رضا عليها :

— ينبغي أن تشاركينا ، خير لك من هذا الجمود . ليس هناك أفضل من الحركة لطرد الأفكار السوداء !

— لا أستطيع ، أقسم لكَ . أفكاري لا تستجيب للحركة التي أريد القيام بها .

— بل الحركة لا تستجيب لأفكارك . اغسلي هذه الصفحة وسترين ... حالا يعود الانسجام بين الجهاز العصبي والجهاز العضلي ! جربي ...

— لكن هذه الصحفة نظيفة .

— ها هي ذي أعصابك أخذت تتهيأ للفعل . خذي الصفحة الأخرى .

قالت زبيدة تعرض بمنى :

— اللعينة ... لم تغسل حتى الأواني ! خشيت أن أجدها نظيفة !

انهمك الكل في اعداد هذا العشاء المرتجل . وشعرت نعيمة فعلا بذاك الثقل الذي كان يجثم على قلبها يرتفع قليلا قليلا .

قالت لها دليلة بعد أن أتمت ما أنيط بها من عمل :

— لا تؤاخذي أمي ، انها ما زالت على الفطرة . اذا كان الأمر يتعلق بأولادها لا تبحث عن الظالم ، أولادها قبل كل شيء . .

— لا أؤاخذ أحدا .

لكن دليلة لم يعجبها انكسار نعيمة واندلالها بهذالحد ، فقالت لها :

— لا تستسلمي هكذا ! ردي الضربة بثنتين . اذا عدت الى

القرية فليس ذلك نهاية العالم .

— أعرف أن ذلك ليس نهاية العالم ولا بدايته . انما هي مأساتي أنا !

فرد عليها رضا :

— المأساة ليست رجوعك الى القرية . المأساة لو تبقين هنا بهذه الثكنة كما قالت دليلة ! أتريدين أن تعرفي عملك هذا الذي منه تتألمين ، والذي كنت به من قبل تعتزين ؟ انه مجموعة من قطع الغيار ، لا تشابه الواحدة الأخرى ، ولا هي من مصدر واحد ! انه يحيا في عدد من العصور ، وفي عدد من البلدان في نفس اللحظة . يريد أن يكون من عداد الأغنياء ، ومع المثقفين ، ومع الزعماء ومع الحكام . يناصر الحق ، ويناصر الجلادين . أب طيب وفظ ... يريد أن يكون كل ذلك ، وهو ليس شيئا من ذلك . يعتقد أنه أذكى الناس وهو أبلههم . أضرب لك مثلا واحدا على بلاهته : ... كانت هذه الدار عندما اشتراها تسمى « الربيع » فصيرها ...

فقالت دليلة قبل ان يتم جملته :

— ثكنة . وصير أبناءه فيها جيشه وهو جنرال !

فواصل رضا يقول :

— ... كانت « فيلا » جد جميلة ، تصور الربيع في أبهى سنواته — وكانت حياة المعمرين كلها ربيع في الجزائر ، فقرر وحده بناء طبقة علوية . ثم بعد فترة قرر بناء طبقة ثانية . وهو الآن يفكر في بناء طبقة ثالثة ، وبعدها رابعة وبعد الرابعة خامسة وهكذا الى مالا نهاية ... وهو لا يبني لأننا في حاجة الى طبقات أخرى . ولكن ليقول الناس ،

ان الشيخ علاوة بنى ! بيد أن دعامات وأسس الفيلا وضعت في الأصل لطبقة أرضية ليس الا . هي هذه الطبقة التي نحن فيها ! ... أكثر من هذا ... عندما تم تجهيز الدور الثاني للسكن ، حجز لنفسه الغرفة الأولى فيه . وقال : أنا لا أسكن الأدوار الدنيا ! لم يقتنع ، عندما قلنا له : أنت شيخ ، والصعود والهبوط مرات في اليوم يرهقانك . فصمم على السكن في الدور الثاني . وبعد أسبوع نزل من جديد الى غرفته السابقة في الدور الأول ! هو لا يبحث عن الوثارة ولا الراحة ، يبحث عن المظهر. يريد أن يُرى من أعلى مئذنة !

قالت دليلة :

— لماذا لم يعمل مؤذنا ؟

— ليس الأذان الذي يهمه ، يهمه الناس ... أن يروه كهلال قبة المئذنة !

فلاحظت دليلة أن تشبيهه غير موفق . وقالت :

— هلا ل المئذنة جميل !

— لكن لا معنى له !

— وهلا ل السماء هل له معنى ؟

— ذاك على الأقل يخبرنا أن الشمس طلعت على جزء منه ، وأنه ليس وحده .... .

تكلمت زبيدة مبدية رأيها :

— أنا لا أعرف مثلكما . لكني أظن أن الهلا ل في المئذنة شعار المسلمين ؟

فقالت دليلة متضاحكة :

— لماذا ؟ هل المسلمون أهلة ؟

فقال رضا :

— نحن لا نتكلم عن المسلمين ولا على غيرهم ، نتكلم ...

فقالت دليلة :

— عن الجنرال !

قالت هالة بتأكد :

— ان أبي ليس جنرالا ولا حتى جنديا . هو يعرف أنه لا يقدر علينا ولذلك يفتعل القوة والغضب والتعالى ... أناكم من مرة صرخ علي . لكن عندما أنظر إليه بحدة ولا أخفض بصري ، يغض نظره ، ولا يقدرحتى على مقاومة نظري !

ضحكت نعيمة وضحك الآخرون . وقال رضا مبديا رأيه من جديد في أبيه :

— عيبه ليس الضعف ... عيبه الحقيقي أنه ينظر الى الحياة من خلال ما يسمعه من أصحابه ...

فقالت دليلة :

— مثل بنائه للدار ... أخشى أن يبني ذات يوم دورا على النمط الياباني أو الصيني !

فرد رضا :

— بل يبني دوراً على النمط الأندلسي ، ليعود الى الأصالة !

— صحيح ، هو يحب الماضي . لكن لا أفهم لماذا يتشبث بعض الناس بالماضي ؟

فقال رضا :

— لأنهم يخافون المستقبل . فالرجوع الى الماضي نوع من الطفولة ... لأن المستقبل مغامرة وابداع ! الرجل العاجز لا يمكنه أن يلتفت الى المستقبل . ثم ان أبي لا يفكر بعقله ، وإنما بمحفوظاته ... من الصعب تحليل شخصيته بكلمات !

فقالت د ليلة كالمتبرئة :

— الدرس لا . لسنا في حاجة اليه ، ولا سيما الليلة ! بالنسبة الى شخصية أبي ليست بكل هذا التعقيد ، انه رجل يجري باستمرار للحاق بالقطار ، لكنه في كل مرة يصل الى المحطة يجد القطار قد أقلع !

فقال لها رضا مصفقا :

— جيد ما تقولين ! من حقك أن تكوني في كلية الآداب لا في الحقوق ! أليس كذلك يا نعيمة ؟

— لا أدري .

افتعلت دليلة الغضب على نعيمة وقالت لها :

— لا تقولي لا أدري !

فقالت هالة تدافع عنها :

— من قال لا أدري علمه الله مما لا يدري !

قال لها رضا :

— هذا كلام الشيوخ ، لا الفتيات .

— هذا كلام شيوخ الثانوية ، أين أقرأ !

— صحيح ... لم ينقص شيء لبناء المجتمع الاشتراكي !

فتساءلت هالة مفتعلة الاستبلاه :

— لماذا ، هل المجتمع الاشتراكي أناسه كذلك ؟

— كذلك ماذا ؟

فتكلمت دليلة تلقن هالة كيف تجيب :

— قولي ، هل المجتمع الاشتراكي أناسه لا أدريون ! انك تتكلمين مع رضا ...

— ماذا تقصدين ؟

— أقصد أن رضا الذي هو أنت لو لم يكن في هذا البيت جنرال لكنت ... كيف يقول المصريون ؟ لكنت « بكباشي » هذه الدار !

ضحكت نعيمة بالرغم منها . وكانت دليلة تقصد الى اضحاكها عمدا . فالتفت رضا الى نعيمة شاكيا :

— أرأيت يا نعيمة ؟ ... دليلة جعلتني بكباشيا ؟

— فسألت هالة :

— ما هو البكباشي ؟

فأجابت دليلة :

— البكباشي عند الأروبيين يراد به التحقير ، وعند المصريين يراد به التعظيم ، وعند الجزائريين راوي حكايات « رأس الغول » !

أنفجر الجميع ضاحكين من تفسير دليلة . ما عدا هالة التي استفهمت :

— صحيح ما تقولين ؟

فقالت زبيدة :

— الصحيح هو أن العشاء جاهز .

احتجت دليلة على زبيدة :

— من حقك تعطي لنا الكشف أولا !

— ماذا أعطيك ؟

— الكشف ... « المونية » ، بالعربية !

— « المونيه » هو مقبلات مشكلة ، دجاجة محمرة ، فواكه !

قالت هالة وقد سمعت وقع خطى نازلة في الدرج :

— اسمعوا ! أظنها أمي ...

فهمست زبيدة :

— اطفئي النور !

فردت دليلة بقوة :

— لا .

اقتربت الخطوات حتى وصلت الى الباب ، ثم تحرك مقبض القفل . وكان الباب مغلقا بالمفتاح . واذا صوت العجوز كلثوم يقول :

— من هنا ؟ افتحوا الباب !

فأجابها رضا :

— أنا ، اني أتعشى .

فقالت مستنكرة :

— تتعشى الآن في نصف الليل ؟ افتح الباب !

— عودي الى غرفتك . أتم عشائي وأخرج .

— لماذا لا تفتح الباب ؟

— ولماذا أفتح ؟

قامت دليلة مغضبة ففتحت الباب ، وخاطبت أمها بعنف :

— ادخلي ! انظري ماذا نعمل ؟ اننا ارتكبنا جريمة أخرى ، لأننا نتعشى في هذا الوقت بدون أن نستشيرك !

نظرت العجوز الى الطاولة فرأت صحنا فيه دجاجة وصحونا أخرى بها مقبلات وفواكه ... وكانت دليلة وزبيدة واقفتين ، ورضا وهالة ونعيمة جالسين . اشتطت العجوز غضبا ، وهجمت على الدجاجة فأخذتها فرمتها على الأرض تدوسها بقدميها في هياج غريب وهي تقول :

— الدجاج انتهى زمانه ... لن تذوقها (تعنى نعيمة) !

غضبت دليلة غضبا شديدا ، فأمسكت أمها من ذراعها وهزتها بعنف وهي تقول لها :

— لولم تكوني أمي ...

فصاحب فيها داعية لها بكل المصائب :

— لا أوصلك الله ! أنت ... أنت تقولين لي هذا وتدفعينني ؟ سود الله أيامك ! ياذرية الاثم ... ونادت بأعلى صوتها :

— عمر ! مراد ! الي ، الي ! تريد أن تضربني ... الي !

حاول رضا تهدئتها عبثا . ونادى مراد من درابزون الدور الأول :

— ماذا وقع ؟ ما هذا « السيرك » ؟

ساعد رضا أمه على طلوع الدروج ،ـ وحاول بكل الوسائل تهدئتها خشية أن يستيقظ أبوه فيتعكر الجو أكثر . فاستمرت هي في تباكيها وتشكيها : «دليلة ضربتني ، دفعتني ... لن أقبلها في بيتي» .

فسألها مراد :

— ولماذا نزلت الى أسفل ؟ وأين هي دليلة ؟

— انهم كلهم بالمطبخ . أرادوا أن يجعلوه مقهى ليلى . كلهم هناك ... يا ويحكم يا ويحك يا دليلة الشر !

تعاون مراد ورضا على ادخال أمهما الى غرفتها . وسأل مراد رضا :

— ماذا تعملون بالمطبخ كلكم في هذا الوقت المتأخر من الليل ؟

— نتعشى .

— الآن ؟

— الآن . لأننا لم نتعش .

— ولماذا ؟

— منى لم ترد ذلك !

— ولماذا ؟

ثم غادره الى غرفته وهويقول :

— هذه ثكنة بلا قائد ليست دارا !

وأغلق الباب على نفسه :

أما رضا فقد أفسد عليه مجيء أمه المفاجئ كل ما دبره لمواساة نعيمة . وعاد الى المطبخ ، فوجد أخواته يغلين غضبا . أما نعيمة فلم يكن يبدو عليها أي انفعال ! فأراد أن يعبر لها عن أسفه ، فقالت له :

— لا داعي . كل هذا يندرج ضمن الوضعية الجديدة التي علي أن أواجهها .
— للأسف . انها ما تزال في الحالة البشرية الخام ! (يعني أمه) وأضاف بأسف بين :

— حاولت أن أعبر لك عن أننا في هذا البيت لسنا سواسيا ، ولكني أدركت الآن أننا ما دمنا تحت سقف واحد فكلنا مسؤولون !

فقالت دليلة :

— أنا أفجر هذا البيت ... سترون !

وخرج الجميع من المطبخ كل عائد الى غرفته . ماعدا زبيدة التي رأت أن تذهب الى غرفة أمها لتعرف السبب الذي حولها من امرأة حنون طيبة الى وحش مفترس . فأخبرتها أمها بعد طول الحاح بتفاصيل القضية . لم تصدق ما سمعت وقالت لها :

— مساء الأربعاء كانت حائضا واليوم أصبحت حبلى ؟ هذا بهتان وافتراء عليها ! فردت عليها أمها :
— تريدين أن تقول لك أنها حبلى ؟ افتعلت ذلك للتمويه ... اللعينة ! أرادت أن تخرب بيتي ... لن أشفق عليها ولن أرحمها . لتذهب الى جهنم !
— انك غالطة !
— اخرجي علي ، اخرجي : لا أريد أن أسمع كلامك . لو كنت صالحة لما نزلت الى المطبخ في منتصف الليل مع أولئك المجانين ! اخرجي من هنا !
— لا تصيحي هكذا ... اني خارجة !

عادت زبيدة الى غرفتها مغضبة على أمها ، ولم تصدق حرفا واحدا مما سمعته وخطر لها أن تسأل نعيمة ، ثم عدلت عن ذلك ، خشية أن تزيدها ألما على ما هي فيه .

* * *

رأت نعيمة في المنام أن أباها قرر قتلها ، فدعا كل سكان القرية ، وكل رفاقه المجاهدين الذين كان يحكي عنهم ، الأحياء والأموات . فأتى الجميع الى ساحة الدار . انتظمت حلقة واسعة . وقف أبوها في وسطها يمسك بسيف طويل . ثم جيىء بها الى الساحة في موكب رهيب ، تتقدمه زوجة عمها وعمها . لم تكن خائفة بتاتا . كانت تبحث عن رضا اذا كان من بين المدعوين فرأته واقفا في الصف الأول يبتسم . طرحت على الأرض وجاء شخص لتعصيب عينيها فرفضت . وشهر أبوها سيفه حتى لمس ذبابه السماء . ثم هوى به على رقبتها . فانفصل رأسها عن جسمها . لكنها لم تحس بألم ولا فقدت وعيها . أقبل رضا فوارى جثمانها التراب . ووضع رأسها على قبرها في اتجاه السماء . فنظرت اليها فاذا هي غير السماء التي تعرفها يوم أن كانت حية . انها سماء بديعة الصنع والتركيب . شموسها وأقمارها والنجوم ، كلها ذات أشكال انسانية لا متناهية من حيث الأحجام ! كانت كلها تبتسم لها وتناديها للالتحاق بها وترك الأرض . تململت في جدثها واستعدت للطيران . واذا بصوت رضا يملأ الفضاء من جميع جهاته ، تردد صداه السماوات ، يقول لها : « لا تفارقي الأرض ، لا تفارقي الأرض وأنت لم تتحولي بعد الى سماد ! » فامتد جثمانها في القبر من جديد . وشعرت أن رؤيتها انتقلت من العينين وصارت رؤية وجدانية ... أحست أنها صارت كيانا مبصرا . لم يكن ابصارها جزئيا ، بل كليا . يشمل المرئى كله بجميع ذراته . بحيث صارت الأجسام أمام نظرها قابلة للرؤية الكاملة ! كما أن الزمان لم يكن متسلسلا كما تعرفه في الحياة . ولكنه حاضر غير مجزء . كان بإمكانها أن تفكر فترى . اجتمع التفكير والرؤية والزمان والمكان في شعورها .

ثم شاهدت نفسها بعد ذلك تتحول الى سماد . ثم تنبت زهوراً حمراء ضخمة تعبق بعطر يملأ الفضاء شذاه . واذا بصوت رضا يناديها : « الآن ، أديت مهمتك في الأرض . لك أن تعرجي الى أي ملكوت » . فتجيبه هي : « لا أعرج . ملكوتي الأرض . أبقى هنا لتستنشق عطري ... » .

واذا بها تستيقظ على صوت منبه سيارة . قفزت من حلمها تبحث بيديها عن رأسها . وكان النهار قد طلع . ثم سمعت باب سيارة يغلق . ثم بعد لحظات سمعت جرس الباب . نظرت الى الساعة في يدها فوجدتها الثامنة الاربعا . عرفت أنه أبوها . ليس هناك من سكان المدينة من يأتي في هذا الوقت . أبوها هو الذي بكر كعادته ليعود بها قبل أن ينتشر الحر !

لم توقظ زبيدة . رأتها مستلقية على ظهرها في نوم عميق ، وبسمة رقيقة مرتسمة على شفتيها ... أخذت حقيبتها ورزمة فراشها وفتحت الباب فرأت عمها هابطا . هيأته تدل على أنه قام منذ وقت طويل .

انتظرت حتى سمعته وصل الى الباب الخارجي وفتحه ، فنزلت . وكانت وهي في الدروج تسمع أباها يسأل عمها عما حدث .

لما وصلت الى أسفل ، رأتهما يدخلان الصالون . فكرت ماذا تفعل ؟ هل تنتظر بالممر ؟ أو تخرج للسيارة فتنتظر أباها هناك ؟ أو تدخل للصالون ؟ بدا لها أن الدخول للصالون أفضل . هي لم تفعل شيئا لتخفي نفسها من أحد ، أو لتخشى أحدا . انها متهمة ظلما . دخلت فقبلت رأس أبيها ، ولم تقبل عمها . فلاحظ لها أبوها ذلك .

— وهذا ، ألا تعرفينه ؟

لم تجب بشيء . فأعاد أبوها آمرا :

— قبلي رأس عمك !

فنطق الشيخ علاوة :

— لا أريد . لوعرفت لي قيمة لما وصلنا الى هنا .

لم تتكلم نعيمة ولم تتحرك من مكانها . قال الشيخ علاوة لأخيه :

— اجلس ، اجلس ، إنك تعبت من الطريق .
— لا أجلس . لم آت للجلوس . أريد أن أعرف ماذا وقع ؟

اتجه الشيخ علاوة الى المتكأ ، ومسبحته في يده ، يعد حباتها عدا سريعا ، محاولا تغطية ما هوفيه من انفعال .

فكر صالح :

— ماذا وقع ؟ ماذا عملت ؟

— ماذا عملت ؟ عملت ما لا تقبله السماء ولا الأرض ! انك أخي والحديث بين أخوين لا يتسع لكل شيء .

فقالت نعيمة مكذبة :

— انهم يعتدون علي ، ثم يتهمونني بجرائرهم !

تحير أبوها مما يسمع . ابنته يعرفها ، لا تكذب ولا تجرؤ على الحديث أمامه وامام عمها بهذه الطريقة لو لم تصل الى درجة قصوى من الحيف . وقال لها متسائلا بتعجب :

— من اعتدى عليك ؟ ومن اتهمك ؟

واذا بالعجوز كلثوم تدخل مهاجمة بدون أن تحي سلفها :

ـــ كنت أود أن أراك وصلت قبل الفجر ، لكي لا تتلافى عيناي بهذه الأفعي ! (تشير الى نعيمة) .

فرد عليها سلفها بحدة :

ـــ عيناك لن تتلاقى بها بعد اليوم ! لكن ماذا عملت لكم هذه « الأفعى » كما تقولين ؟ ومنذ متى صارت هذه اليتيمة البائسة أفعى ؟

تقدمت نعيمة من أبيها لتجذبه من يده وتطلب اليه الخروج وعدم مواصلة الحديث مع امرأة فاقدة لعقلها في نظرها . لكن أباها رفض ، وأحب أن يعرف ما وقع . ولم تترك له العجوزكلثوم فرصة لاعادة سؤاله ، فقالت :

ـــ تريد أن تعرف ماذا فعلت ؟ انها أرادت أن تدنس سمعة عمها وأولاده ، سمعتنا جميعا ، حتى أنت ! والتفتت الى نعيمة تقول لها :

ـــ لماذا تنظرين الى الأرض مفتعلة الحياء ؟ قولي لأبيك ماذا فعلت . قولي له عن قذارتك !

فردت عليها نعيمة :

ـــ لا أسمح لك أن تقولي في هذا ... لست قذرة ابنك هو القذر ! أنا أطهر من كل أحد !

التفتت العجوزكلثوم يمينا وشمالا متعجبة باحثة عمن تستشهده على ما تقول نعيمة :

ـــ اسمعوا يا ناس ... اسمعوا ، تتهمنا نحن بالقذارة ! تتهمينا أيتها البنت التي باعت شرفها !

قالت نعيمة لأبيها ، ولم تعد تقوى على البقاء لحظة زائدة :

— أبـي ، هيا بنا . لم أعد أقدر على سماع المجانين !

لم يلتفت صالح الى ابنته وأعاد سؤاله على زوجة أخيه بدون أي انفعال :

— ماذا فعلت لكم ؟ أنا جئت من أجل أخذها ، ولكن لابد أن أعرف ماذا فعلت .

كان عمر في تلك اللحظة بالممر الأرضي متسللا الى خارج البيت لئلا يتلاقى بعمه . وأوصى زوجته أن لا تنزل الا بعد ذهاب عمه وابنته .

أجابت العجوز كلثوم سلفها :

— انها دنستنا ودنستك . اسألها هي ماذا عملت !

فقال الشيخ علاوة :

— لماذا الآن كل هذا الكلام ؟

فرد عليه صالح بتهكم غاضب :

— أرى أنها قلبت بكم الجزائر ! إنكم لا تستحون تكلمونني بمثل هذا الكلام عن بنت كنت أظن أنها بين أهلها ... انكم لا قيمة لكم !

وأشار الى نعيمة بالخروج ، متأهبا لمغادرة الصالون . لكن العجوز لم ترد أن تبيب فيها الضربة فقالت :

— بنتك هي التي لا قيمة لها ! اذا أردت أن تعرف ماذا فعلت انتظر بضعة شهور... انك أصبحت جدا في الحرام !

صاح فيها الشيخ علاوة :

— اخرسي يا امرأة ! اخرجي من هنا !

فأعادت العجوزكلثوم من جديد مؤكدة :

— قل اننا لا قيمة لنا ... لأننا لا نريد الفجور ! ابنتك تنتظر ولدا !

اهتزت الأرض بصالح . وصرخت نعيمة :

— انك امرأة مجرمة ! أنا أشرف وأطهر منك ! لا تخيفني فرياتك الآثمة لا أخافك !

والتفتت الى أبيها :

- انها مجرمة هي وابنها !

أحس صالح الصالون يدور به دورانا أظلم في عينيه كل شيء . ولكنه مع ذلك سيطر على أعصابه بكل ما فيه من قوة . وقال مخاطبا زوجة أخيه في لهجة تهديد رهيبة :

— أيتها المرأة ، لا تنسي ما قلت ! انك كشفت عنا الستر ...

فأجابته قبل أن يتم كلامه :

— لا أنسى من انغمست في الاثم وتريد تشويه من أحسن اليها !

فخاطبت نعيمة أباها :

— أبـي ، لا تسمع اليها ، انها فقدت عقلها !

— اخرسى أنت والا قبضت روحك ! لا حق لك الآن في الكلام !

وقال مخاطبا من جديد أخاه وزوجته :

— اذا كان ما قلتموه صحيحا أعرف كيف أغسل العار ، واذا كان كذبا لن ينجيكم مني حتى الشيطان !

واذا برضا يدخل الصالون بقوة كمن جاء مسرعا قبل أن يفوت الحال ، فيحي ، فتقول له أمه :

— وأنت ما جاء بك الى هنا ؟

فيخاطب عمه :

— عمي ، لا ادري بالضبط ماذا وقع ، ولكني أؤكد لك أنها جريمة دبرت ضد نعيمة . انها فتاة شريفة !

يصرخ فيه أبوه ، لكن العم يخرج هو وابنته ، وكل ظلام الدنيا يملأ عينيه ويملأ نفسه . أما نعيمة على العكس ، أحست كأن الضباب الذي يجثم على نفسها أخذ ينقشع .

انطلقت سيارة 404 الشاحنة مع الأنهج الملتوية المؤدية الى الشارع الرئيسي الذي يتجه الى الشرق . وأحست نعيمة كأن السيارة تبتعد بها عن الجزائر في كل لحظة تمر ، بالآف الآميال ! وتبعدها عن المستقبل الذي كانت تعد نفسها له ، بملايين الاميال ! كل شيء في حياتها يتغير ! يتغير بدون أن تكون لها يد في التغيير ... وراحت تتابع نظراتها الطريق المقبل عليها ببناياته وأشجاره . وكانت تود لو لم ينته هذا الطريق أبدا !

لم تكن خائفة ولو أنها تعرف مدى قساوة أبيها ، لأنها ترى أن التهمة التي اتهمت بها فوق كونها زائفة هي سخيفة ! لكنها مع ذلك كانت تتساءل في أعماقها لماذا اتهمت بمثل هذه التهمة ؟

* * *

- 13 -

عندما استيقظت دليلة وزبيدة وهالة ونزلن الى المطبخ كعادتهن لتناول القهوة كانت السيارة التي تنقل نعيمة قد انفصلت عن الطريق الرئيسي الذي يربط بين الجزائر وقسنطينة وعرجت الى اليسار مع الطريق المؤدي الى تيزي وزو.

لم يكن بالمطبخ غيرهن . العجوز كلثوم حملت الفطور الى مراد بغرفته ككل يوم أحد . منى بقيت في غرفتها هي وأولادها . أما رضا وعمر والشيخ علاوة فكلهم خرجوا ولم يعد أحد منهم الى البيت .

ذكرت زبيدة أنها عندما استيقظت وجدت سرير نعيمة خاليا . وكانت الساعة حينئذ التاسعة . أما هالة فزعمت أنها سمعت خصاما بالصالون بين أمها وعمها فآخذتها دليلة على عدم ايقاظها ، وقالت :

— لاشك أنهما حملاها كل جرائم الدنيا .

أمرت زبيدة هالة بالخروج فاحتجت على ذلك :

— هل أنا جالسة في حجرك ؟

— لي كلام مع دليلة ، بيننا وحدنا .

خرجت هالة حانقة على أختها الكبرى التي تعاملها معاملة الأم . فأغلقت زبيدة الباب وقصت على دليلة ما ذكرته أمها لها بالأمس ، من أن نعيمة تنتظر ولدا .

سكتت دليلة تتأمل الموضوع ، وتبين لها أن نعيمة ذهبت ضحية خطأ فادح وأن الرسالة المرسلة اليها هي السبب في كل ما وقع . لكنها لم تفهم لماذا ابوها وأمها ربطا قضية الرسالة بقضية عمر ؟ وكادت تشك ان عمر هو الذي اطلع على الرسالة فهددها بفضحها ان لم تذعن لرغبته فامتنعت وحاولت أن تتخلص منه فرماها بتهمة الحمل ...لاحظت زبيدة أن ما حكته أمها لها لم تصدقه ، لأن نعيمة تنام معها :

— لو كانت حبلى ، أولها سلوك يخالف ظاهرها لأدركت ذلك .

فردت دليلة قائلة :

— كل شيء يتضح في وقته . أنا خارجة الآن .

— الى أين ؟

— لست أدري . لوكانت لي سيارة وكنت أحسن السياقة لا لتحقت بنعيمة .

— لا تعرفين القرية .

— أسأل عنها . انها على بعد ثمانين كلم من الجزائر ، ليست في القمر !

— أنا بالنسبة الي كل الأماكن أبعد من القمر .

.. ..

أحزن دليلة أن تكون هي السبب فيما وقع لنعيمة ، ولكنها لم تجد الطريق الذي تتدخل به لانقاذها مما هي فيه . أولا .. ما تصورته بخصوص الرسالة لم يصل منها الى درجة اليقين . ثانيا .. وعلى فرض تأكدها من ذلك ماذا تفعل ؟ لو اطلعت على الأمر قبل مجيء عمها ، أولما كان بالصالون مع أبويها لربما استطاعت أن تعمل شيئا ، أما الآن كل ما تقدر عليه هو أن تنتظر .

نزلت الى القصبة لتتفقد الغرفة التي اكترتها ، ولتتعرف أكثر على الجو الذي ستحيا فيه عما قريب . كانت سالكة نهجا ضيقا صاعدا من باحة جامع كتشاوة الى أعالى هذه المدينة القديمة الغامضة . واذ رآها مقبلة بائع السمك المتجول صاح مناديا : « سردين خشين » . فقالت في نفسها : « علي أن أعد نفسي لتعلم مصطلحات وأنماط أخرى ... » ولم تكتمل الجملة في نفسها حتى صاح طفل يبيع السقائر : « سيقارهافانة ، راه معنا ، ياللي تدخن السيقار ! » .

وكانت في طريقها ذاك الضيق المصعد تحس كأنها في عالم آخر ، وأن الأنظاركلها مسلطة عليها . وحينا بعد آخر ترفع رأسها ، متعرفة على البيانات وأشكالها ، فلاحظت ضيق النوافذ بصوزة تكاد تكون متماثلة في كل بيت . فخطر ببالها أن هذه النوافذ ضيقة لأن البيوت مجعولة لا قامة النساء ، فلوكان الرجال هم الذين يمكثون بالبيوت لجعلت النوافذ واسعة يقينا ! ولم تدركيف التصق بها شخص وراح يتخذ من نفسه دليلا لها . وقال : ان شكل البناء القديم يختلف عن بناء عصرنا . هذه الأنهج الضيقة الملتوية صممت على هذا النحو لوقاية البيوت من شدة الحرارة والرطوبة . لم تكن الحياة في الماضي تتوفر على وسائل التبريد ... فقاطعته دليلة :

— أعرف ذلك ، شكرا . لست في حاجة الى دليل !

فواصل الرجل حديثه كما لولم يسمعها :

— لورأيت هذه البيوت التي تبدوبائسة حقيرة من الداخل لا نكشفت لك قصوروروائع لا تخطر ببالك ! ليست كل البيوت طبعا ، ولاسيما الآن حيث تغير السكان فنزح السكان الأصليون الى المدينة الأروبية

وجاء سكان جدد من جهات أخرى فقراء وغير متحضرين ، فأفسدوها ... طبعا ، هناك عائلات قديمة لم تغادر بيوتها ، فحافظت على ما تحتويه جمالا وفنا وجوا . لكنها عائلات في معظمها فقيرة ... من المؤسف أن لا يلتفت الى هذه المدينة التاريخية الالتفات المطلوب ...

فقالت دليلة في نفسها : «لا نعرف في الجزائر الا النقد ! » وقاطعته :

— قلت لك إني جزائرية ، لست أجنبية !

ضحك الرجل وقال :

— كل من لا يسكن القصبة هو أجنبي عنها . ماذا تعرفين عن هذه المدينة ؟

— تريد أن ترشدني بالرغم مني ؟

— أرشدك بموافقتك . أنا أعيش من هذا العمل . وأنت تستفيدين معلومات لا تعرفينها .

— عندما ترشد الأجانب تحدثهم عن اهمال الحكومة لهذه المدينة ، كما فعلت معي ؟

— أنا لا أنتقد أحدا . كل من يعرف القصبة يغيظه حالها . انها مدينة تستحق العناية من كل أحد . ليست لنا عشرات القصبات !

— تلوم السلطات ، والسكان لماذا لا يسلكون سلوكا مدنيا ؟

— السكان في حاجة الى الارشاد والعقاب معا ...

— لا يهمني كل هذا ، دعني من فضلك . انني وصلت .

وكانت دليلة وصلت بالقرب من دار عربية قديمة في زقاق ضيق متفرع عن النهج فسألها الرجل كالمندهش :

— تسكنين هنا ؟

— نعم ، في تلك الدار المقابلة ...

واستدركت :

— لي قريبة تسكن بها .

— الدار التي نراها من هنا عليها لافتة ؟

— نعم . لماذا كل هذه الأسئلة ؟

— انها غير مسكونة ! لعلك غلطت في النهج ؟

— أليس هذا نهج ...

وبحثت عن العنوان المكتوب في وصل الكراء في حقيبتها وأعطته له . فضحك ضحكا عاليا ، وقال :

— خدعوك ، مثل الآخرين !

— ماذا تقول ؟ أترتاب في صحة الوصل ؟

— هذه الدار مغلقة يا آنسة ، لا يسكن بها أحد . انها في حالة انهيار .

تعجبت دليلة مما تسمع ! انها جاءت الى هنا بنفسها ، ودخلت الى الدار وشاهدت الغرفة التي اكترتها ، ووجدت سكانا آخرين بالدار ... وقالت له :

— الدار مسكونة . وأنا متحققة مما أقول ...

فقاطعها قائلا :

— لو تبقين في هذا المكان ساعتين أو ثلاثا لرأيت مكترين آخرين وقع لهم ما وقع لك ... انها عصابة ... هيا معي لتتحققي من قولي .

مشت معه الى غاية باب الدار ، فأراها قرار البلدية القاضي بغلق الدار المعلق بالباب . فقالت دليلة :

— لوحة مزيفة من غير شك . وضعوها فوق هذه عندما جئت للاطلاع على الغرفة .

— والسكان الذين كانوا بها اذن ؟ هم أيضا مزيفون ؟

— انها عصابة تفكر في كل شيء . ليس أسهل من جلب عجائز كساكنات مقابل مبلغ من المال .

— لكنه ليس مبلغا ضخما ...

— بالنسبة للشخص الواحد ، أما اذا كان المكترون مائة ! ...

— وماذا أفعل الآن ؟

— اذهبي الى المحافظة وقدمي شكوى ضد مجهول . هذا ما تستطيعين فعله .

شكرت الرجل واعتزمت مغادرة القصبة ، وهي في سخط أسود ، فقال لها الرجل :

— لا تذهبي هكذا ... وتعبي ؟

— آ ... لا مؤاخذة .

أخرجت حقيبتها وبحثت بين القطع النقدية فوجدت واحدة بخمسة دنانير فأعطتها اياه ، فرفض محتجا :

— لا يا آنسة . ماذا أفعل بخمسة دنانير ؟ أشتري بها كيلو سردين ؟

نظرت اليه دليلة بازدراء ، وهمت بدفعه الى أسفل النهج ، ثم عدلت عن ذلك ، وأخرجت أوراقا نقدية وسألته كم حقه فاشترط

خمسين دينارا . أخذت ورقتين من فيئة العشرة دنانير وناولتها له ، فأخذ يحتج من جديد فقالت له :

ـــ خذها وإلا انصرفت بدون أن أعطيك حتى صنتيما واحداً !

ـــ لولم تكوني امرأة لرأيت ...

ـــ لرأيت ماذا ؟

رمت له العشرين دينارا وانصرفت فأخذها وبقي ينظر اليها وهي هابطة في غضب ... لقد تعجب من جرأتها واعتدادها بنفسها الى ذلك الحد !

ودت دليلة لو تبكي مما كانت فيه من سخط وغضب على الذين سخروا منها ، فأكروا لها غرفة في دار مغلقة ! وجدت نفسها فجأة في طريق لا ينفذ . كانت هذه الغرفة بمثابة النور في ليلة مظلمة لسفينة ضائعة بين العواصف . بيد أن هذا النور أيضا سراب ! سفينة دليلة لم يحن لها رسو . الى أين تذهب ؟ ماذا تفعل ؟ انها حتى لو أفسحت لبركانها أن ينفجر ، وصرخت بأعلى صوت تلعن أنوثتها التي رمت بها في هذه الدركة المزرية لما أفاد ذلك شيئا . أنوثتها لا ترتفع عنها بعصا سحرية . الجنين الذي في أحشائها لا يذوب ويصير ذرات في دمها بالمصادفة . فهو اما أن يخرج في وقته للحياة ، وخروجه عندئذ تترتب عنه مسؤوليات لا تحصى . واما أن يخرج قبل الآوان ، فتترتب أيضا عن ذلك مسؤوليات ، ولكن من نوع آخر ، لعلها بالنسبة لغزيرة الأمومة فيها أثقل وأمر ! ما العمل ؟ الغرفة ـــ الأمل انغلقت في دار

مغلقة بقرار من البلدية ... آه ، لو استطاعت أن تسكن فيها وهي في حالتها تلك ، فتنهار عليها وترتاح نهائيا من هذه الحياة — السراب !

« لا يانعيمة ، لست أنت المسكينة ، ولا السيئة الحظ ... أنت على أسوأ حال تجدين من يقتلك ! أما أنا من يقتلني ؟ كلهم جبناء . أقتل نفسي ، أنتحر ؟ أنا لست جبانة ... وكأن هذه الفكرة التي برزت بغتة الى دائرة الشعور استعذبتها : « أنتحر ، أرمي بنفسي في البحر ، وأصبح لا شيء . ماذا تخسر الدنيا بفقدى ؟ ماذا يخسر مجتمع الرجال بفقد فتاة بائسة ؟ لا شيء . الموت على كل حال أهون من الحياة بلقيط في ذراعي ! » .

فكرت مليا في الانتحار . كانت واقفة بالدرابزون الحديدي للرصيف المقابل للغرفة التجارية . ترى البحر أسفلها على بضع عشرات من الأمتار ، بزوارقه وبواخره ، بمرساه المكتضة حتى القيء بالبضائع المستوردة والتي لم تنقل منذ كم من شهر ، بعماله ومسافريه ، بالسراق المتنكرين في كل الأزياء ، بأوساخ المدينة التي تصب فيه ...

لم تحس بمرور الوقت . لم تحس بضجيج المرور . كأنها نفذت من عالم الواقع الى عالم آخر أشد واقعية ، عالم اليأس . لم يكن البحر يبدو في نظرها أزرق شفافا لم تكن الأقواس الممتدة الى مالا نهاية على يمينها ، حاملة في شموخ شارع الاستقلال وزيغوت يوسف وشي غيفارة ، تظهر لها في هندستها البديعة ، كانت تبدو لها ظهورا منحنية مما تحمل فوقها من ثقل . لم يكن الجزء الشرقي من المدينة الذي يرى من هناك في نظرها ذا أبهة وعظمة ورواء . لم يثر في نفسها حتى الغبطة بالانتماء الى هذه المدينة الجميلة .

فكرة الانتحار وجدت في حالتها النفسية تلك أرضية صالحة للخصب : « الانتحار ليس جبنا ولا يأسا . هو خلاص ، هو حل لمشكلتي شربت من اللذة حتى الثمل ، يجب أن أدفع الثمن ، أنا وجنيني . هكذا لا يحيا في مجتمع يتصور رجاله كلهم آباؤه ! ولا أنا أحيا بالخزي معه الى الأبد . » .

لو بقينا حيين ، لكان كلما ناداني ، أمي ، صاحب الكلمة في نفسه الوصف الذي يعطي للأمهات اللواتي تلبسن بالاثم مثلي . ان عشنا حكمت عليه الى الأبد بصفة اللقيط ! الانتحار يمحو في لحظات كل شيء ... » .

هي في أفكارها السوداء تلك واذا بصوت قريب يقول لها : « الانسة .... » فترى رجلا يلبس نظارة سوداء يبتسم . وفي ابتسامته لمع الناب الذهبـي الذي التقت بصاحبه منذ أيام قلائل :

— صباح الخير ! ألم تعرفيني ؟ أنا الذي رافقتك الى بن عكنون يوم الخميس الماضي . كنت بمفترق طرق القبة وحسين داي ...

استبشرت دليلة به كما لو أنه ملك نزل عليها من السماء . ولم تدر لماذا ؟ ومدت يدها تصافحه بود :

— أهلا ، كيف حالك ؟

— جيدة ! أوقفت السيارة هنا ، فرأيتك فعرفتك ...

— أنا سعيدة بلقائك !

— أنا أسعد !

— إنك دائما مستبشر بالحياة ؟

— ولم لا ؟ أعيش في مدينة جميلة ، وفي بلد حر ، وليس لي أي مسؤولية على غيري هل لي أن أسألك ماذا تعملين هنا ؟

— أنظر الى البحر .

— جميل البحر !

— نعم ، جميل .

— هل تحسنين السباحة ؟

— نعم .

— بدأ الناس يذهبون الى الشواطيء ...

— اننا في الصيف . والحر في هذه الأيام شديد ...

— صحيح . لي مشروع أريد عرضه عليك . ممكن ؟

— عرضه ممكن ، أما قبوله يتوقف على محتواه .

— قبل كل شيء هل أنت حرة ؟

أجابت دليلة مازحة :

— ومتى كانت المرأة حرة ؟

ضحك الرجل ورد عليها بما لم تتوقع :

— عندما كانت في الجنة !

— مازلت تحيا مع أفكارك ؟

— وأين تريدين أن أتركها ؟

— معك الحوار صعب !

— بل في غاية السهولة . يصعب الحوار عندما تقف الكلمات في الفم حائرة ، لا تدري أتخرج أم تعود الى حيث كانت .

— تعابيرك مثيرة !

— لأني رجل حوار.

— طيب ، ما هو المشروع ؟

— مشروعي أن نتغذّى معا هنا بساحة الحوت .

— ولماذا هنا وليس في مكان آخر ؟

— لأني لا أغير مشروعي الأول لطارىء مهما كان ...

— وما هو مشروعك الأول ؟

— أن آكل سرطانا في أحد مطاعم ساحة الحوت .

— يالطيف ! تأكل السرطان ؟ وأي شيء هو ؟

— هو بالعربية « اللانقوست » ! وهو لا يُأكل في جوكتيب . ولا من طرف شخص واحد ... لأنه عندئذ يصبح قنبيطا !

— أقبل دعوتك على شرط أن تتكلم بالعربية !

— وبأي لغة أنا أتكلم الآن ؟

فقالت له ضاحكة وهما يتجهان الى مطعم مشهور بالمكان المذكور :

— وما دخل القنبيط في العربية ؟

— لأنه عربـــي ! القنبيط هو ما نسميه بالعامية : البروكلو.

— لماذا لم تقل من الأول ، بروكلو وانتهي الأمر ؟ أليست اللغة مجعولة أساسا للتفاهم ؟

— لو قلت لك البروكلو ، لصارت العربية عربيات . هل تعتقدين أنه من الضرورة ومن المفيد أن نغير لغة كاملة من أجل مجموعة من الأشخاص لا يحسنونها ؟

— انك تلومني على عدم معرفتي للعربية مثلك ؟

— لا ألومك ، انما أصارحك . أنا مبدئي الصراحة !

— أمزح معك . وأنا دائما معجبة بك وأقبل منك التعنيف لا اللوم والعتاب فقط !

ـــ نواصل الحديث بالمطعم . لأن حركة المرور تضطرنا لرفع أصواتنا ، وأنا لا أحب الحديث بالصوت المرتفع .

ـــ كما تشاء .

لاحظت دليلة أن رفيقها معروف في هذا المطعم ، من مصافحة أحد الندل له وسؤاله عن حاله ، وأنه تغيب عن المطعم ...

أجلِسا في شرفة المطعم الذي كان يتركب من طبقتين ، علوية وسفلية .

وكان رفيق دليلة يفضل دائما الجلوس في هذا المكان ، عندما يأتي الى هنا .

سألهما النادل هل تريدان مشروبات قبل الأكل . وكانت دليلة ترى موائد الأكل حواليها كلها تقريبا عليها مشروبات كحولية ونبيذية ... وقالت في نفسها وهي ترى ذلك : « أبـي وحده الذي لا يشرب الخمر في العاصمة ؟ » .

فسألها رفيقها ...

هل لك في شراب شيء ؟

ـــ هل يمكن ؟

ـــ ولم لا ؟ انظري حواليك ...

ـــ طيب ، أود لو أمكن ، « أسكوتش » .

ـــ وأنا كذلك ، لكن بدون ثلج .

فسأل النادل :

— وماذا ترِيدَ ان كاُكل ؟ أسماك أم لحوم ؟

— فقال الرجل :

— أسماك يا أخي أسماك ! هل نأتي الى البحر من أجل الحيوانات البرية ؟

— ماذا تريدان كأسماك ؟

— سرطانا مشويا !

— طيب . والنبيذ ، أبيض أم أحمر ؟

— نبيذ وردي ، أليس كذلك يا آنيسة ؟

— أنا أود ماء معدنيا .

أخذ النادل الطلب ، وانصرف . فسأل الرجل دليلة :

— ألا تشربين النبيذ ؟

فأجابت مازحة :

— الأحمر نعم ، أما الأبيض فلا .

— أنا مثلك تماما ، لا أحب الأبيض !

فقالت دليلة بنفس المزاح :

— أنت أحمر اذن !

فوضع اصبعه على شفتيه مشيرا لها بالسكوت وقال هامسا :

— لا تقولي هذا ، هنا ...

— لماذا ؟ ألسنا اشتراكيين ؟

فقل الرجل بنفس الهمس مازحا :

— اشتراكيتنا بيضاء !

استحلت دليلة كلام صاحبها ، وفكرت أنها لحسن حظها اليوم التقت معه لقد كانت منذ وقت قصير في شبه دوامة مظلمة لا ترى لنفسها منها مخرجا .

عاد النادل بطلبهما، فرفع الرجل كأسه ليشرب على نخب دليلة فقالت :

— أود ماء معدنيا .

— ألا تستطيعين شرب الويسكي خالصا ؟

— لا أستطيع .

— ولماذا تشربينه اذن ؟

فردت دليلة مبتسمة :

— لأثبت لنفسي بأني أشرب الخمر .

— الويسكي بالماء !

— لأني لا أحب الأشياء الخالصة .

— لماذا ؟

— لأنها لا وجود لها .

— حتى في الكحول ؟

— في كل شيء .

جاء النادل بالماء فأفرغت دليلة كمية تعادل كمية الويسكي ، ورفعت كأسها للرجل وشربت جرعات متتالية ، كادت تفرغ الكأس ، فانتبهت لذلك ، فوضعته على المائدة . .

كانت دليلة تنظر الى الجامع المقابل لها على بضعة أمتار . وحينا بعد آخر ترى رجلا داخلا أو خارجا منه . فلاحظ الرجل انشغالها عن

الكلام بما يجري خارج المطعم ، فاراد ان يعيدها الى جو المطعم ، ، لئلا تنتقل عدوى صمتها اليه فيفسد الجو الذي يبحث عنه فقال :

— هذا المكان عبارة عن عالم مصغر.

لم تسمعه دليلة . كانت منشغلة حينئذ بطفلين في حوالي الثانية عشرة ، يقول أحدهما لصاحبه اشارة كما فهمت من السياق ، «انظر الى ردفي هذه المراة كم هما مثيران ! » وكانت حينئذ امرأة أوربية من السواح أو المتعاونين مارة من هناك ، تلبس فستانا ضيقا أبدى تشكيل جسمها للعيان . فقالت في نفسها : «حتى في الثانية عشرة يفكر الجزائري في مثل هذه الأمور ! » .

فقال لها رفيقها :

— أظن أنك لم تسمعيني ؟

— عفوا ، هل كنت تتكلم معي ؟

— بدت لي ملاحظة حول هذا المكان ، أردت اشراكك فيها ، لكنك كنت منشغلة .... .

— كنت منشغلة بمسؤولية الجزائر في الحفاظ على النوع البشري !

— وكيف ذلك ؟ هل للجزائر مسؤولية خاصة في هذا الميدان ؟

فهم الرجل أنها تعني بكلامها هذا الانفجار الديموغرافي الذي يعبر عن نفسه حيثما التفت الانسان . لكنها هي كانت تفكر في الموضوع ربما بصفة لا شعورية ، وبطريقة أخرى . لم تجبه ، وأخذت كأسها وامتصت آخر قطرة فيه ، وراحت تلعب به في يدها ، وهي تقول في نفسها : «عندما أفجر البركان ، أقول «للجنرال» (تعني أباها) شربت الويسكي قبالة الجامع ! »

فسألها رفيقها وقد رأى كأسها فارغة :

— أتريدين كأساً أخرى ؟

— هل لا مانع من ذلك ؟

— لا مانع بتاتا . أنت حرة !

أشار الى النادل آن يأتي بكأس أخرى . وأجابته دليلة :

— لوكنت حرة لما شربت كأسين وراء بعضهما قبل الأكل ! أشرب كأسين أوأكثر لأني لست حرة .

— أقصد أنك في هذه اللحظة بالذات حرة .

— الحرية الصحيحة لا تكون في لحظة ثم تزول !

عدل الرجل من جلسته فاستقام على كرسيه بعد ما كان منحنيا شيئا ما ، كأنه بذلك يعرب عن أهمية ما سيقوله . وقال لها مصححا تفكيرها :

اذا سمحت لي بالصراحة ، أقول لك انك مخطئة تماما في تصورك للحرية مخطئة كما يخطىء في هذا الموضوع أغلب الناس الحرية ليست شيئا يكتسب دفعة واحدة ويبقى بعد ذلك الى الأبد . الحرية مرتبطة بالمواقف وبالأشياء . تحصل في ذلك الموقف أو الآخر ، وفي تلك الحالة أو الآخرى ... فالحر في هذه اللحظة يمكن أن لا يكون حرا في لحظة آخرى آتية . وفي هذا الموقف لا في سواه .

— لم أفهم ما تعني . أنا أريد أن أقول أنني لست حرة في التصرف ، في العمل في السلوك ، في الكلام ...

— تقصدين الحرية بالمعنى المتعارف . أفهم ذلك . وهي نفس الحرية التي أعنيها بالضبط . أقصد أن أقول بتعبير آخر بسيط : الحرية

في تجدد والكفاح من أجل تحقيقها في تجدد . الانسان يكافح من أجل حريته طوال حياته . لأن الحرية موقف أمام حالة من الحالات . والانسان ليس حرا في كل موقف ولذلك عليه أن يثبت حريته دائما . لهذا يقولون ، ان الحرية هي مسؤولية قبل كل شيء . واذا أردت ، أنا أعتقد أن أقرب شيء الى فكرة الحرية هو فكرة الثورة . الثورة اذا توقفت لم يعد الشعب الذي كان ثائرا يوصف بها ، ولا تبقى بينه وبينها سوى الصلة التاريخية . أي أن تلك الثورة تصير مادة للتاريخ ، لا للتقدم الانساني أما التجدد فهو الحياة نفسها . اذ كل ما لا يتجدد هو الموت .

— بما في ذلك المبادىء ؟

— بما في ذلك المبادىء .

أقبل النادل بكأس الويسكي ، وسأل الرجل :

— وأنت ، سي عبد العزيز؟ أتريد كأسا أخرى ؟

كاد يقول له : « هل جئت الى هنا لأسكر؟ » ثم أوقف الجملة في حلقه لئلا يجرح شعور دليلة . وأجاب :

— كأسي لم تفرغ بعد !

كانت دليلة تفكر في الطريقة التي تصل بها الى الحديث عن عمل مؤقت ، أوسكن . ليس لأن حديث الرجل لم يلائمها ولكن لأن ما هي فيه أمسّ بمصيرها القريب . خصوصا بعد أن اكتشفت الفخ الذي وقعت فيه في القصبة !

سألها ما يشغل بالها . وكان يبدوعليها فعلا انشغال وكآبة :

— يبدوعليك كأنك محتارة ؟

— أفكر في قصة وقعت لي هذا الصباح ...

وحكت القصة من أولها الى آخرها . فاستغرب لطرافة هذا الاجرام . وقال لها :

— وما يدريك أن الدليل الذي أخذ منك العشرين دينارا ليس من أفراد العصابة ؟

— لم أفكر في هذا ، قد يكون ... ان عالم القصبة غريب !

— ذكاء الفقير اذا لم يوجه توجيها صالحا في الوقت المناسب ، ينموالى الوراء في الاتجاه المعاكس !

سكت يفكر في الموضوع . ثم قال لها :

— ألا يضايقك اذا ألقيت عليك بعض الأسئلة ؟

— أبدا ، أسأل عما تشاء .

— لماذا اكتريت هذه الغرفة في القصبة ؟

— لأسكن بها .

— أنت ؟

— أنا !

— وما يدفعك الى ذلك ؟

— أريد ... أريد أن أحيا في وسط الشعب الحقيقي !

قالت ذلك وبلعت ريقها لأنها لم تقتنع بجوابها . لاحظ رفيقها عدم توفيقها في الكذب فقال :

— الكذب فن ، ليس في وسع أي أحد أن يكذب !

— صحيح !

— اذن لماذا تستعملين هذا الأسلوب الذي هو عادة من أساليب

كتاب القصص المبتدئين ، أو زعماء الضواحي . الشعب الحقيقي موجود في كل مكان ، ليس في القصبة وحدها . والعيش معه هو معاناة آلامه لا التنزه عليها !

لاحظت دليلة أن رفيقها يتكلم أحيانا كلام أحد أساتذة الكلية ، المقتنع بصحة أفكاره ، ولكنها لم تشأ أن تصرح له بذلك . فضلت ان يبقى بينهما حاجز. فأضاف سائلا :

— لماذا تريدين أن تسكني هناك ؟ وما يدريك أنه يقبلك ، هذا الشعب الذي تتحدثين عنه ؟
— لأني لم أجد سكنى في مكان آخر.
— هذا كلام معقول . لكن لماذا تبحثين عن سكنى ؟ ان حالتك لا تدل على أنك بدون سكن ...
— ما أستطيع أن أقوله لك الآن . هو أني في حاجة أكيدة الى السكن والى العمل .
— قولي ، الى العمل والى السكن . العمل هو الأساس . بالعمل تستطيعين أن تنامي اذا لزم الأمر في فندق من الفنادق .
— صحيح . لكنى أنا الآن في حاجة الى السكن قبل كل شيء .

أقبل النادل بالأكل ، فأرجأ الحديث الى ما بعد . وأخذ يقدم لها نصائحه في الأكل ، فأحست دليلة كأنها مع أب متطور الى حد ما . وأضحكها ذلك . ولكنها لم تضحك طبعا . وراحت تعمل بنصائحه التي لم تكن غير مجدية في نهاية الأمر...

عاد الى الحديث في الموضوع الذي يشغل بالها ، فقال وهو يفرغ لها النبيذ :

— لي كاتبة تعتزم الذهاب الى براغ بتشيكوسلوفاكيا ، لأجراء فحص طبـــي شامل ، وقضاء عطلتها السنوية . لها أخوها هناك يشتغل ملحقا بأحد الفروع الخارجية لمؤسسة جزائرية . نصحها أن تلتحق به وتجري ما شاءت من فحوص ، لأن التكاليف هناك أقل من فرنسا أو البلدان الأوروبية الغربية .

قاطعته دليلة متسائلة :

— أليس الطب مجانيا في تشيكوسلوفاكيا ؟

— مجاني للتشيكوسلوفاكيين لا للاجانب !

وواصل حديثه عن كاتبته فقال :

هي تسكن في شقة مع أخيها . لما عين ، بهذا الفرع الخارجي بقيت وحدها . أنها تشكو باستمرار وحدتها في هذه الشقة . يخيل الي أنها لن ترفض من يؤانسها ولو مؤقتا . ومن غير شك اذا توثقت علاقاتك بها ستترك لك الشقة بعد ذهابها الى تشيكوسلوفاكيا . لأنها بالطبع تترك في بيتها أحدا أحسن من أن تغلقها ... ويبدو لي أنني أستطيع أن أقدم لك ولها خدمة . لك أنت السكنى ، ولها هي رفيقة تؤانسها ، وصديقة تصون دارها في غيابها . أما العمل فأمره بسيط ... عندما تذهب هي الى براغ تأخذين أنت مكانها مؤقتا . ثم عندما تعود نفكر في الموضوع . على كل حال أنت الآن في الدراسة . ولا بد من إنهاء سنتك الدراسية ، أليس كذلك ؟

— نعم . .

— لكنه مع ذلك تبقى مسألة أخرى مهمة ، بل أساسية لتنفيذ هذا المشروع ...

— ما هي ؟

— أنا لا أعرف من أنت ؟

— أنا ! هذا أمر سهل . سوف تعرفني في الوقت المناسب . أعرض أولا مشروعك على الكاتبة ، فاذا رضيت به فسأقدم لك كل الضمانات الضرورية للثقة بـــي .

— اتفقنا . أعطيك رقم الهاتف . كلميني بعد ظهر غد ، أخبرك بما تم في الموضوع إتفقنا ؟

— اتفقنا .

أخذ رجلا من أرجل السرطان وقدمها لها :

— أرجل السرطان لذيذة وملهية في نفس الوقت . تفضلي .

— شكرا .

تناولت منه الرجل ، وواصلا أكلهما الذي كان في الجملة جيدا ، زاده جودة لدى دليلة ارتفاع درجة حيويتها من جراء ما شربته من كحول ونبيذ .

وكانت دليلة تتساءل في نفسها : « ترى ماذا يريد مني هذا الرجل ؟ هل باطنه كظاهره أم هو «غرقة» أخرى في «قصبة» لا أعرفها بعد ؟ » .

- 14 -

عن ماذا تعبر الكلمة عندما تنسد منافذ الوجدان ويغلق القلب ؟

عن ماذا تعبر الكلمة عندما ما يطير العقل من الفكر ويبقى المجال للغريزة وحدها ؟

عن ماذا تعبر الكلمة عندما يستحوذ الغضب على كل المعاني ؟

عن ماذا تعبر الكلمة عندما يكون العنف هو التجربة الوحيدة الممارسة ؟

العنف يعرفه صالح أبو نعيمة ، يعرفه جيدا !

العنف كلمة لا تبقي الأشياء على حالها . هو يعرف هذا أيضا .

العنف لا يحتاج الى منطق ولا الى عاطفة ، لأنه يعرف طريقه .

العنف لا يقبل البدائل لأنها لا تتلاءم مع طبيعته .

العنف لا يحتاج الى الكلمات لأنه لغة وحده .

العنف اذن هو الذي يملأ نفس صالح منذ أن سمع من زوجة أخيه تصريحها الرهيب . هو وحده الطريق الواضح أمامه .

ماذا يقول لأبنته وهو في حالته النفسية تلك ؟

الكلمات فقدت معانيها في ذهنه ، فلم يبق للكلام معنى .

ونعيمة ، ازاء ذلك ماذا تفعل ؟ أتبرر براءتها ؟ البراءة لا تبرر ، يبرر الاجرام أتنسج لباسا لطهرها بالكلمات وتنشره أمام أبيها ، لتفند ما تضافر على تدنيسها وادانتها ؟

لا لا ، ليس لها ما تقول . لا يهمها الى أين ينتهي بها الطريق لأن الطريق الذي كان يهمها تركته وراءها .

ليس لها ما تقول لأنها أدركت وهي تحيا هذه الأحداث المتتالية أن المبادىء التي لقنت أياها بالمدرسة وقرأتها في الكتب ، هي مخدرات يصنعها الكبار للتغرير بالشباب ليس الا !

لا ، لم يعد للكلمات التي تعلمتها نفس المعانى التي عرفتها . ينبغي لها منذ اليوم أن تتعلم لغة أخرى للكلام مع الناس . وعي الانسان لا يحتوي على أكثر من مصيره الا في القليل النادر . ووعيها هي لم تعد تحتاج اليه بالمرة . هذا أبوها يسير بها في الطريق الذي يختاره هو في كل لحظة تمر ... أخذ بين يديه مصيرها وحياتها . انها ابنته . هو الذي أعطى لها الحياة . اذن من له الحق في محاسبته ؟ له أن ينزع منها هذه الحياة التي أعطاها لها ... انه حر في تصرفه ما دام العنف لا يقبل معايشة المنطق . ثم بعد كل ذلك ، الحياة في معناها العام لا توقف سيرها مثل الأحداث أو المآسي .

لا داعي اذن أن تتكلم ولا داعي لأبيها أن يتكلم ؛ اذا كان من أجل اضافة صوت الى ما في الطبيعة من أصوات ، فالسيارة قادرة على اعطاء أبشع الأصوات للطبيعة .

جاءت زوجة أبيها وأخ لها في الثامنة وأخت في الرابعة ، يستقبلونها ، فأخذ صالح الطفلين من يديهما يمنعها من الاقتراب من نعيمة . وقال لزوجته :

— لا ، يا امرأة ، لا يكلمها أحد الآن . خذي ولديك الى البيت .

فأرادت المرأة أن تستفسرعن السبب ، فقال لها :

— ممنوع الآن كل حديث عنها حتى يتعين أمرها . عودي الى شغلك . مفهوم ؟

عادت المرأة منكسة رأسها متسائلة عماذا وقع . لم يكن لها أن تخالفه لأنه رجل لا يخالف . هو رجل العنف .

تقدم أمام نعيمة الى حجرة متطرفة بالحوش ففهمت دليلة أنه يريد سجنها فيها . وكان الأمر كذلك . فتح الباب وأمرها اشارة بالدخول فدخلت فقال لها :

— تبقين هنا الى غد وبعد أن نعود من تيزي وزو يتقرر مصيرك ،

لم تجبه بكلمة . اتخذت مكانا في احدى زوايا الحجرة وجلست على الأرض . خرج هو ، ثم عاد بعد لحظات حاملا في يده قلة ماء وخبزة فوضعهما على سدة صغيرة بالبيت وأغلق الباب وهو خارج اغلاقا محكما .

كانت نعيمة تنظر اليه ، لا بحقد وكراهية ، ولكن بشفقة وبشيء من الاحترام وهي تراه في صمته ذاك وطريقة بسلوكه . وتساءلت في نفسها : « لكن ماذا نعمل في « تيزي وزو؟ » لقد قال لها « بعد أن نعود من تيزي وزو يتقرر مصيرك ... » معنى هذا أنها تذهب معه الى هذه المدينة !

ذهب صالح الى الحجرة التي كانت فيها زوجته فأمر الطفلين بالخروج ، وقال لزوجته :

— اسمعي الي يا إمرأة ، انه وقع أمر خطير ، ولكنه بالنسبة الي مازال غامضا ، ولن يتضح الا غدا . ولذلك أرجوك أن لا تسأليني ماذا أفعل ، ولا ماذا وقع حتى أعود غدا من تيزي وزو . وعندئذ فاما أن نقيم حفلا بمناسبة عودة بنتنا ، وندعو جيراننا وعشيرتنا للعشاء ، واما أن نقيم مأتما ، ننعى فيه الى السكان موتها ! لا أريد أن يسمع أي كان بهذا . مفهوم ؟

وخرج قبل أن تتمكن زوجته من تركيب جملة تقولها له . ذهب الى المكان الذي يضع فيه آلات الحفر ، فأخذ معولا ومسحاة ، واتجه الى مكان بنيت به حجرة لكنها مازالت في طورها الأول ، لا باب ، لا جبس ، لا جص ، وبدأ يحفر . سمعت زوجته وقع المحول فأقبلت عليه تستطلع الأمر ، فوجدته بصدد حفر قبر ، فسألته فأجاب محذرا لها :

عودي الى شغلك يا امرأة . قلت لك لا تسأليني عن شيء . مفهوم ؟

نكست المرأة رأسها كالمرة السابقة وعادت الى حجرتها خائفة ، لا تدري ماذا تقول ولا ماذا تفعل ! انه ليس من الرجال الذين يعصى لهم أمر . لم يقل شيئا أبدا ثم لم ينفذه ... انه رجل كلمة ، ورجل عنف . انه يحفر القبر من أجل نعيمة ... اذن يريد قتلها بعد أن يعود من تيزي وزو ، كما قال ! لكن ، لماذا يقتلها ؟ ماذا فعلت ؟ لا شك أنها مسألة تتعلق بالشرف ... اذا قتلها ماذا تفعل هي وأولادها ؟ هو من

غير شك ، سيلقى عليه القبض في وقت قصير . لأن جريمة القتل لا تخفى ...

احتارت المرأة حيرة عظيمة ، ولم تدر ماذا تفعل ؟ وراحت تدور في القاعة كمن يبحث عن شيء ، ولكنها لم تكن تبحث عن شيء . كانت تبحث عن مخرج ، عن فكرة ، عن موقف ولم تجد أي طريق واضح تسلكه مع هذا الزوج الطيب العنيف . انه فعلا رجل طيب الى أقصى حدود الطيبة ، ولكنه عنيف ، في لحظة تتخذ الأمور لديه شكل الموت لا يعرف حلا لما يعترضه من مشاكل سوى الحل الأقصى ..

ولما انتهى من الحفر التحق بها وطلبها أن تعد له قهوة . ففعلت ، فشربها بلاسكر . وقال :

— لو كانت أمها حية لجعلتها تنام الليلة الى جانب قبرها . لكنها يتيمة ...

فأرادت زوجته أن تتكلم ، فمنعها :

— قلت لك لا تكلميني الآن ... غدا ينجلي الضباب ، كل ماتقولينه أعرفه وأحس به أكثر منك . لكن لابد أن أفعل ما يوجبه علي شرفي وضميري معا .

كادت الليلة لا تنقضى على نعيمة . انها أحست أن عمرها كله لم يكن أطول من هذه الليلة ! لم تعرف ماذا يعتزم أبوها فعله ؟ هل يريد سجنها أياما ثم يستنطقها بعد ذلك ؟ ولماذا ؟ لماذا لا يستنطقها أولا ، ثم يرى ما يفعل بعد ذلك ، على ضوء ما يتوصل اليه من نتائج ؟

لكنه يفكر بمنطقه هو ، لا بمنطق نعيمة ! ماذا كان يحفر بالنهار ؟ لم تهتد نعيمة الى جواب عن كل تساؤلاتها : وتعود اليها مقاطيع من زوجة عمها : « انها تنتظر ولدا ... » ، فتقول في نفسها : « أنا أنتظر ولدا ! ما أقسى المرأة على المرأة ! وعمي ، لماذا سكت ؟ لماذا لم ينهها عن ذلك ؟ هو أيضا شريك لها في هذا الاتهام ، لا شك في ذلك . لماذا أنا الذي أقع حبلى وليس احدى بناته » .

وباتت الأسئلة والذكريات تتوارد على ذهنها في اختلاط غريب !

وفي آخر الليل لم تدر من أي منفذ دخل الى عينيها الكرى ... ولم تفق الا على حس الباب يفتح عليها . وترى أباها واقفا يشير اليها أن تتبعه الى السيارة الشاحنة التي نقلتها بالأمس من العاصمة الى هذه القرية .

تقلع السيارة ، تطوي الأرض طيا . كأن أباها يستعجل الوصول ، أو يستعجل موتها ثم بعد سلوك بضعة أنهج في مدينة تيزي وزو تقف السيارة أمام بناية . ينزل أبوها ويأمرها بالنزول . تنظر الى باب العمارة وتتلاقى عيناها بلوحة طبيب ، فتقرأ :

« الدكتور ... اختصاصي في أمراض النساء » ينثلج صدرها . ترقص أحرف لوحة الطبيب سرورا لها . مدينة تيزي وزو تتخذ فجأة شكلا آخر رائعا في نظرها .

تبدو الجبال المحيطة بها مخضرة زاهية . جبال جرجراء تظهر شامخة وقد نزعت عنها حلة الثلوج التي تلبسها شهورا من السنة . الشمس تبدو وكأنها استعارت أشعة أخرى لتعبر لها عن فرحها . السماء ازرقت حتى كادت تصبح جسما أزرق يلمس ! في لحظة تغير كل

شيء من السواد إلى النور ، من الكآبة إلى السرور ، من اليأس إلى الأمل ، وقالت في نفسها وهي تحس بحنان عظيم يملأ نفسها نحوأبيها :
«أبي ليس غبيا كعمي ... يريد أن يتحقق مما سمع ، فسلك أقوم طريق . » .

ضغط على جرس الباب ففتح له العامل فسأله عن الطبيب ، وأخبره عن نفسه . وكان هذا إلطبيب صديقا له منذ حرب التحرير . لحظات ثم يخرج الطبيب الصديق مرحبا سائلا ... يختلى به صالح بينما تبقى نعيمة تنتظر ، ثم يعود الرجلان ويشير الطبيب الى نعيمة أن تدخل . يفحصها فحصا دقيقا ، يأخذ مقدارا من بولها ويضعه في قصبة زجاجية يسخنها على النار ... وبعد أن ينتهي من كل فحوصه يقول لها :

— تستطيعين أن تقومي . انتهى الفحص .

يجلس الى مكتبه يطلب لها أن تنتظر لحظات باحدى غرف الاستقبال ، يكتب شهادة ثم ينادي أباها ، فيسلم له الشهادة ويقول :

— ابنتك أشد عذرة من العذراوات ! اطمئن .

— صحيح ؟

— ها هي الشهادة !

تناولها بلهفة فقرأها وتمتم في نفسه مبتهجا : «أعرف أننا من عنصر طاهر» أعرف أن بنتى لن تخون أباها . أعرف ..

صافح الطبيب بحرارة ، وخرج الى غرفة الاستقبال حيث كانت نعيمة وحدها فقبلها على جبينها وقال لها وقد ترغرغت عيناه بالدمع :

— لم تعرف عينا أبيك الدمع قبل اليوم أبدا . الناس أشرار يابنيتي وأنت شريفة ، كما كانت أمك شريفة !

خرجا من عند الطبيب وقال لها وهما متوجهان الى السيارة :

— اليوم أنت ولدت ولادة جديدة ! لك الحق في كل شيء ، الأب جعل لمثل هذه الأيام ! وعندما نرجع الى الدار نذبح كبشا وندعو جيراننا وأحبابنا بالقرية . رجوعك الى الدار لن يكون عاديا ... وفي نهاية السنة أسجلك بالمعهد التكنولوجي للتربية .

في لحظة عرفت منه كل ما ينتظرها في أيامها المقبلة ! لكن الشيء الذي كانت تريده في تلك اللحظات ، وقد انقشع ذلك الكابوس الرهيب الذي كان جاثما عليها ، أن تنام . ان النوم هو أول شيء أحست بالحاجة الملحة اليه . انها لم تنم منذ أيام نوما عميقا حقيقيا . كانت في عالم آخر ... أما الآن ينبغي لها أن تنام أولا ، ثم من بعد تفكر فيما وقع لها خلال هذه الفترة القصيرة .

توقف أبوها أمام دكان لتصوير الوثائق . تركها بالسيارة ودخل ، وسأل صاحب المحل أن ينقل له عشرة نسخ عن الشهادة الطبية .

ثم عاد اليها وسألها اذا كانت تود التجول بالمدينة أو شراء بعض الأشياء ، فأعربت له عن رغبتها في العودة الى الدار ، لأنها تحس بارهاق وتعب .

انطلقت بهما السيارة من جديد عائدة الى الدار . كانت نعيمة غير قادرة على الحديث ، بالرغم من المحاولات المتعددة من طرف أبيها لجرها له . كانت الدهشة والسرور والحزن وعواطف أخرى كثيرة تعتمل في نفسها وكان عليها أن ترتب أفكارها وتعيد الى نفسها تنظيمها المنطقي قبل كل شيء آخر . وذلك لا يتأتى الا بالراحة .

وفعلا ، نفذ صالح ما صرح به ، فأقام حفلا دعا له أحبابه وعشيرته وكان في كل مرة يسأل عن المناسبة يجيب : الفرح لا يحتاج الى مناسبة !

.. ..

كانت الساعة حوالى التاسعة من مساء الثلاثاء . كل أفراد أسرة الشيخ علاوة بالصالون . عمر كان يتقد غضبا . أقسم بكل الأيمان أن ينتقم من الفرع النقابـي للمؤسسة التي كان يديرها مهما طال الزمن . لقد نجح اضراب العمال ، وصدر قرار من الوزير بايقافه عن العمل كمدير للمؤسسة . وقال لأبية :

— أنا لا أخاف النقابة كوزيرهم . أعرف كيف أحبط كل مشاريعهم . لن يستطيعوا تسويق مالديهم من بضائع . بعد شهر ستأتيك أخبارهم وأخبار مؤسستهم . متى كان العمال يحسنون غير تنفيذ الأوامر ؟

فأجابه الشيْخ علاوة وهو كمن ملّ من سماع هذا الكلام منذ أربع وعشرين ساعة :

— دعنا الآن من هذا الموضوع ، تحدثنا فيه أكثر مما يستحق . سي عبد الكبير قال لي انه يرى بنفسه بعض معارفه الكبار للتدخل في القضية .

— بدون أن يتدخل أعرف أنا بمن أتصل . لست كما تتصور مقصوص الجناح . .

تكلم مراد الطبيب يغتنم الفرصة للثناء على عبد الكبير :

— سي عبد الكبير رجل عظيم ، وكذلك أولاده ، لا سيما كريم .

أحست دليلة بالغثيان وهي ترى أباها وأخويها يثنون على عائلة بن عبد الجليل وقالت في نفسها وهي تفكر في أخيها مراد : الرجل هو الرجل . لا شك أن أحدى بنات عبد الكبير ضحكت له !

أما رضا فقد كان يبتسم من المهزلة التي تمثل أمامه .

لكن العجوز كلثوم لم ترد أن تترك فرصة الحديث عن عائلة بن عبد الجليل تفوت دون أن تثير موضوعا يهمها أكثر من سواه :

— إنهم مستعدون أن يعطوا لنا وهيبة اذا تقدمنا لخطبتها !

فقال الشيخ علاوة باهتمام وحيوية :

— من مثلها ؟ ومن مثل أهلها ؟ انها فرصة اذا ضاعت لن تعود . لكننا نحن لا نستطيع أن نفعل شيئا . أنت الذي تعرف ما يليق بك . (يعنى مرادا) . فتكلم مراد :

— مبدئيا لا أرى أي مانع . اذا رأيتم أنتم أن مصاهرة هذه العائلة تناسبنا .

فرح الشيخ علاوة فرحا عظيما بتصريح ابنه . كاد يقوم من مكانه ويقبله ، ويقول له : « ابني العظيم! أنت ابني العظيم والعزيز معا . ظننتك تحب « ديدي » والآن بعد تصريحك هذا أنت حقا نسخة مني . » .

تهيأ الشيخ علاوة ليرد على مراد بأنه يوافق كلية على هذه الزيجة واذا بجرس الباب يدق . فقال لهالة :

— انظري من بالباب .

قامت هالة لترى من الطارق . وتشوف الجميع لمعرفة هذا الزائر الليلي . قالت العجوز كلثوم :

— انها اليامنة . ليس هناك من يأتي في هذا الوقت غيرها . ترى ماذا وقع لها ؟

لكن الزائر الحقيقي لم يتوقعه أحد . انه صالح أبو نعيمة . دخل ضاحكا وهو يقول :

— انكم كلكم هنا ! جميل ، جميل جدا أن أجدكم كلكم ... الجو العائلي وحرارته هي التي جمعتكم . ليس هناك من يعكر صفو عائلة محترمة ... أليس كذلك يا أخي ؟ أنت الذي يعطى أهمية كبرى للمظاهر ...

قاموا في فوضى لمصافحته ، الشيخ علاوة ، عمر ، مراد ، العجوز كلثوم ، زبيدة ... لكن دليلة لم تعجبها الطريقة التي دخل بها عمها . كما أن رضا رأى في سلوك عمه ، في حديثه بالخصوص تبجحا لا معنى له . طبعا هو لا يعرف أن طريقة الاعتداد بالنفس عند البعض من الجزائريين من أمثال صالح تعبر عن نفسها بمثل هذه الكيفيات .

لما رآهم صالح في فوضاهم تلك أقسم عليهم أن يلتزموا أماكنهم .

كان قلب الشيخ علاوة يصطفق ذعرا . كان يظن أن أخاه جاء لقتلهم عن آخرهم . هو يعرف عمق القساوة التي يتصف بها أخوه المجاهد ، ومقدار اقدامه . وظن أنه قتل نعيمة وجاء ليجهز عليهم ، قبل أن يسلم نفسه للقضاء . فقال له :

— صالح ، أنا أخوك ! ...

فرد عليه صالح قبل أن يتم كلامه :

— أنت أخي ، وهذه زوجة أخي ، وهؤلاء أولاد أخي ... أعرف ذلك . اطمئن ، لم آت لشر ، ما أنتم فيه يكفيكم ... جئت اليكم ببشرى ...

وأخرج من جيبه حزمة الشهادات الطبية التي صورها عن الشهادة التي أعطاها له الطبيب وراح يوزع على من كان بالصالون . ولما وصل الى هالة أعطاها نسخة وقال لها :

— أنت أيضا ... كلكم عندي سواء .

ولما أتم توزيع الشهادات قال يخاطب الجميع :

— فكرت بأنكم في حيرة من أمر نعيمة ، ولا سيما أنكم تحملون نفس اللقب الذي تحمله لحد الآن ... أقول لحد الآن ، لأن نعيمة في المستقبل لا يمكنها أن تحمل لقبا قذرا كلقبكم !

ولما رأى العجوز كلثوم تقلب الورقة التي سلمها لها ، قال لها :

— لم يعلمك القراءة ... خسارة ، عالم مثله علمك البذاءة ولم يعلمك القراءة ! تهيأ مراد للكلام فأمره بالسكوت ، وقال له وهو يكشف عن رشاشة تحت جلابته :

— أنت طبيب ، تعرف أكثر من غيرك ماذا تفعل هذه الرشاشة ! انما أطلب منك أن تقول لأبويك واخوانك ، هل هذه الشهادة صحيحة أم لا ؟

أحست دليلة بالارتياح عندما علمت أن نعيمة لم تذهب ضحية غلطة . ولكنها لم يُعجبها تبجح عمها والطريقة التي جاء يمثل بها دورا لا معنى له . وخاصة عندما رأته أرى لمراد الرشاشة .

اقترب صالح من مراد ، وأعطاه الشهادة الأصلية وقال له بتهديد :

— قل لهم اذا كانت هذه الشهادة صحيحة أم لا .

ثم اقترب من أخيه وقال له :

لماذا كذبت أنت وزوجتك على بنت يتيمة . كادت تذهب ضحية كذبكم ، لولم أعرضها على الطبيب ؟

قام الشيخ علاوة مغضبا وقال له :

— أنا أكذب ؟ أنا أكذب ؟ لا تستحي من شيبـــي ترميني بالكذب انتظر...

خرج مسرعا ليأتي بالرسالة التي جاءت الى نعيمة ، واعطاها لأخيه وهويقول :

— مادُمنا وصلنا الى هذا الحد ، لا حياء في الدين . اقرأ .

رمى صالح الرسالة على الأرض وقال له :

— لماذا أقرأ ورقتك ؟ لوكنت رجلا لعملت معها مثلي .

فقال له الشيخ علاوة مؤكدا :

— اقرأ ، انها الرسالة التي جاءت الى ابنتك !

كانت دليلة واقفة بالقرب من عمها ، فرأت الرسالة ، وعرفت أنها الرسالة التي بعث بها اليها كريمو باسم نعيمة . فكرت أن تعلن للجميع عن مضمون الرسالة قبل أن تقرأها ليتأكدوا من أنها أرسلت اليها . ثم عدلت عن ذلك . ما الفائدة ؟ نعيمة نجت والرسالة سواء كانت موجهة لها أم لا ، فهي لن تعود الى دار عمها أبدا . اذن ، لو أخبرت بحقيقة ماوقع لكان موقفها يشبه الى حد ما موقف عمها .

غادرت الصالون كما غادره رضا الذي كان أيضا غير راض عن الطريقة « البهلوانية » كما سماها في نفسه ، التي أظهر بها عمه ذكاءه وشهامته .

لاحظ صالح الوجوم الذي كان فيه أخوه وزوجته ومن بقي بالصالون فقال يخاطب أخاه وهو خارج .

— عندما كنا نحارب كنتم لاجئين . لا تنسوا ذلك !

تسلل من بقي بالصالون واحدا بعد الآخر . ولم يبق الا عمر والشيخ علاوة والعجوز كلثوم .

كان عمر طوال الموقف معلقا بين الحياة والموت . ظن أن الحديث يتطور الى أن ينتهي اليه ... وأن عمه لن يعفو عنه ، لما يعرفه عن عنفه . لكن عمه كان أذكى من أن يرمي بنفسه وأولاده الى التهلكة !

قامت العجوز كلثوم وقد شعرت بمزيج من الخجل والسخط والندم ، اذ تحققت أن منى هي التي حاكت هذه المكيدة ، لتبقى وحدها بالبيت ! وقالت لزوجها وابنها :

— مني دبرت المكيدة ، وأنتما اتبعتماها ، ففضحتمانا كلنا !

رد عليها الشيخ علاوة بصوت كله حسرة وحنق :

— اسكتي يا امرأة ، اسكتي لا تزيدينا همّا على ما نحن فيه .

لم ينبس عمر بكلمة . كل ما فعل هو مغادرة الصالون . فأضافت العجوز كلثوم :

— فضحتنا اللعينة في آخر العمر ! وفضحتنا أنت ... في آخر عمرك تقرأ رسائل غيرك ! من يفعل هذا ؟ ثم أنت الشيخ العارف ، تنخدع برسالة ؟ ألا تعرف أن الناس يكيدون لبعضهم بكتابة الرسائل ؟ ألا تعرف أننا في التليفون نتلقى يوميا عشرات المكالمات الساخرة ؟

فقام الشيخ علاوة يغادر الصالون بدوره ، وهو كالذي يمشي في ممر مظلم لا يعرف منتهاه : !

ركبت دليلة رقم الهاتف الذي أعطاه لها عبد العزيز الرجل الذي تغدت معه بأحد مطاعم ساحة الحوت ، وانتظرت لحظات ، فأجابها صوت امرأة :

— ألو نعم !

فقالت لها دليلة :

— من فضلك ، أريد أن أتكلم مع سي عبد العزيز .
— للأسف . انه خرج منذ الساعة الثالثة ...
— ألم يقل متى يعود ؟
— لم يقل . من أنت ؟ وماذا تريدين عنده ؟

— أنا احدى معارفه . كان المفروض أن أجده في مكتبه في هذا الوقت ..

— صحيح لم يكن يتوقع الخروج . لكن السيد بن عبد الجليل ، المعَلم دعاه لأمر مستعجل .

اندهشت دليلة لسماع هذا الاسم ! وسألت لكي تتحقق :

— بن عبد الجليل الذي يسكن بالقبة ؟

— نعم . هل تعرفينه ؟ الأب هوالذي دعاه لا الابن ..

— سي عبد العزيزيعمل لدى بن عبد الجليل ؟

— طبعا . ألا تعرفين ؟ هنا المصالح الادارية لِمعامل البلاستيك التي يملكها بن عبد الجليل في الحراش .

— شكرا على كل حال .

— اذا أردت أن يكلمك عندما يعود اتركي له رقمك .

— لا داعي لذلك شكرا . سأكلمه أنا مرة أخرى . مع السلامة .

وضعت السماعة وهي في حيرة من امرها ! ما هذا ؟ ما هذا العالم الذي تحيا فيه ؟ هو عالم مكائد أم عالم سراب ؟ هل كريمو هو الذي حبك لها هذه اللعبة ؟ دارت الدنيا بها ولم تدر ماذا تفعل ؟ بقاؤها بدار أبيها لم تعد تقوى عليه . كل شيء انتهى بالنسبة اليها مع أهلها . إنها تشعر بغربتها بينهم .

عليها أن تغادر البيت في أقرب وقت ممكن . لكن الأبواب التي طرقتها كلها كانت مغلقة لحد الآن .

آخر باب للخلاص هو الرجل الذي تعرفت به وها هو ذا يظهر بدوره سرابا في السراب العام الذي يطوقها .

الأمل الوحيد الذي بقي أمامها هو نصيرة ـ صوناكوم . لعلها تقبلها أياما عندها حتى تجد حلا لمشكلة السكن .

بحثت في محفظتها عن المذكرة الهاتفية ، وركبت رقم الهاتف . أجابتها نصيرة بعدما تبادلا التحية :

— كنت خارجة ، لو طلبتني دقيقة من بعد لما وجدتني ! كيف أحوالك ؟

— مزفتة . والحمد لله !

— ماذا جرى ؟

— لا أقول لك شيئا الآن ، انني أكلمك من البيت . قولي ، نصيرة ، هل تقبليني لاجئة عندك بضعة أيام ؟

— بكل سرور !

— هل أستطيع أن آتي الليلة ؟

— تستطيعين أن تأتي الآن !

— أنا آتية اذن . باي ، باي !

وضعت السماعة وصعدت الى غرفتها وأخذت حقيبتها متأهبة لمغادرة المنزل . فقالت لها هالة :

— سمعتك وأنت تتكلمين في الهاتف ...

— وماذا يترتب عن ذلك ؟

— أنت ذاهبة نهائيا ؟

— نهائيا !

أنت الأولى التي تخرج من هذه الشكنة بارادتها ! «برافو» ! .

الجزائر : الجمعة 28 رمضان 1398 هـ .
الموافق 1 سبتمبر 1978 م .